

ابن تيمية
ظالماً أم مظلوماً

مدوح، محمد

ابن تيمية ظالماً أم مظلوماً/ د. محمد مدوح عبد المجيد. تقديم: أ. د. السيد عبد الرحمن
- القاهرة: نور للنشر والتوزيع/ ط ١ / القاهرة: ٢٠١٧ م.

٢٦٣ ص؛ ١٤ × ٢١ سم

تدمر ك: ٧-٣٦-٦٥١٩-٩٧٧-٩٧٨

رقم الإيداع: ٢٠١٦/٢٢٠٥٥

١- الأئمة والأولياء - دفع مطاعن

٢- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم

٢١٦،٢٤٤

أ- العنوان

دار النشر: نور للنشر والتوزيع

عنوان الكتاب: ابن تيمية ظالماً أم مظلوماً

الكاتب: د. محمد مدوح عبد المجيد

رقم الطبعة: الأولى

تاريخ الطبع: ٢٠١٧

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر



ويحذر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملاً أو جزئياً، أو تسجيله على أشرطة
كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموقّعة

نور للنشر والتوزيع

٦ عمارات الدفاع الوطني - حدائق القبة - القاهرة

ت: ٠١٠٩٢٦٧٣٢٧٤

newbooknb@gmail.com

ابن تيمية ظالماً أم مظلوماً

د. محمد ممدوح عبد المجيد

تصدير

أ.د. السيد عبد الرحمن

تقديم

د. محمد عمارة



2017

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾
 أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا
 يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ
 إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ
 مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ
 بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

الفهرس

الموضوع	صفحة
الإهداء	9
الشكر والتقدير	11
تصدير... بقلم أ.د. السيد عبد الرحمن	13
تقديم بقلم د. محمد عمارة	15
مقدمة المؤلف	21
الفصل الأول: مواقف تصنع الرجال	27
تمهيد	29
أولاً: ميلاده ونسبه	30
ثانياً: ظروف عصره	40
ثالثاً: مفتاح الشخصية	54
الفصل الثاني: أسباب المحاكمة	67
تمهيد	69
أولاً: الخصوم وحقيقة الخصومة	71
ثانياً: نص الاتهام	79
1- نقد ابن تيميه للفلاسفة والمتكلمين	79
2- مشكلة التجسيم	91

93	3- العداء للتصوف
98	4- صراع العقل والنقل
115	الفصل الثالث: الدفاع والنطق بالحكم
117	تمهيد
119	أولاً: الاجتهاد
132	ثانياً: فقه الأولويات
142	ثالثاً: ابن تيمية متصوفاً
145	1- موقفه من آل البيت
151	2- موقفه من الصوفية
158	رابعاً: وحدة الأمة المسلمة
169	خامساً: الآخر العقائدي عند ابن تيمية
190	سادساً: النطق بالحكم
211	الخاتمة
219	ملحق الكتاب.. رسالة الصوفية والفقراء للإمام ابن تيمية
241	المصادر والمراجع
259	المؤلف في سطور



إهداء

إلى كل من يحمل في قلبه رصيдаً
ولو ضئيلاً من مبادئ الإنسانية...



شكر وتقدير

أتوجه في كل عمل جديد لي بالشكر لله أولاً أن جعلني إنساناً.. ثم جعلني مسلماً.. ثم جعلني عربياً..

الشكر العميق لأستاذ جيلي.. مفكر العرب..

الإمام مصطفى النصار

الشكر اللامتناهي لأستاذي الخلق..

الأستاذ الدكتور / السيد عبد الرحمن

الشكر لرفيق الدرب..

الأستاذ الدكتور / أئمن عبد الله سندي

المؤلف

تصدير

بموازينهم المعوجة شرعوا في محاكمته ولكنه أبي أن
يحاكمهم إلا بميزان الشرع، ذلك الميزان الذي ورثه
عن الإمام العظيم أحمد بن حنبل إمام مدرسة أهل
السنة والجماعة، تلك المدرسة التي انطلقت من القرآن
والسنة وهدفها في حركاتها وسكناتها إرضاء رب العالمين.

أفرط في حبه اتباعه وفرط في تقديره أعدائه، والرجل ما فرط في دينه ولا
أفرط، ولكنه سلك طريقة الوسطية التي تعلمها من إسلامه، فكان وسطياً
بكل ما تحمله الكلمة من معاني، يشهد على ذلك منهجه الذي انطلق منه
والذي يجمع بين الاعتماد على أدلة النقل وأدلة العقل معاً، ويقدم أدلة النقل
عند التعارض، وإن كان الإمام لا يرى أي تعارض بين الدليلين، لأن النص
كلام الله والعقل خلق الله، والله لا يتناقض أبداً مع ذاته، بل إن التعارض
الذي قد يبدو بينهما إنما يكون في رؤوس الناس وليس في ماهية الدليلين.

هذا المنهج الوسطي عصمه وإلى حد كبير من المزالق التي وقعت فيها
الفرق الإسلامية، فلم يكفر مرتكب الكبيرة كالخوارج، ولم يقل بإيمانه
الكامل كالمرجئة، ولم ينفي الصفات عن الله كالمعتزلة ولم يثبتها على
طريقة المجسمة، بل أثبت الصفة ونفي الجسمية، وآيته في ذلك ﴿لَيْسَ
كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]..

وتبدوا كذلك وسطيته الرائعة في علاقته بالآخر، حيث كان لا يضع مخالفيه كلهم في سلة واحدة، بل كان لسان حاله ومقاله الذي يتغلغل في كافة مؤلفاته ينادي بأعلى صوته أن الأشعرية أقرب إلينا من المعتزلة والمعتزلة أقرب إلينا من الخوارج، والخوارج أقرب إلينا من الشيعة، والشيعة أقرب إلينا من النصاري والنصارى أقرب إلينا من اليهود واليهود أقرب إلينا من الوثنيين.

وإلى جانب هذه الوسطية الرائعة في العقيدة والانفتاح على الآخر، كان في ميدان السياسة والحرب كذلك، فهو لم يكن من العلماء الذين يقولون ما لا يفعلون، بل حمل السيف ضد المغول وفاوضهم وبين خطأهم ونقض زعمهم بأنهم مسلمون مع أنهم لا يحكمون شرع الله، ويعتدون على أعراض الناس وأموالهم وممتلكاتهم.

وأما في مجال الفقه فللرجل اجتهاداته، والتي كان فيها - كشأن غيره من الفقهاء - يصيب ويخطئ، وفي الحالتين فالرجل مجتهد وكل مجتهد - كما قال العلماء - مصيب.

وهذا هو الفهم الوسطي الصحيح الذي استقاه ابن تيمية من الكتاب والسنة، فهل في اتباع الكتاب والسنة جريمة يُتهم من أجلها العلماء العظام، أم هي الغيرة والحسد والحقد على العلماء المجددون من أمثال الإمام الرائع أحمد بن تيمية؟!!!

دكتور

السيد عبد الرحمن

أستاذ الفلسفة الإسلامية

كلية الآداب... جامعة المنصورة

تقديم

بقلم دكتور/ محمد عمارة

أربع شهادات.. في رد الافتراءات

في كتاب صدر سنة 2005 م عن إحدى الطرق الصوفية، ذات العلاقات التي جمعت بين دولة ولاية الفقيه الفارسية الشيعية، وبين دولة القذافي في (1942 - 2011م) الذي كان يدعو إلى إحياء الدولة الفاطمية الباطنية الشيعية.. جاء في وصف شيخ الإسلام ابن تيمية [661 - 728 هـ - 1263 - 1328م] على أنه المقتدى بأسلافه كلاب النار الحروريين [الخوارج].. الذين كفروا كثيراً من الصحابة.. وذلك عندما حمل الآيات الواردة في الكفار مع المؤمنين..

□ وبضاعته - من السب والقذف والتكفير - هي بضاعة سفلة الناس.
□ وهو جاهل بأصول الدين جهلاً مركباً.. وقد حكم على نفسه بالشرك وعبادة غير الله وهو لا يشعر، فصدق عليه المثل العربي: (رمتني بدائها وانسلت).

□ وهو مكذّب لنصوص كتاب الله تعالى وصرّيح سنة نبيه ﷺ.. ومرتكب بذلك جرماً عظيماً.. وصاحب حكم فاجر.. وملبس وكذاب وجبان.. وجاهل باللغة العربية وبأصول الدين.

- وهو الذي استبدل عقيدة التثليث بعقيدة التوحيد عندما اخترع (توحيد الألوهية) فشق به رسول الله، واتبع فيه غير سبيل المؤمنين..
- ولذلك استحق أن يوصف بالخبيث.. المكابر.. ناقص العقل.. الذي في قلبه مرض الزيغ المتبع ما تشابه من الكتاب والسنة ابتغاء الفتنة.. والمكذب لرب العالمين.. والخارج من الدين، والمزدري بأصفائه المنتجبين، وخلفائه الراشدين وأتباعهم الموقنين»⁽¹⁾.
- هكذا جاء وصف ابن تيمية في هذا الكتاب.

وفي مواجهة هذا السباب الغريب والعجيب، وحتى لا ندخل في الجدل العقيم، واللجاج الذي تضيع فيه الحقائق.. فإننا ندعو إلى سماع آراء أئمة اليقظة الإسلامية الحديثة في ابن تيمية في مكانته بين أئمة الأمة وعلمائها.. وفي دوره في يقظتها الإسلامية الحديثة التي واجهت- ولا تزال - تحديات التخلف الموروث، ومخاطر الهيمنة الإمبريالية الغربية..

- 1- لقد تحدث الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [1266 - 1323 هـ - 1849 - 1905 م] - وهو إمام مدرسة الإحياء والتجديد على امتداد عالم الإسلام - عن شيخ الإسلام ابن تيمية، فوصفه بأنه: «أعلم الناس بالسنة، وأشدهم غيرة على الدين»، وذلك ضمن حديثه عن الظلم الذي لحقه من جاهليه والجاهلين عليه، فقال: «لقد قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين في ابن تيمية - وهو أعلم الناس بالسنة، وأشدهم غيرة على الدين - إنه ضال مضل. وجاء على إثر هؤلاء

(1) انظر كتاب [خطر تقسيم التوحيد على عقائد المسلمين] ص 56، 66، 67، 72، 80، 81، 84، 90، 100، 142، 147. طبعة القاهرة سنة 1426 هـ - 2005 م - [وهو صادر

ضمن سلسلة كتب ضمت العشرات]!!

مقلدون يملئون أفواههم بهذه الشتائم، وعليهم إثماً وإثم من يقفونهم بها إلى يوم القيامة»⁽¹⁾.

ولم يكتف الإمام محمد عبده بالإشادة بمكانة ابن تيمية في نصرته السنة والغيرة على الدين.. وإبدانة خصومه، واستنكار شتائمهم وسبابهم.. وإنما دعا الأمة إلى إحياء تراث هذا المجتهد المجدد المجاهد.. فطلب طبع كتابيه [منهاج السنة النبوية] و [درء تعارض صحيح المنقول و صريح المعقول] اللذين كانا أول ما عرفت الطباعة من تراث ابن تيمية، واللذين صدرا في ذات العام الذي توفي فيه الشيخ محمد عبده.

2- وفي الجناح المغربي لتيار اليقظة الإسلامية الحديثة، وصف الإمام عبد الحميد بن باديس [1308 - 1359 هـ، 1889 - 1940 م] آراء شيخ الإسلام ابن تيمية بأنها: «لباب الشريعة الإسلامية»⁽²⁾.

3- أما الإمام محمد البشير الإبراهيمي [1306 - 1385 هـ - 1889 - 1965 م] فقد تحدث عن مكانة شيخ الإسلام ابن تيمية في تراث الإسلام، وعن أثره في اليقظة الإسلامية الحديثة التي جاهدت لاستخلاص أقطار المغرب العربي من الفرنسة والتنصير والاستلاب الحضاري، فوصفه بالنجم الذي لمع في سماء الإسلام ليبدد ظلمات الجمود والجهالات والخرافات.. وقال: «ما زلنا نلمح وراء كل ناحية في تاريخ الإسلام نجماً يشرق، ونسمع بعد كل خفخة

(1) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج3 ص 359. دراسة وتحقيق: د. محمد عمار. طبعة القاهرة - دار الشروق سنة 1993 م.

(2) [ابن باديس: حياته وآثاره] ج4 ص 157. دراسة وتحقيق: د. عمار طالبي. طبعة الجزائر سنة 1388 هـ 1968 م.

فيه صوتاً يخرق، من عالم يعيش شاهداً، ويموت شهيداً، ويترك بعده ما تترك الشمس من شفق يهدي السائرين المدلجين إلى حين.

وما علمنا فيمن قرأنا أخبارهم، وتقينا آثارهم من علماء الإسلام مثلاً شروداً في شجاعة النزال بعد الحافظ الربيع بن سالم، عالم الأندلس.. ولا علمنا فيهم مثلاً في شجاعة الرأي العام أكمل من الإمام أحمد بن تيمية.. فقد شنّها حرباً شعواء على البدع، والضلالات أقوى ما كانت رسوخاً وشموخاً، وأكثر أتباعاً وشيوخاً، يظاهرها الولاة القاسطون، ويؤازرها العلماء المتساهلون والمتأولون..»⁽¹⁾.

فابن تيمية: شاهد.. وشهيد.. ونجم ساطع.. وشمس أشرقت في سماء الإسلام..

4- وفي الجناح الشرقي لليقظة الإسلامية الحديثة، وجدنا العلامة أبو الأعلى المودودي [1321 - 1399 هـ، 1907 - 1979 م] يضع شيخ الإسلام ابن تيمية في المكان المتميز بين المجددين الذين جاهدوا لتجديد دين الإسلام.. فهو:

أ- الذي انتقد المنطق والفلسفة اليونانية..

ب- وأقام الأدلة والبراهين على استقامة عقائد الإسلام وأحكامه وقوانينه..

ج- ولم يحتزئ برفع النكير على التقليد الجامد فحسب، بل ضرب المثل بمزاولة الاجتهاد على طريقة المجتهدين من القرون الأولى.

(1) [آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي] ج4 ص 113. جمعها وقدم لها: د. أحمد طالب الإبراهيمي. طبعة بيروت سنة 1997 م.

د - وجاهد البدع وتقاليد الشرك وضلال العقائد والأخلاق جهادًا قويًا
عنيفًا، ولاقى في سبيل ذلك أعظم المصائب ومضافًا إلى هذا العمل
التجديدي، جاهد بالسيف همجية التتار ووحشيتهم»⁽¹⁾



تلك أربع شهادات لأئمة اليقظة الإسلامية الحديثة، تعلن أن ابن تيمية هو
أعلم الناس بالسنة، وأشدهم غيرةً على الدين .. وأنه النجم الساطع والشمس
المشرقة في سماء تراث الإسلام.. الذي قدم لباب الشريعة الإسلامية ..
والشاهد .. والشهيد الذي ضم إلى جهاد القلم واللسان جهاد السنان، فتميز
وامتاز بين المجددين المجاهدين.

بهذه الشهادات الأربع نقدم بين يدي كتاب متميز، يُفصل هذه الشهادات
على نحو متميز وممتاز.. سائلين المولى عَزَّجَلَّ أن ينفع به إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
خير مسئول وأكرم محيٍب.

دكتور محمد عمارة

13 محرم سنة 1438 هـ.

14 أكتوبر سنة 2016 م.

(1) المودودي [موجز تاريخ إحياء الدين وتجديده] ص 73، -76 79. ترجمة: محمد كاظم
سباق. طبعة بيروت سنة 1395 هـ، 1975 م.

المقدمة

تبدو الخلافات حول شيخ الإسلام، الإمام أحمد بن تيمية، وكأنها معارك بالسيوف لا سبيل إلى انتهائها، هكذا يصورها البعض، فمن مؤيد مفرط في الحب، ومن معارض مبغض بلا دليل ولا سند....

ويتعارك القوم ويتراشقون، وتضيع الحقيقة بينهما، كلاهما لا يملك الحقيقة، لأن كلاهما أفرط في الدلائل والبراهين التي تؤيد وجهة نظره فخرجت عن اطار العقل إلى حيز العاطفة، وأصبح الطرفان كالشعراء، في كل واد يهيمون، ويقولون ما لا يفعلون.

هذه المشكلة، الوقوع بين الإفراط والتفريط في كل شيء، هي التي جسدها الرجل منذ القدم واصفاً أهل السنة الحقيقيين الذين ليسوا بمذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فراه يقول: «وهكذا أهل الاستقامة في الإسلام المعتصمون بالحكمة النبوية والعصبة الجماعية متوسطون في باب التوحيد والصفات بين النفاة المعطلة وبين المشبهة الممثلة، وفي باب القدر والعدل والأفعال بين القدرية والجبرية والقدرية المجوسية، وفي باب الأسماء والأحكام بين من أخرج أهل المعاصي من الإيمان بالكلية كالخوارج وأهل المنزلة، وبين من جعل إيمان الفساق كإيمان الأنبياء والصديقين كالمرجئة والجهمية، وفي باب الوعيد والثواب والعقاب بين

الذين لا يقولون بشفاعة نبينا لأهل الكبائر وبين المرجئة الذين لا يقولون بنفوذ الوعيد، وفي باب الإمامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الذين يوافقون الولاية على الإثم والعدوان ويركنون إلى الذين ظلموا وبين الذين لا يرون أن يعاونوا أحداً على البر والتقوى، لا على جهاد ولا جمعة ولا أعياد إلا أن يكون معصوماً، ولا يدخلوا فيها أمر الله به ورسوله إلا في طاعة من لا وجود له.

فالأولون يدخلون في المحرمات، وهؤلاء يتركون واجبات الدين وشرائع الإسلام، وغلاتهم يتركونها لأجل موافقة من يظنونه ظالماً وقد يكون كاملاً في علمه وعدله»⁽¹⁾.

هكذا اشتعلت المعركة مبكراً بين الفريقين، وهكذا كتب على شيخ الإسلام المعاناة حياً وميتاً، المعاناة من كلا الطرفين، فلا هو بالمحدث الأوحـد وفريد العصر وكل عصر كما يزعم الأنصار، ولا هو بعدو آل البيت وخارج على إجماع الأمة كما يزعم الأعداء، بل هو عالم مجتهد، تخرج اجتهاداته بحسب ظروف عصره، فجاءت على نمطين، الأول اجتهادات مقيدة لا يمكن فهمها إلا في ضوء عصرها وظروفه السياسية والاجتماعية كفتوى الرجل في أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع واحدة، حيث وجد الرجل أن البيوت يسرى إليها الخراب إثر زيادة حالات الطلاق بسبب فتوى أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بجعل الطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع ثلاثاً فيكون بائناً بينونة كبرى، وعمر أيضاً كان مجتهداً ولا يمكن فهم فتواه إلا في ضوء

(1) ابن تيمية، حقوق آل البيت، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1987،

عصره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث وجد الناس يجترئون على الطلاق فجعل ذلك نوعاً من العقوبة، وبالتالي فهناك الكثير من الفتاوى على هذا النمط لا تفهم إلا في ضوء عصرها ومناسبتها وظروفها.

أما النمط الثاني فهو الاجتهاد المطلق، حيث يصح في كل زمان ومكان دون أدنى حرج، فمن شاء أخذ به ومن شاء أعرض عنه، فكل يأخذ بما تيسر له، ورحم الله الإمام الشافعي فقد كان له مذهباً فقهياً في العراق، فلما قدم قدومه الميمون إلى مصر وجد أن مذهب العراقي لا يتماشى مع أحوال المصريين فوضع للمصريين مذهباً جديداً خاصاً بهم.

هكذا يكون العلماء، وهكذا يفهم العلم، ولكن الموضوعية غابت كثيراً للأسف عن أحكام المسلمين بعضهم على بعض، وإذا غابت الموضوعية، جاءت الأهواء تسعى، وتحكمت الانفعالات والوجدانيات في أحكام الناس فضلوا وأضلوا.

ولم يكن الإمام ابن تيمية (رحمه الله) سوى أحد أولئك العلماء المخلصين الذين تناولتهم الأقلام والألسنة حياً وميتاً، بدون رحمة، وبدون أدب، بل وبدون فهم أو دراية، بل وبجهل عميق بتراث الرجل.

إن معظم الكتابات التي خرجت ذماً في الرجل وقدحاً في السنة لم تكن كتباً ذات منهجية علمية، بل يمكننا القول أن معظمها لهواه لا يعلمون شيئاً عن البحث العلمي حتى وإن كتبوا زرواً وبهتاناً بعض الألقاب العلمية، ويتضح ذلك جلياً في طرق توثيقهم وأسلوب كتابتهم وعناوينهم التي يختارونها وغياب منهج واضح يسرون عليه.

ثمة ملاحظة أخرى جديرة بالاعتبار وهي أن مآخذهم كلها واحدة، وعناوينهم إلى حد كبير متشابهة لدرجة يُخيل إليك أن اللاحق منهم ينقل عن السابق، والسابق ينقل عن سابقه وهكذا.

وعلى الجانب الآخر، تشدد بعض المنتمين لأهل السنة حيث لا يجب تشدد، فظهروا في ثياب الغلو والتطرف في الدعوة لدرجة يُخيل إليك فيها أنهم حريصون على هذا الدين أكثر من النبي ﷺ ذاته - والعياذ بالله - أو أن هذا التشريع نزل لهم وحدهم مخاطباً عقولهم فقط دون غيرهم، فيحرمون بعضاً مما أحل الله، ويشددون على الناس ما رخص الله فيه فيخرج بعض الإعلاميين والمرترقة ويقولون «لعن الله ابن تيمية، فهو إمام المتشددين»!! وما ذنب ابن تيمية يا جهلة القوم؟! هكذا يفعلون!! وما ضاع الإسلام إلا بجهل الجهال الذين ينعقون بما لا يعلمون، فيُهدرون الفرص أمام المصلحين ويقفون بجهل كعقبة كؤود يصعب التعامل معها، وصدق الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله): «لو جادلني ألف عالم لجادلتهم، ولو جادلني جاهل واحد لغلبنى»...

لقد غالى الكل في الرجل، فنفات الصفات جعلوه مجسماً، ومتعصبة الفقهاء والمبتدعة جعلوه خارجاً على الإجماع، وغلاة الصوفية جعلوه عدواً لآل البيت، وهكذا أضاع المؤولون بجهلهم تراث الرجل وقدموه إلى المحاكمة.

محاكمة بدأت مبكراً، وطالت أيامها

بدأت منذ أن ترك الرجل حران وهو صبي بعد هجوم التتار وإصراره على ألا يتكرر المشهد، وطالت أيامها حتى توفاه الله في سجنه شهيداً، وهل من شهادة أعظم من قول الحق عند سلطان جائر، وهل من شهادة أعظم من الدفاع عن هذا الدين، والنبي ﷺ يقول: «أعظم الشهداء، رجل قام إلى

إمام ظالم فأمره ونهاه فقتله»⁽¹⁾ ثم تزداد الحرب اشتعالاً باشتعال المواقف السياسية في حياة الرجل...

قُدّم الرجل إلى المحاكمة بتهمة أربع، عداؤه للفلاسفة والمتكلمين، عداؤه لأهل التصوف، تقديمه للنص على العقل، تعديه في باب الصفات.. تلك هي التهم التي واجهها الرجل طيلة حياته.

أما بعد مماته فقد واجه تهماً جديدة، فهو الإرهابي، وهو حامل السيف في وجه المسلمين، وهو المتشدد، وهو زعيم داعش، وهو مؤسس القاعدة، وهو زعيم الجماعات الجهادية والتكفيرية على مستوى العالم!!!

هكذا يتهمه الجهلة والسفهاء ومرضى القلوب والضمائر من مرتزقة الإعلام وسفهاء القوم وأنصاف الرجال وأنصاف المتعلمين!!

ولكنني اليوم أحضر الجلسة النهائية للحكم على الإمام ابن تيمية (رحمه الله)، الجلسة التي سمعت فيها دفاعه بقلبي وعقلي وضميري، والجلسة التي سمعت فيها حكم القاضي الظالم عليه بالموت، لأضع هذه الحقائق أمام المسلمين من المشرق والمغرب، ليقروا وقائع تلك الجلسة منذ الميلاد وظروف عصر الرجل ومفتاح شخصيته، ومروراً بأسباب المحاكمة حيث الخصوم وحقيقة الخصومة ثم نص الاتهام في المشكلات الأربع التي صُنعت على أعين التار بالسنة عربية إسلامية، ثم دفاع الرجل عن نفسه وتفجيره لمفاجئتين كبيرتين، الأولى أنه محب للتصوف عاشق له، والثانية أنه يحترم حقوق الآخر العقائدي ويحميه ويفتديه بنفسه.

(1) رواه أحمد في مسنده / ج2، حديث رقم 156 / 3.

تلك حقيقة هذا الرجل، ورغم قناعة القضاة ببراءته، إلا أن الحكم السياسي الذي صدر من القصر والذي وُضع في خزينة المحكمة منذ أول يوم للحكم في القضية، كان حكماً بالإعدام..

هذه الجلسات أنقل وقائعها لكل ضمير عربي إسلامي، ليرى بنفسه، وبدون وسائط حقيقة هذا الرجل، وليعاين بنفسه آرائه، ويلمس بنفسه تناقض أعدائه قديماً وحديثاً وإصدارهم أحكاماً عن جهل وحقد وحسد وغِيٍّ، ثم يُصدر هو في النهاية بوعيه وضميره ما يشاء من أحكام.

لقد اكنوى الرجل (رحمه الله) بلهيب الغربة منذ نعومة أظفاره، وعرف اليتيم مبكراً، ومشى على الشوك حافي القدمين، وتلظى بمكر الماكرين وحقد الحاقدين وعانى من مضايقات لا يعلم مداها إلا الله، وصبر على الأسى والأذى، وتعرض لمحاكمات طال أمدها، وزُج به في غياهب السجون تنفيذاً لحكم ظالم، وقضى حياته كلها لله، ثم يأتي الذين يجلسون في التكييفات وأمام الكاميرات وتمتلاً كروشهم على حساب البسطاء، وتتضخم ثرواتهم على حساب المطحونين يُصدروا أحكاماً على الرجل، أحكام لا تُنسى سوى عن جهلهم الذريع، لا بالفقه والدين فقط، ولكن بالتاريخ أيضاً.

إنه بعد هذه المحاكمات، وبعد كثرة الأعداء وافتراءاتهم بغير الحق على الرجل، يبقى الأمل كل الأمل في الضمير العربي الإسلامي، وفي العقل والتدين الوسطي، ليحكمواهم على الرجل بما يشاءون، ثم يوم القيامة توفى كل نفس ما عملت، وهم لا يظلمون.

د. محمد ممدوح عبد المجيد

المنصورة في غرة شعبان 1437هـ

الفصل الأول

مواقف تصنع الرجال

الفصل الأول

مواقف تصنع الرجال

تمهيد

يأتى هذا الفصل «مواقف تصنع الرجال» هادفاً بالمقام الأول الوقوف على معالير شخصية الإمام ابن تيمية (رحمه الله)، وليس مجرد التناول التقليدى للميلاد والحياة والنسب وغير ذلك من قضايا فرعية، فعلى الرغم من شرعية هذا التناول، إلا أننا نبحت عن معالير تلك الشخصية ومكوناتها النفسية وأبعادها الوجدانية، لنرى هل كان الرجل حاداً بحق، وهل كان متشددًا؟ أم أن الذين قذفوه بتلك التهم قدموا شهادة موثقة بجهلهم الذريع وحقدهم الدفين، وقدموا دليلاً حياً على كونهم مستأجرين بالمال والذهب تارة، وبسيف الوعيد أخرى، ودليل على مدى خوائهم الفكرى والعقلى والوجدانى، بل ودليل على خواء الضمير أيضاً.

لقد اشتعل هذا العصر بالأحداث التى تصنع الرجال، وبالرجال الذين يصنعون الأحداث بحجم العز بن عبد السلام وابن تيمية، كما امتلأ أيضاً بالمنافقين والمستأجرين الذين يبيعون دينهم بعرض من الدنيا لا قيمة له، ويقبلون أى قدم تغدق عليهم المال، وما بين المشهدين يحكم التاريخ على الرجال.

إنه لن يتسنى لنا فهم ابن تيمية للحكم عليه بعد هذا الفهم إلا بالغوص في نفسه لفهمه نفسياً أولاً، حيث هجوم المغول على بلاد الشام وهو طفل صغير، ثم هجوم التتار وهو شاب، مرتين متتاليتين، مرة صدهم بشجاعة وقوة منطقته، ومرة صدهم بسيفه، ثم تمزق الدين بين الشيع والفرق والطوائف، مما أدى إلى اضمحلال المسلمين سياسياً واقتصادياً، ثم انتشار الفساد الداخلي، كل ذلك ساهم في صنع ابن تيمية الحاد الجاد، ففيه حدة تظهر مقدار حبه لهذا الدين وغيرته عليه، وفيه جدية تُظهر مدى عزيمته وإصراره على بناء النفس المسلمة وبناء الوطن، ومع هذه الجدية وتلك الحدة ففيه رقة ولين ورحمة، كل هذه الجوانب المختلفة والتي تبدو عند البعض متناقضة تساهم بشكل كبير في فهم شخصية الرجل وتحري الدقة في الحكم عليه.

أولاً: ميلاده ونسبه

هو الإمام تقى الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم ابن الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام ابن أبي محمد عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله ابن تيمية الحراني⁽¹⁾.

ولد تقى الدين ابن تيمية في العاشر من ربيع الأول 661هـ في حران⁽²⁾، وعاش بها ردهاً من الزمن، ثم انتقلت الأسرة إلى دمشق سنة 667هـ عند قدوم التتار.

(1) ابن عبد الهادي، العقود الدرية في ذكر بعض مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، ط 1، سنة 1432هـ، ص 4.

(2) بلدة ما بين النهرين، وهي على طريق الموصل والشام، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، مطبعة السعادة، ط 1، القاهرة، ج 3، ص 242.

ففى السادسة من عمره أغار التتار على مدينته (حران)، فهاجرت أسرته مع آلاف الأسر التى هاجرت إلى دمشق، حيث يستقر بهم جميعاً المقام، وامتلات نفس الصبى بالقهر والغىظ وهو يرى صفوفاً مضطربة من النساء والأطفال والرجال والعجائز، يفرون مذعورون أمام جحافل التتار، الأحمال على الظهر، والهموم تملأ الصدور، والأجساد يدفع بعضها بعضاً.. المرضى يتساقطون، والأطفال يبكون، والنساء يصطرخون، وقلب الصبى يتمزق حزناً وينفطرهماً، وفؤاده يشتعل شيباً وخوفاً على هؤلاء الضعفاء من المجهول.

وامتلات نفسه بأسئلة لا يعلم لها جواباً، أسئلة رجل فى عُمر الصبا، لم ينضج جسدياً بعد، ولكنه نضج إنسانياً بما فيه الكفاية، لقد أقسم فى نفسه على الجهاد لئلا يتكرر هذا المشهد المؤلم، والجهاد يبدأ من العلم، ومن الدين، من تعليم الناس وتنقيفهم، ومن عودتهم لربهم، ليكون هو الناصر والمعين.. تلك هى المحطة الأولى التى ساهمت بشكل كبير فى صناعة شخصية ابن تيمية..

وتُعرف هذه الأسرة بلقب (ابن تيمية)، وقد اختلف فى سبب هذه التسمية، فمن قائل أن جده محمد بن الحضر حج على درب تيماء⁽¹⁾ فوجد هناك طفلة اسمها تيمية، ثم رجع فوجد امرأته قد ولدت بنتاً فسمّاها تيمية، وقيل أيضاً أن سبب شهرة هذه الأسرة بذاك اللقب، أن جدة تقى الدين كانت اسمها تيمية، وكانت واعظة ومحدثة وذات علم وورع ودين، فاشتهرت العائلة بها نسبة إليها⁽²⁾.

(1) طريق بين الشام ووادى القرى يسلكه حجيج دمشق والشام، انظر ياقوى الحموى، معجم البلدان، ج1، ص242.

(2) ابن عبد الهادى، العقود الدرية فى مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ص18.

ويرجع إلى هذه الأسرة الطيبة الفضل في صقل شخصية الإمام ابن تيمية، وصبغتها بالصبغة الدينية، فقد كان جده مجد الدين أبو البركات عبد السلام، الذي ولد في عام 590هـ، حافظاً للقرآن الكريم، وانتقل إلى بغداد طلباً للعلم، وأقام هناك ما يقارب ست سنوات، وكان من أئمة الدين والهدى، ذا شأن كبير بين الأمراء والعلماء، وقيل إنه صنف التصانيف وألف المؤلفات الكثيرة، ولعل من أشهرها كتاب «منتقى الأخبار» الذي جمع فيه الأحاديث حول الأبواب الفقهية التي تُعد دليلاً لأهل العلم ومرجعاً لهم⁽¹⁾.

وحفظ الغلام الصغير كتاب الله العزيز وهو حدث، فلم ينس شيئاً منه حتى قضى نحبه، إذ كان سريع الحفظ بطئ النسيان، حتى يُقال أنه لم يحفظ شيئاً من قرآن أو حديث أو علم ثم نسيه، وقد شهد له بذلك تلاميذه ومعاصروه، ومنهم من كان خصماً له⁽²⁾.

ثم اتجه إلى الحديث رواية وحفظاً فبرع فيه، وعنه يقول المزي: «ما رأيت مثله ولا أرى مثل نفسه وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا أتبع لهما منه»⁽³⁾.

وعن عبقريته وبديته وسرعة حفظه كتب ابن الزملي⁽⁴⁾ يقول:

(1) أبو عماد الحنبلي، شذرات الذهب في معرفة أخبار من ذهب. مكتبة القدس، القاهرة، 1351، ج5، ص365.

(2) د. محمد يوسف موسى، ابن تيمية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، سنة 1977م، ص72.

(3) ابن تيمية، تفسير المعوذتين - تحقيق على حسين علوان، مطبعة أسعد، بغداد 1990م، ص4.

(4) فقيه دمشق مالكي المذهب، توفي عام 751هـ، وله العديد من المؤلفات مثل البرهان، التبيان. أنظر محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة

الرسالة، القاهرة، 2001، ج6، ص364.

ماذا يقول الواصفون له؟ وصفاته جَلَّتْ عن الحصر؟
هو حجة لله قاهرة هو بيننا أعجوبة الدهر
هو آية في الخلق ظاهرة أنوارها أربت على الفجر⁽¹⁾

وإلى جانب البراعة في القرآن والحديث، فالبراعة فيما سواهما أيسر، بل هى نتيجة حتمية وعطية من الله لمن يصطفيه من خلقه، خاصة أولئك الذين يخلصون قلوبهم لله، فقد برع الإمام أيضاً في التفسير، يقول الإمام الذهبي: «إن ذكر التفسير فهو حامل لوائه، وإن عدّ الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا، وسرد وأبلسوا، واستغنى وأفلسوا، وإن سُمى المتكلمون فهو فردهم وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا يقدم الفلاسفة فلسهم وتيسهم وهتك أستارهم، وكشف عوارهم، وله يد طويلة في معرفة العربية والصرف واللغة»⁽²⁾ وأيضاً وصفه ابن عبد الهادي بقوله: «قد منَّ الله تعالى على الشيخ بسرعة الكتابة، فكان يكتب من حفظه من غير نقل» ويضيف قائلاً: «وأخبرني أكثر من واحد أنه كتب مجلداً لطيفاً في يوم وكتب غير مرة أربعين ورقة في جلسة، وكان يكتب على السؤال الواحد مجلداً»⁽³⁾.

وذكره الشيخ عماد الدين الواسطي فقال عنه: «فوالله، ثم والله، ثم والله، لم يُر تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية علماً وعملاً وحالاً

(1) د. محمد يوسف موسى، ابن تيمية، ص 74-75.

(2) الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، جمع وتحقيق محمد عزيز شمس، وعلى بن محمد العمراء، دار عالم الفوائد، ط3، المملكة العربية السعودية 1427هـ، ص255.

(3) ابن عبد الهادي، العقود الدرية ص80-81.

وخلقاً واتباعاً، وكرماً وحلماً، وقياماً في حق الله عند انتهاك حرماته، أصدق الناس عقلاً، وأصحهم علماً وحزماً، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همة، وأسأخهم كفاً، وأكملهم اتباعاً لنبيه محمد ﷺ⁽¹⁾.

ولعل الصفات السابقة تؤكد صحة ما وصفه به الدكتور محمد يوسف موسى حينما قال: «فقد ذكر الذين رأوه ووصفوه أنه كان قوالاً بالحق نهاءً عن المنكر، ذا سطوة وإقدام وعدم مداراة، كما كان أبيض شديد سواد الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمتي أذنيه، عيناه لسانان ناطقان، ربعة بين الرجال، جهورى الصوت فصيح اللسان مع فرط ذكاء وسيلان ذهن»⁽²⁾.

لقد كان الإمام ابن تيمية شخصية مصقلة بالعلم جعلت له الريادة في كل شيء، الريادة في التصنيف وفي الدعوة وفي الأخلاق، بل حتى في اكتساب الأعداء والمحبين على السواء، فقد أثنى عليه جميع معاصروه واللاحقون عليه، أثنوا على علمه، وعلى تواضعه، وعلى صفاته، ولكنهم قدروه حق قدره في عمله وعلمه وتعلمه، يقول ابن حجر⁽³⁾ ما نصه: «سمع الإمام ابن تيمية سنن أبي داود وحصل الأجزاء ونظر في الرجال والعلل، وتفقه وتمهد وتميز، وتقدم وصنف ودرس، وأفتى وفاق الأقران، وصار عجباً في سرعة الاستحضار وقوة الجنان، والتوسع في المنقول والمعقول روايته، وحاضر

(1) شذرات الذهب، ج6، ص82.

(2) د. محمد يوسف موسى، ابن تيمية ص88.

(3) هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر الميمني الشافعي المذهب، وهو فقيه ومتكلم مصري (909هـ: 973هـ) أنظر سير أعلا النبلاء، ج8، ص148.

بالمثل والنحل فلم يُر أوسع من نحلته ولا أرفع من درايته، فبرز في كل فن على أبناء جنسه»⁽¹⁾.

وقد وصفه أحد تلاميذه بقوله: «كان الإمام ابن تيمية إذا شرع في الدرس يفتح الله عليه أسرار العلوم وغوامض ولطائف ودقائق متون ونقول، واستدلالات وآيات وأحاديث واستشهاد بأشعار العرب، وهو مع ذلك يجري كما يجري التيار، ويفيض كما تفيض البحار»⁽²⁾.

كل هؤلاء الذين يشهدون للإمام إنما يركزون في شهادتهم على علمه الذي أفاض به الله عليه، هذا العلم الذي فتح الوهاب عليه من أسرارهِ، فأصبح له باعاً في التفسير والحديث، دون أن يُلهيه ذلك عن عبادته لله وعن زهده في الحياة، وإن كان العلم بالتفسير والحديث هو في ذاته عبادة لله، يقول الشيخ علم الدين البرزالي⁽³⁾ عن الإمام ابن تيمية: «هو الإمام المجمع على فضله ونبله ودينه، قرأ الفقه وبرع فيه، والعربية والأصول، ومهر في علمي التفسير والحديث، وكان إماماً لا يُلحق غباره في كل شيء، وبلغ رتبة الاجتهاد، واجتمعت فيه شروط المجتهدين، وكان إذا ذكر التفسير بُهت الناس من كثرة محفوضه وحسن إيراده، وإعطائه كل قول ما يستحقه من الترجيح والتضعيف والإبطال، وخوضه في كل علم، كان الحاضرون يرون

(1) ابن حجر، ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، دارعالم الفوائد، المملكة العربية السعودية 1983م ص 20.

(2) أبو عبد الله الدمشقي، ابن تيمية حياته وجهاده، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، 1393هـ، ص 80.

(3) أحد علماء أهل السنة والجماعة وهو شافعي المذهب وعاصر ابن تيمية وتوفي عام (728هـ)، سير أعلام النبلاء، ج 7، ص 136.

منه العجب، هذا مع انقطاعه إلى الزهد والعبادة والاشتغال بالله تعالى والتجرد عن الدنيا، ودعاء الخلق إلى الله تعالى، وكان يجلس في صبيحة كل جمعة على الناس يفسر القرآن العظيم، فانتفع بمجلسه وبركة دعائه، وطهارة أنفاسه، وصدق نيته، وصفاء ظاهره وباطنه وموافقة قوله لعمله»⁽¹⁾.

ويضيف ابن رجب⁽²⁾ إلى ذاك الإطناب قوله: «ويتحقق قدره، وزخارة بحره، وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية، وفرط ذكائه واجتهاده، وبلوغه في كل ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة، ونصرة الحق، والقيام فيه لا لغرض سواه، وجريه على سُنن السلف، وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان»⁽³⁾، ثم نجد شهادة ابن عبد الهادي في نفس الاتجاه أيضاً حيث يقول: «ولم يبرح شيخنا - رحمه الله - في ازدياد من العلوم وملازمة الاشتغال والأشغال، وبث العلم ونشره والاجتهاد في سُبُل الخير، حتى انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل، والزهد والورع، والشجاعة والكرم، والتواضع والحلم، والإنابة والجلالة والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر أنواع الجهاد مع الصدق والعفة والصيانة وحسن القصد والإخلاص، والابتغال إلى الله وكثرة الخوف منه وكثرة المراقبة له، وشدة التمسك بالأثر،

(1) العقود الدرية ص 12، 13.

(2) هو العلامة زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن بن عبد الرحمن بن الحسن ابن رجب، فقيه حنبلي له العديد من المؤلفات (736هـ: 795هـ). سير أعلام النبلاء، ج 7، ص 284.

(3) ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة 1952م، ج 2، ص 393.

والدعاء إلى الله، وحسن الخلائق ونفع الخلق والإحسان إليهم والصبر على من آذاه والصفح عنه والدعاء له»⁽¹⁾.

ولعل تلك الشهادات للإمام ابن تيمية ترسى قاعدة عظيمة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58] فكم من شهادات تغاضيت عنها، وكم من عالم وفقه أعرضت عنهم حتى لا يخرج البحث عن إطاره العام ومضمونه الذي قصدته، ولعل أبلغ ما قيل: «وقد جمع الله لابن تيمية كل العوامل التي جعلت منه رجلاً عظيماً فريداً في عصره في الفقه وسائر العلوم الإسلامية من وراثته طيبة قوية، وبيئة صالحة تزخر بالعلم وتدفع إليه دفعاً، وعقل واع المعى، وحافظة ذاكرة لا تنسى ما وعته، وشجاعة تستهين بالأخطار في سبيل الحق، وإرادة لا تقف أمامها العقبات، وغير ذلك كله من أسباب العبقرية والنجاح والنبوغ والخلود على الأيام، وصدق العليم الحكيم إذ يقول ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ، بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: 58].

كل هذه المقدمات، كانت نتيجتها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فقد أثمرت أعظم ثمار، ثمار العلم ورفعة أهله وعزة أصحابه، ثمار الكرامة التي حكي عنها القرآن، وكفى به شاهداً، وكفى به مؤيداً ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28].

لقد اكتسب الإمام ابن تيمية عدة خصائص معرفية وعلمية ترفع من قدره، لعل من أهمها:

□ مهارة التأصيل للمقالات والمذاهب، ويتمثل ذلك في ردّ المقالات إلى أصولها المعرفية.

(1) العقود الدرية ص 6، 7.

□ مهارة الاستقلال المعرفي سواء في علوم الشريعة، إذ هو مجتهد مطلق أو في العلوم العقلية.

□ الإنسجام العلمي والإتلاف المعرفي ويتضح ذلك من كثرة مؤلفاته وتعدد قضاياها.

□ اتزان النقد، فلم يكن يقع تحت وطأة العاطفة، بل كان محكوماً بالدليل، ولعل ذلك كان السر الأكبر وراء تسامحه مع خصومه⁽¹⁾ حقاً، ما أطيب تلك الشجرة، وما أعظم ثمارها، وما أروع ظلالها، لقد أثمرت تصانيفاً سارت بها الركبان، يقول البزار⁽²⁾: «وأما مؤلفاته ومصنفاته، فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها أو يحضرنى جملة أسمائها، بل هذا لا يقدر عليه غالباً أحد، لأنها كثيرة جداً، كباراً وصغاراً، وهي منشورة في البلدان، فقل بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه»⁽³⁾، ويقول الذهبي: «كان (رحمه الله) من بحور العلم ومن الأذكياء المعدودين والزهاد الأفراد والشجعان الكبار والكرماء الأجواد، أثنى عليه الموافق والمخالف، وسارت بتصانيفه الركبان، لعلها ثلاثمائة مجلد»⁽⁴⁾.

(1) د. عبد الله بن نافع الدعجاني، منهج ابن تيمية المعرفي، تكوين للدراسات والأبحاث، المملكة العربية السعودية، ط 1، سنة 2014م، ص 38.

(2) الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري البزار، صاحب المسند الكبير وقد توفي في عام 292هـ. سير أعلام النبلاء، ج 3، ص 332.

(3) البزار، الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط 1، سنة 1432هـ ص 25.

(4) الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة 1374هـ، ج 4، ص 1496.

الإجماع إذاً على تعدد مؤلفات الإمام رحمه الله، تعدد الموضوعات وتعدد الكثرة، يقول ابن رجب: «وأما تصانيفه رحمه الله فهي أشهر من أن تُذكر، وأعرف من أن تُنكر، سارت مسير الشمس في الأقطار، وامتلأت بها البلاد والأمصار، وقد جاوزت حدّ الكثرة، فلا يمكن لأحد حصرها، ولا يتسع المقام لذكرها»⁽¹⁾.

وذاث الشهادة بكثرة المؤلفات نجدها أيضاً عند ابن عبد الهادي حيث يقول: «لا أعلم أحداً من المتقدمين ولا من المتأخرين جمع مثلها جمع، ولا صنف نحو ما صنف ولا قريباً من ذلك، مع أن تصانيفه كان يكتبها من حفظه وكتب كثيراً منها في الحبس وليس عنده ما يحتاج إليه ويراجعه من الكتب»⁽²⁾.

تُرى، عالم بهذه المواصفات، وبتلك الكثرة من المصنفات، ألا يكون له تلاميذ على ذات القدر من العلم والعزة والكرامة التي كانت للأستاذ؟!

لقد تتلمذ على يدي ابن تيمية الأئمة الأعلام الذين نشروا العلم في ربوع الأرض، وأخذوا منه بالحظ الوافر مثل ابن القيم الجوزية (691هـ)، وابن عبد الهادي (744هـ)، والحافظ ابن كثير (774هـ)، وغيرهم من الحفاظ والأئمة الذين أشرقت شمس علومهم على الكوكب الأرضي لتضيء ما به من ظلام، وتُطفئ ما به من نيران، أذن الله لها أن تُحمد وإن طال وقت اشتعالها. ذاك هو الإمام ابن تيمية ونسبه وشهادة المعاصرون له وتلاميذه، وحتى تتسع رؤيتنا ويحسّن فهمنا لتلك الشخصية العظيمة، لابد من الخروج على الظروف

(1) ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ج2، ص403.

(2) ابن عبد الهادي، الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية ص257

السياسية والاجتماعية لهذا العصر الذى ولد فيه ابن تيمية، وتشكلت فيه شخصيته، ونمت فيه رؤيته، فهو أحد المحاور الرئيسة لفهم الإمام (رحمه الله).

ثانياً: ظروف عصره

لكي نفهم عصر الإمام ابن تيمية لابد من العروج على ناحيتين رئيسيتين، الأولى علماء عصره بما فيهم أستاذه العز ابن عبد السلام والذى تتلمذ ابن تيمية على يديه وكتبه وسيرته دون أن يلقاه، والثانية الحملات البربرية على الأمة الإسلامية، والتي أظهرت معادن الرجال بحق، فكشفت الأقنعة وفضحت المستور، وكان الإمام ابن تيمية من أعظم أولئك الذين أظهرتهم المحن، فكشفت عن أصيل معدنهم، وعن مكنون رجولتهم، وعظمة سرائرهم، وروعة صبرهم، فجعلت منهم المحن رجالاً فوق التاريخ، فوق إطرأاته وكذبه وزيفه وفوق مدحه وقدحه على السواء، فهم صانعوا التاريخ، وتالياً فهم ليسوا جزءاً منه، لأنهم صانعوه وساداته، ليسوا هم من أولئك السدنة الذين خدموا في معابد السياسة وهياكل القصور ودهاليز السلطة، بل كانوا عباداً ربانيين مخلصين لله وللوطن، لا يباعوا بمال كشأن أولئك الأقزام الذين يتطاولون عليهم اليوم، ولا يشتروا بالدينار كشأن المرتزقة الذين يتبعهم الغاؤون، ولا يتورعون عن سفك أعراض باتت تحت التراب منذ زمن ليس بالقريب، لأنهم في كل واد يميمون، يبيعون شرفهم وعرضهم لساداتهم في الداخل أو الخارج، وقد يقبضون الثمن، وإن كان هو ثمن الخزي والعار، ثمن الندامة التى تسير يوم القيامة على أقدام، وصدق العزيز العليم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: 36].

هكذا شهد القرآن على أولئك الفسقة الذين ينخرون في عرى الدين كما ينخر السوس في نخلة باسقة لها طلع نضيد، فلا النخلة تهتز ولا السوس يرتدع، لتكون النهاية من صنع الله، وفي علمه وحده، وهو سبحانه الذى حكم فيها بقوله: ﴿ثُمَّ يُعْلَبُونَ﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21].

فمن الناحية الأولى، فكل تلميذ شبيه بأساتذته إلى حد كبير، يرث عزهم، ويتنسم خلاصهم، ويسير على دربهم، وما أعظم أساتذة الإمام ابن تيمية، فقد تتلمذ على يد الأئمة الأعلام مثل الحافظ ابن عساكر (571هـ)، وابن الأثير (620هـ) وابن قدامة (620هـ)، وابن الصلاح (643هـ)، والعز بن عبد السلام (660هـ)، وغيرهم ممن تتلمذ على يديهم في مجال الفقه وأصول التفسير والحديث واللغة وغيرها من العلوم والمعارف⁽¹⁾.

ولعل العز بن عبد السلام كان من أعظم الأساتذة أثراً وتأثيراً على الإمام ابن تيمية، فقد كان عزيزاً سامى الكرامة راقى الخلق رائع الشخصية، وقد دلت الأخبار على روعة صبره وجهاده بالدين والحكمة والموعظة الحسنة، كما دلت أيضاً على قوته وإرادته، من ذلك مثلاً ما يذكره أبو المحاسن أن الملك المظفر بيبرس حين أراد الخروج لقتال التتار بالشام، ووجد قلة ما عنده من مال في خزائنه، فاحتاج إلى مساعدة الرعية لإقامة الجند وتجهيزهم وما يعينهم على ذلك، فجمع القضاة والفقهاء والأعيان لاستشارتهم، وطلب الموافقة على ما عزم، فسكت كل من كان في المجلس إلا الشيخ العز ابن

(1) د. يوسف أحمد محمد البدوى، مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن ص15

عبد السلام حيث بادر الملك بقوله: «إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على الحاكم قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهبية والفضية، والكبايش المزركشة، وأسقاط السيوف والفضة وغير ذلك، وتبيعوا مالكم من الحوائض الذهبية والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على سلاحه ومركوبه ويتساووا هم والعامة، وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا»⁽¹⁾...

إن الله ينصر دينه بعلمائه، يُعز هذا الدين بأوليائه، أوليائه الذين يدافعون عنه بإخلاص لوجه الله، فكنا أعزة عندما التزم علماءنا أسوار وحدود دينهم، لئلا يُجملوها لسلطان، ولئلا يفتحوها مشاعاً لحاكم ولئلا يجاملوا على حسابها أو يُعطوا الدنية من أنفسهم أو دينهم، فعاشوا أعزة، وماتوا كراماً.

ولكم يمتلئ التاريخ بمواقف للإمام العز بن عبد السلام، مواقف كلها عزة، وكلها إباء، وكلها شجاعة، فيروى ابن السبكي أن العز بن عبد السلام رأى السلطان الأشرف موسى بن الملك العادل بن أيوب جالساً يوم عيد في مجلس المملكة، وفي أبهة وعظمة السلطنة وزخرف الملك، وقد أخذ الأمراء يُقبلون الأرض بين يديه كالعادة، فناده بقوله: «يا أيوب! ما حجتك عند الله إذا قال لك: أُلر أبوى لك ملك مصر ثم تبيح الخمر؟ فقال: هل جرى هذا؟ فقال الإمام: نعم، الحانة الفلانية يُباع فيها الخمر وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة!

(1) أبو المحاسن بن تعزى بردى، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة سنة 1930، ج7، ص72.

فقال السلطان: يا سيدي هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي.

فقال الشيخ: أنت من الذين يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة، فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة».

ولما سُئل الإمام عن الحال التي كان عليها عند مجابهة السلطان، فقال يا بني، رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تتكبر عليه نفسه فتؤذيه، فقيل له: أما خفته؟ فقال: يا بني إني استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان أمامي كالقط»⁽¹⁾.

لقد كان العز ابن عبد السلام قوى الرأي، راجح العقل، وشخصية كذلك لا يفتر حاسدوها، فما انفض الحاقدون عنه حتى أوقعوا بينه وبين السلطان الأشرف بن الملك العادل الأيوبي، فأثاروا قضية قدم وحادثة القرآن، ولعلها القضية الكلامية البارزة في تاريخ الفرق الكلامية، ولعلها أيضاً القضية التي يُعدها الحنابلة دوماً للإيقاع بالعلماء، فما حدث للإمام أحمد ابن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قبل، أطل برأسه من جديد على الإمام العز بن عبد السلام، هي هي القضية، وهي ذاتها النفوس المريضة باختلاف شخوص أصحابها، فأثاروا القضية من جديد، وأوغروا صدر السلطان بأن الإمام العز بن عبد السلام زائغ العقيدة منحرفاً عن الدين الصحيح، فما كان من الملك إلا أن انتصر للخصوم على الإمام، رغم ما كتبه له الإمام في تلك المسألة إحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل، إلا أن السلطان حكم عليه بالألأ يفتى أحداً ولا يجتمع بأحد وبأن يلزم بيته»⁽²⁾.

(1) ابن السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود طنحي، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، 1383 هـ، ج 5، ص 81.

(2) د. محمد يوسف موسى، ابن تيمية، ص 43-42.

ورغم ذلك العداء للشيخ، إلا أنه ظل مهاباً من الحكام والأمراء إلى يوم وفاته في عام (660هـ)، فقد مرت جنازته بالملك الظاهر بيبرس ورأى كثرة الخلق فيها، فقال لبعض خواصه: «اليوم استقر أمرى في الملك، لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس اخرجوا عليه، لانتزع الملك منى»⁽¹⁾.

وسار التلميذ على خطى الأستاذ، لم ينحرف عنها قيد أنملة، فأخذ شجاعته، وارتدى عزته، وشرب كرامته، فلم يكن الإمام ابن تيمية سوى صورة من شيخه العز ابن عبد السلام، صورة على أجمل وأروع ما يكون العقل والدين معاً، فنشأ (رحمه الله) شجاعاً مهاباً، لم يتملق لسلطان، لا رغبة ولا رهبة، فلم يطمع في عطية، ولم يربو إلى هدية، ولم يسع إلى منصب من مناصب الدنيا، فلم يكن سوى تجسيداً للإخلاص الكامل، والورع التام، ليس هو من أولئك الذين ينعمون على الدوام للسلطان أو الذين كل مهمتهم حماية السلطة لا الدين، والزود عن الدنيا لا الآخرة، فما أكثر هؤلاء في كل عصر، وفي عصر ابن تيمية ذاته، امتلأت بهم الدواوين، وعانى من شر بطانتهم المخلصين، وذاق مرارة قسوتهم المؤمنين، إذ أن هذا الصنف من العلماء يدورون مع السلطة وجوداً وعدماً، يتلونون بكل لون، ويلبسون كل ثياب، يستقوون بالسلطة على الضعفاء، ويجدون فيها الأمن لنفوسهم المريضة، ولا يتورعون أبداً عن سؤال السلطة أموال الناس بالباطل، والسلطة تخدمهم أيضاً في هذا المضمار، فتعقد عليهم العطايا وتثر عليهم الهدايا بمسميات كثيرة، دون أن يعلم هؤلاء ولا أولئك أن هناك يوم للحساب، يوم توفي فيه كل نفس ما عملت، وما كسبت، وما قالت وما فعلت، يوم تُرد فيه المظالم وتُبلى فيه السرائر، فانتظروا إنا معكم منتظرون.

(1) ابن السبكي، طبقات الشافعية، ج 5، ص 84

وامتلاً عصر الإمام ابن تيمية بالعلماء من هذا الصنف وذاك، من ذلك ما ذكره الإمام السيوطي (رحمه الله) من أن عالماً يدعى محمد بن مالك كتب للملك الظافر بيبرس يقول له: «... رفعها الفقير إلى رحمة ربه محمد بن مالك، يُقبل الأرض وينهى إلى السلطان، أيد الله جنوده وأبد سعوته، أنه أعرف أهل زمانه بعلوم القراءات والنحو واللغة وفنون الأدب، وأمله أن يعينه سيد السلاطين ومبيد الشياطين، خلد الله ملكه، وجعل المشارق والمغارب ملكه، على ما هو بصده من إفادة المستفيدين والمسترشدين بصدقه تكفيه هم عياله، وتغنيه عن التسبب في صلاح حاله، وقد نفع الله بهذه الدولة الظاهرية الناصرية الناس خصوصاً وعموماً، وكشف بها عن الناس أجمعين عموماً، ولهم بها من شعث الدين ما لم يكن ملموساً، فمن العجائب أن يكون المملوك من مرتدى خيراتا وعن يمين عنايتها غائباً محروماً مع أنه من ألزم المخلصين للدعاء بدوامها، وأقوم المواليين بمراعاة زمامها، لابرحت أنوارها زاهرة، وسيوف أنصارها قاهرة ظاهرة وأيادها مبذولة موفورة، وأعادها مخذولة مقهورة بمحمد وآله»⁽¹⁾.

ذاك نص أحد المنتسبين للعلم في زمان الإمام ابن تيمية، تُرى هل يوجد أدنى وجه للمقارنة بينه وبين الإمام العز بن عبد السلام؟
أليس الإثنان أبناء عصر واحد، وظروف واحدة، تقلهم نفس الأرض، وتظلمهم ذات السماء!!

ولكن فرق بين عالٍ وعالٍ، فرق كبير بين طلاب الدنيا وطلاب الآخرة، ومن هذا الأخير يأتي الإمام ابن تيمية.

(1) السيوطي، حسن المحاضرة، ج 2، ص 88 - 89.

أما الناحية الثانية التي تساعد على فهم ظروف ذاك العصر، فهي الظروف السياسية والعادات الإجتماعية التي مرت بها الدولة الإسلامية آنذاك.

فمن ناحية الظروف السياسية، فقد تكالبت الأمم على الأمة الإسلامية، حيث ظهر التتار وأعملوا وحشيتهم وهمجيتهم في بلاد المسلمين وأوطانهم، وأتوا بما لم يأت به فرعون في أهل مصر، وما سطره القرآن الكريم في غير موضع بقوله تعالى ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَدْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: 141].

فتلك الفاجعة التي مُني بها المسلمون هي التي خلعت قلوب العامة والخاصة، وجعلت العلماء في همٍّ وغمٍّ، يقول ابن الأثير: «لقد مكثت عدة سنوات معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليها رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك، فيألت أمى لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، إلى أن حثني جماعة من الأصدقاء على الكتابة وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً»⁽¹⁾.

ولك أن تتأمل في نبرة الحزن التي تكسو كلمات ابن الأثير رحمه الله، كان يظن أن هؤلاء التتر قد جاءوا ليضعوا نهاية للإسلام وأهله في عقر دارهم، فاستعظم الأمر عليه وعلى أقرانه من العلماء المخلصين، فتمنى الموت قبل هذا اليوم، وهي أمنية لا تكون سوى من المخلصين الذين يهولهم شيء، ألا تذكرون تلك السيدة المهيبة مريم ابنة عمران، تلك التي أحصنت فرجها،

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مطبعة الاستقامة، ج 12، القاهرة 1950، ص 28.

وركعت وسجدت لربها، إلى أن جاءها المخاض إلى جذع نخلة، فتوجهت إلى الله بالدعاء قائلة ﴿يَلَيْتَنِي مَتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ [مريم: 23]، لأنها لا تريد إثارة أى شبهة حولها، ولأنها تعلم ظلم قومها وكذبهم وافترائهم، ولكن الله عزيز وغالب، عزيز لا يُقهر وغالب لا يُغلب..... ويتم ابن الأثير حديثه عن الأفعال المجرمة التى أتاها التتار فيقول: «ظهر هؤلاء التتار قبحهم الله، أقبلوا على المشرق ففعلوا الأفعال التى يستعظمها كل من سمع بها، ومنها خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها، لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم»⁽¹⁾.

وفي هذه الأثناء العvisية سقطت بغداد عاصمة الدولة الإسلامية فى أيدى هؤلاء المجرمين عام (656هـ)، وكان لهذا السقوط الأثر البالغ فى تدهور الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية فى الدولة الإسلامية آنذاك مع ما وقع فيها من تخريب ودمار وسلب للخيرات ونهب للممتلكات، وقتل للأولاد، واستحياء للنساء، وما لاقى أهلها من القتل والذبح مما لم يؤرخ لحادثة وقعت مثلها منذ ولدت بغداد⁽²⁾.

وهو ما يُصدق قول ابن الأثير: «فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتل بمثلها لكان صادقاً»⁽³⁾.

(1) المرجع السابق، ج 12، ص 138 وما بعدها.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة النصر، الرياض، ط 2، سنة 1978م ج 13، ص 152.

(3) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج 12، ص 138.

إنه ذات المشهد الذى استقبل صبا ابن تيمية يستقبله اليوم شاباً فى عمر الأربعين، الصورة القديمة للنساء والأطفال لا تزال فى مخيلته، تدافع الكبار، وبكاء الصغار، وذُل الرجال، كلها مشاهد مكررة فى حياة الرجل، لكنه اهتم منذ الصبا ألا يتكرر هذا المشهد، فلماذا تكرر، وما الحل؟؟!

أما لماذا تكرر، فلفساد الداخل قبل تأمر الخارج، فالوطن العربى يغرق فى ترهات وخلافات لا حد لها، أساسها الأنانية والفردانية والتعصب المذهبى من ناحية، والمجون والشهوات والفساد الأخلاقى من ناحية ثانية، وانهيار منظومة العقل وسيطرة الجمود من ناحية ثالثة، ويكفى توصيف عبد الرحمن الشرقاوى لهذه السوءات كلها بقوله «الجمود ييسط سلطانة على العقول، فلا أحد يفكر خارج المذاهب الفقهية المتوارثة وكل حزب يتعصب لمذهبه ويقلد السلف ويكيد كل واحد لأخيه.

دور اللهو والفساد والخمارات أصبحت أكثر عدداً من المدارس، والمشعوذون يبهرون العامة بفنون الشعوذة ويؤثرون عليهم ويشيعون الفساد. الأمراء وكلهم من المماليك المجلوبين لهم قانون سرى خاص غير الشريعة الإسلامية توارثوه عن جنكيز خان!!

الدويلات الإسلامية تتطاحن فيما بينها، وبعض أصحاب هذه الولايات يُمالئ التتار أو الفرنج الصليبيين ويظاهروهم على بنى وطنه المسلمين ومن الشباب من يرخى الشعر تشبهاً بالنساء، ومن الذين ينتسبون إلى علوم الدين من يُحلل الحرمات ومنهم من يمارس المجون حتى يُفتضح أمره، فيضطر قاضى القضاة إلى الحكم بإعدامه، وبعض المنتسبين إلى الصوفية يزعم أنه قد اتحد

في الله فرفع عنه التكليف فلا ينهض لأداء أركان الإسلام، لا صلاة ولا صيام ولا زكاة، بل يستبيح المحرمات وتعاطى الحشيش»⁽¹⁾.
هذا داخلياً...

أما خارجياً فقدوم غير محمود للتار، لأمة الصليب... لتأني الأخطر واليابس على أرض العروبة!!

تُرى بأى المصيبتين يبدأ ابن تيمية جهاده؟! بمواجهة فساد واضمحلال الداخل، أم بجهاد الأعداء القادمين لاستئصال الإسلام من ديار العرب، ليس الخيار صعباً لهذه الدرجة لأنه الفقيه الذى يعلم مكانة الجهاد فى سبيل الله، يعلم يقيناً قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ﴾ [التوبة: 111]، وقوله تعالى: ﴿أَفِرُّوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 41].

إذن لا تردد، ولا حيرة.. الأمر محسوم تماماً، البداية من مواجهة التار، أعداء الخارج أولاً، ثم بعد ذلك ليتفرغ لبناء الداخل ثقافياً ودينياً وعلمياً، وهذا ما فعله الرجل.

لم يترك البلاد فاراً كما فعل أذعياء العلم ومرتزقوه، ولم يرتضى تحت

(1) عبد الرحمن الشرقاوى، ابن تيمية الفقيه المعذب، دار الشروق، ط 1، القاهرة، 1990م، ص 16، 17.

أقدام الأعداء مثلما فعل من يطلق عليهم زوراً اسم «العلماء»، وإنما جاب مساجد البلاد شرقاً وغرباً حاثاً على الجهاد وواعداً بالنصر، لأنه يثق في موعوده سبحانه ﴿إِنْ نَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: 7]، فانتقل من بلد إلى بلد، ومن مسجد إلى مسجد، ومن حى إلى حى، يكتب الرسائل، ويخطب في الناس، ويستنفر العامة تالياً عليهم ومذكراً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: 38] لم يدخر الرجل جهداً، ولم تتم عيناه أو يهدأ فؤاده والخطر يهدد البلاد، فكتب إلى عامة المسلمين «بسم الله الرحمن الرحيم، إلى من يصل إليه من المؤمنين والمسلمين أحسن الله إليهم في الدنيا والآخرة، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ونصرهم نصراً عزيزاً وفتح عليهم فتحاً كبيراً وجعل لهم من لدنه سلطاناً نصيراً وجعلهم معتصمين بحبله المتين مهتدين إلى صراطه المستقيم، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد، فإن الله عَزَّوَجَلَّ بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً، واعلموا أن الجهاد فيه خير الدنيا والآخرة، وفي تركه خسارة الدنيا والآخرة، واعلموا - أصلحكم الله - أن من أعظم النعم على من أراد الله به خيراً إن أحياء إلى هذا الوقت الذى يُجدد الله فيه الدين ويحيى فيه شعائر المسلمين وأحوال المؤمنين والمجاهدين حتى يكون شبيهاً بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فمن قام في هذا الوقت بذلك كان من التابعين لهم بإحسان.

فاله الله! عليكم بالجماعة والإئتلاف على طاعة الله ورسوله والجهاد

في سبيله، يجمع الله قلوبكم ويُكفر عنكم سيئاتكم، ويحصل لكم خيراً في الدنيا والآخرة، أعاننا الله وإياكم على طاعته وعبادته»⁽¹⁾.

ولم يكتف الإمام باستنهاض الشام وحدها، وإنما سافر إلى مصر، مستنهضاً سلطانها المؤمن الناصر محمد ناصر بن قلاوون، مستحثاً له على نصرة الشام وأهله فتلى عليه آيات الجهاد ثم قال له «إن تخليتكم عن الشام ونصرة أهلها والذب عنهم فإن الله تعالى يقيم لهم من ينصرهم غيركم ويستبدل بكم سواكم، قال سبحانه ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾» [محمد: 38]⁽²⁾.

ولم يكن من السلطان الذي سهر الليالي أيضاً يُعد الجيش دفاعاً عن الشام وعن بلاد العروبة، وعن عرض الإسلام إلا الاستجابة للرجل، فأعد جيشاً جراراً وسار به إلى الأرض التي بارك الله حولها ليدفع عنها شر التتار. ولما اجتمع الجيشان ذهب الرجل إلى سلطان مصر وجيشها العظيم يحثهم على الصبر ويعدهم النصر، فلما أحس منه السلطان الصدق والصبر والرجولة والغيرة على الدين والأرض والعرض، طلب منه الوقوف إلى جوار جند مصر تبركاً به وحباً له، ولكن الرجل يجيبه بأدب وحسم، «السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم».

وحرّض الشيخ السلطان على القتال وبشره بالنصر وجعل يحلف بالله

(1) ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، جمع عبد الرحمن بن محمد العاصي وابنه محمد، ط 1، دار الرحمة للنشر والتوزيع، دمشق، 1318هـ، ج 22، ص 410.

(2) طبقات ابن رجب، ج 2، ص 395.

الذى لا إله إلا هو إنهم لمنصورون عليهم، فيقول له الأمراء، قل إن شاء الله فيقول «إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً».

ولكن اجتماع الصبران، الصوم والحر الشديد يوهن الجنود، فيشعر الإمام بالضعف الذى لحقهم، فيفتيهم بالفطر، ويركب فرسه ماراً عليهم آكلاً من تمر فى يده ليدرك الجميع أن الشيخ نفسه أفطر فيفطرون، فذاك أدعى لهم قوة وأعز على أعدائهم.

ولم ينته دور الشيخ عند الحشد والحض، بل لبس لباس الجندية وركب فرسه وجاهد بنفسه مع الجنود، ويكفى فى ذلك شهادة الإمام البزار الذى قال: «كان ابن تيمية إذا ركب الخيل يتحنك ويحول فى العدو كأعظم الشجعان، ويقوم كأثبت الفرسان ويكبر تكبيراً أنكى فى العدو من كثير من الفتك بهم، ويخوض فيهم خوض رجل لا يخاف الموت، وحدثوا أنهم رأوا منه فى فتح عكة أموراً من الشجاعة يعجز الواصف عن وصفها، ولقد كان السبب فى تملك المسلمين إياها بفعله ومشورته وحسن نظره، وكان ذلك فى عام 699هـ»⁽¹⁾.

وذاات الشهادة نجدها عند ابن كثير (رحمه الله)، حيث أثنى على الشيخ فى هذا الموقف وكتب ما نصه: «لقد دافع الإمام ابن تيمية عن دمشق حتى لا تسقط بأيدي التتار، فنادى على الجهاد وحث العلماء والقادة على الصبر، حتى انتصر المسلمون وهم يومئذ فرحون بنصر الله، واندرح التتار وأنقذ الله الوهاب دمشق من السقوط فى أيديهم فى عام 700هـ»⁽²⁾.

(1) البزار، الأعلام العلية، ص 69 - 70.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 14، ص 16.

هكذا يكون العلماء، أفعال لا أقوال، حتى يكونوا قدوة لغيرهم، وحتى ينصر الله بصدقهم وإخلاصهم جند التوحيد، أما علماء السلطة الذين يتلونون بلونها في كل عصر، ينهشون من خيرات البلاد سحتاً وظلماً وأكلاً بغير الحق فحسابهم على الله وحده.

لقد كان على الرجل عبئاً جسيماً يشعر به في قرارة نفسه، عبئاً لا يمكننا فهم تراثه إلا بالنظر إلى ذاك العبء الذي صنعتته تلك الظروف القاسيات التي مرت بها الأمة العربية والإسلامية آنذاك، هذا العبء هو الذي شكّل شخصية ابن تيمية، هو الذي صنع نفسيته، وشكّل وجدانه وحدته في بعض الأحيان، يقول د. محمد يوسف موسى ما نصه: «إن إحساس الإمام ابن تيمية بما عليه من مسئولية باعتباره ابناً من أبناء الإسلام والعروبة جعله يجاهد بنفسه في حرب التتار لتحرير الوطن الكبير منهم ودفع شرهم عن الإسلام والمسلمين وبذلك كان فعالاً لا قوالاً فقط كما هو شأن الأكثرية من رجال الدين هذه الأيام»⁽¹⁾.

وانتهت تلك الحرب التي أدارها بكفاءة الشيخ، فقد تولى إدارتها من جميع الوجوه، نفسياً ومعنوياً ومادياً، فحث الجنود، واستنهض السلطان، واستنفر العامة، وفوق ذلك كله، وقف في كبد المعركة مجاهداً بروحه في سبيل الله، ليكون هذا الاسم «ابن تيمية» في عمق التاريخ رغم أنف الحاقدين قديماً وحديثاً....

تُرى، هل ينتهى جهاد الرجل بانتهاء جهاد الأعداء؟!

(1) د. محمد يوسف موسى، ابن تيمية، ص 93.

لا يزال هناك جهاداً آخر بانتظاره، جهاد هو الأشرس، جهاد لا ينتهى إلا بالموت فى سبيل المبدأ، وفى سبيل الغاية، أو بدقة أكثر، فى سبيل الله.

لقد استحث الشيخ السلطان محمد بن قلاوون على ارسال قوات من الجيش لتأديب الباطنية، تكلم الفئة الباغية التى تعاونت مع التتار وأعانتهم على المسلمين، وذهب بنفسه مع الجيش فى تلك الحروب وانتصر عليهم أياً انتصار، وطهر البلاد من شرهم وخيانتهم وكيدهم.

ثم إن عليه واجباً أعظم من الجهاد بالسيف، إنه واجب بناء الأمة، بناء النفس المؤمنة الواثقة بالله والمتوكله عليه والمستعينة به وحده سبحانه لا بأحد سواه، فأخذ ينقى العقيدة مما لحق بها من خرافات، وخاض لأجل هذا الهدف حروباً أشرس من حروب التتار، حروباً ومعارك كلامية عقائدية كانت نتيجتها الانتقال من سجن إلى سجن، ومن معاناة إلى معاناة، ومن صبر إلى صبر. هكذا عاش الرجل، وهكذا كانت حياته.

ثالثاً: مفتاح الشخصية

لعل التساؤل الأبرز المفروض على كل من يريد فهم ابن تيمية، ما هى المواقف التى يمكن من خلالها أن نكتشف شخصية الرجل؟ بمعنى آخر، كيف نفهم ابن تيمية؟ هل هو الرجل صاحب الحدة والغلظة كما يدعى البعض استناداً إلى شهادة الإمام الذهبى التى قال فيها: «أنا مخالف له فى مسائل أصلية وفرعية، فإنه كان بشراً من البشر تعتريه حدة فى البحث وغضب وصدمة للخصوم، تزرع له عداوة فى النفوس، ولولا ذلك لكان كله إجماعاً، فإن أكبرهم خاضعون لعلمه معترفون بأنه بحر لا ساحل له، وكنز

ليس له نظير، ولكن ينقمون عليه أخلاقاً وأفعالاً، وكل يؤخذ من قوله ويترك إلا الرسول ﷺ⁽¹⁾.

تلك هي شهادة أحد معاصريه، وهو رجل ذو وزن وعلم وقيمة في تاريخنا الإسلامي ولكن القوم يجتزئون شهادته، ولا يأخذون منها إلا الحديث عن حدة الإمام فقط، دون أن يتحدثوا عن علمه الذي يُعد - بتوصيف الإمام الذهبي - بحراً لا ساحل له، وكنز ليس له نظير، ولم يلتمسوا العذر للرجل كما التمس معاصره بقوله «فإنه كان بشراً من البشر» وبقوله «وكل يؤخذ منه ويُترك إلا الرسول ﷺ».

إنه عناد العقول التي تهيم على وجهها في كل واد، عناد لا مبرر له سوى البحث عن الشهرة والذات وعبودية الأنا، لا أرى سبباً لكل الكتابات التي قدحت في الإمام ابن تيمية (رحمه الله) غير هذه الأسباب التي يمكن تلخيصها تحت اسم «أمراض القلوب» أو بتعبير أدق «داء الحسد الذي يأكل القلوب»، فما أكثر ما تركوا جنان تراثه ورياضه، وأخذوا يبحثون وينقبون عن كلمة أو بضعة كلمات يقطعونها عن سياقها ويجردونها عن مضمونها ليقدّموا أدلة اتهام ضد الرجل...

ثم يصطرخون، وينهقون بما لا يفهمون، وتطبع الصحف والكتب والمنشورات، كلها تحمل عناوين براقعة، أو هكذا يظنون، فإذا ما جئت إلى المضمون وجدته سراباً ولم تجده شيئاً، خواء فكري جاء كثرة طبيعية لخواء وجداني وغياب للضمير الإنساني، دون أن يتعب أياً من هؤلاء نفسه منقياً في تراث الرجل وقارئاً نظروف عصره ومستنبطاً في ضوء ذلك العصر حقيقة فكر

(1) الذهبي، التاج المكلل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1374هـ، ص 421.

الرجل، لا، إنه طريق صعب وطويل ويحتاج إلى باحثين جادين ذوى قدرة على التأويل والمنهجية العلمية، أما هم فلا يستطيعون ولا يهتمون إلى ذلك سبيلاً.

ألا يدري هؤلاء أن الأمانة العلمية والضمير الإنساني يقتضيان عدم الخوض في أحد العلماء أو المصلحين مناقشة أو كتابة إلا بعد فهمه في ضوء عصره، ومعرفة مفتاح شخصيته أولاً، ومعرفة مدى موسوعيته وقدراته العلمية والدينية، حتى يمكننا الحكم على مجمل إنتاجه من ناحية، وعلى أولئك المادحين والقادحين على السواء من ناحية أخرى، ثم الحكم على الرجل ذاته، أخلاقه وخلالله وصفاته من ناحية ثالثة، لنرى هل يستحق هذا الثناء من المحبين؟، وبالقدر نفسه هل يستحق تلك الشتائم والهجوم من المعادين، هل هو حقاً شخصية محيرة لهذه الدرجة؟!

للأسف، لم يكن هناك أوضح من الرجل، ولم يكن هناك أعظم رجولة منه في علماء عصره، بل كان متعدد الجوانب فيها يقول د. أشرف عمار: «لقد كان رجلاً متعدد الجوانب، متعمق الفكر، بعيداً عن النظرة الأحادية، متمسكاً بمبادئ وقيم الأمة، محتضناً لكل الفرق والمذاهب، كان يمتلك منهجاً انتقائياً يأخذ من كل الفرق والمذاهب جوانبها الحسنة مقدماً العذر والتسامح لأخطاء ذلك المذهب أو تلك الفرقة أو هذا المفكر، طالما كان الهدف هو ابتغاء الحقيقة والاجتهاد»⁽¹⁾.

هذا النص يساعدنا كثيراً في تفهم حقيقة تلك الشخصية، فصاحبها رجل متسامح مع الغير، ليس له هدف سوى نشر الإسلام وابتغاء الحقيقة، إذن

(1) د. أشرف عمار، شيخ الإسلام مفكراً ومغترباً، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة،

فكيف نفهم تلك الحدة التي تحدث عنها الإمام الذهبي (رحمه الله) وهو معاصر له، فشهادته أحق بالاتباع إذا أردنا فهم الرجل.

ويسوقني الحنين إلى تلك الشهادة مرة بعد مرة، ليس لأن صاحبها معاصر للإمام ابن تيمية، ولكن لأن المستندين إليها عادة ما يغفلون بقية الشهادة على غرار ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: 43]، بل حتى تلك الحدة لا يمكن فهمها إلا في ضوء قراءة سيرة الإمام (رحمه الله) وفهم أحداث عصره وقراءة واقعه المرير، ثم قراءة رؤيته هو عن دور العلماء، حيث حملهم لأمانة هذه الرسالة ومستقبل هذه الأمة، ومن هنا، من واقع كونه عالماً، يصبح مسئولاً عن مستقبل هذه الأمة، ومن ثم تجد له حدة بعض الشيء في بعض المواقف التي تستدعي تلك الحدة، لأن العالم لا ينافق ولا يداهن أبداً على حساب دينه، أو على حساب وطنه، بل هو مسئول عن الدين الحق، وعن قول الحق مهما لاقى في هذا السبيل من عنت، يقول الإمام (رحمه الله): «ومتى ترك العالم ما علمه من كتاب الله وسنة رسوله واتبع حكم الحاكم المخالف لحكم الله ورسوله كان مرتداً كافراً يستحق العقوبة في الدنيا والآخرة... ولو ضرب وحُبس وأذى بأنواع الأذى ليدع ما علمه من شرع الله ورسوله الذي يجب اتباعه واتباع غيره كان مستحقاً لعذاب الله، بل عليه أن يصبر، وإن أذى في الله فهذه سنة الله في الأنبياء وأتباعهم ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: 2 - 3] (1).

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى المصرية، قدم لها د. سيد حسين العفاني، حققها وخرج أحاديثها خيرى سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة 2003م، ج 35، ص 231.

هذه عقيدة الرجل، وهذا هو الدور المنوط بالعلماء، الحفاظ على الشريعة والديار، ويتجلى لنا هذا الفهم في موقفين عظيمين، ترى فيهما الحدة التي تحدثنا عنها، وترى فيهما الشجاعة والقوة في طلب الحق ومواجهة الباطل التي تحدث هو عنها، الموقف الأول تعود أحداثه إلى عام 698هـ، حيث قدم التتار إلى أرض الشام، وفر العلماء والأمراء والأغنياء من البلاد، فروا متنصلين من واجبهم في الجهاد والدفاع عن الوطن، وعن الدين، فروا مؤثرين الدنيا على الآخرة، بائعين الآخرة بالأولى، ولكن الرجل لم يصنع صنيعهم، فلم يفر أو يترك البلد، ولم يدهن الأمراء ويُمالي السلاطين، ولم يرتع تحت أقدام الغزاة، وإنما ذهب بشموخ العلماء وبغزة المؤمنين المخلصين إلى قائد تلك الحملة، وكان اسمه «غازان»، فوجد في بلاطه أنصاف العلماء، وأنصاف الرجال، الذين ذهبوا إليه مستسلمين، والذين برروا له غزوه لأرضنا العربية بأنه قائد مسلم، والذين ارتموا تحت كرسيه لينالوا العطايا والمطايا، كلهم ارتموا تحت أقدام قائد التتار، لذا كان ينتقصهم ويحط من قدرهم ويضع من شأنهم، ولا يقيم لهم وزناً.

ولكنه فوجئ بعالم من طراز آخر، من طراز الرجال الذين تربوا على مائدة القرآن بحق، وتربوا على سيرة نبي القرآن ﷺ فشرّبوا منها العزة والكرامة والإباء، وصدق عليهم وصف العزيز القدير ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23].

دخل الإمام على «غازان» فوجده وسط حاشيته وجنده، ومن حوله الخونة الذين يبيعون الأوطان بحفنة من الدنانير، فتوجه إليه بالسؤال المباشر

دون إلقاء السلام: «ما الذى أتى بك إلى أرضنا، إنك تزعم أنك مسلم ومعك مؤذنون وقاضى وإمام وشيخ على ما بلغنا، فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا؟ وأبوك وجدك هولاء كانوا كافرين وما غزوا بلاد الإسلام، بل عاهدوا قومنا وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت»⁽¹⁾.

ويرتعد قلب القائد الكبير فى صدره وسط حراسه وجنده ومنافقيه، من هذا الرجل الذى لا يهاب الملوك أو الأمراء فيقتحم كل الحواجز ويقفز فوق كل الحدود ويوجه كلمات كالصواعق بهذه الجرأة وبذلك القوة وبشجاعة منقطعة النظير؟!

إنه حقاً شيخ الإسلام، يستحق هذا اللقب عن جدارة، ويستحق تلك المكانة فى قلوب بنى قومه ومعاصريه، ولعل «غازان» كان من الفطنة إلى حد كبير، فلعلة تنبأ بتلك الحروب المتتالية التى تضرم نارها ضد الإمام فى كل عصر، وفى كل مصر إلى يوم القيامة، لأنه صراع بين طريقين، وبين غايتين، بين المبدأ واللامبدأ، بين الدنيا والآخرة، فطلاب المال والمنصب الذين ارتموا تحت أقدام قائد التتار، وهاجموا ابن تيمية حياً، هم أنفسهم الذين يرمون تحت أقدام كل سلطان فى كل عصر ويقذفون الحق فى وجهه باطلاً وزوراً، فينعتون الرجل بالحدة تارة، وبالتشدد أخرى، لأنه كان سيفاً للحق، وهم كانوا مطايا للباطل، لأنه كان رجلاً، وهم كانوا صغاراً للغاية، فلا طابت تلك الحياة بتلك الذلة وذاك الصغار.

ولكن وسط مئات الأسئلة التى تملأ عقل «غازان» إلا أنه كان ممتلئ الإعجاب والإجلال للرجل، فأكبره وقدره حق قدره، ولعله تمنى

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ 14، ص 84.

أن يكون له مثيل في خاصته ووزرائه وقادة جنده، بل ولعله يتمنى أن يطلب منه الإمام أى شىء، فطلبه لا يُرد، وكيف يُرد الشجعان لهذه الدرجة، وكيف يُرد أصحاب المبادئ الرفيعة والقلوب الشجاعة والرجولة البالغة!!

ولر يملك «غازان» نفسه إلا أن قدم الطعام للحاضرين تحية للإمام أحمد ابن تيمية، فهذا أقل ما يقدم لهذا الشجاع، وامتدت جميع الأيدي إلى الطعام إلا يد الإمام، فسأله «غازان» «لر لا تأكل يا شيخ الإسلام»؟ فرد عليه الرجل في كلمات قواطع: «كيف أكل من طعامكم وكله مما نهبتكم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس»⁽¹⁾.

لا مفر إذن من علو مكانته وارتفاع شأنه عند «غازان»، وكلما ارتفع شأنه كلما حط من شأن المرتزقة الذين يجلسون قبل الشيخ في بلاط «غازان»، وكلما ارتفع الشيخ في عينه، كلما سقط الآخرون من نظره، فشجاعة الإمام تفضح جنبهم، ورجولته تفضح صغارهم، وقوته تفضح عجزهم وضعفهم.

إذن، فلتدع لنا يا شيخ الإسلام، فلعل هذا هو الطلب الوحيد من «غازان» والذي يمكن للشيخ أن يقبله، فرفع الشيخ يديه داعياً للإسلام لا للرجل، للحق لا للباطل قائلاً: «اللهم إن كان عبدك هذا محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا وليكون الدين كله لله فانصره وأيده وملكه البلاد والعباد، وإن كان إنما قام رياءً وأسمعة وطلباً للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليذل الإسلام وأهله فاخذله وزلزه ودمره واقطع دابره»⁽²⁾.

(1) نفسه، ص 85.

(2) نفسه، ص 85.

تُرى، من ذا الذى يمتلك من سحر البيان ما يستطيع التعبير به عن هذه الشجاعة، من لهذه الرجولة فى هذا الموقف؟!

شيخ الإسلام يدعو على قائد الحملة البربرية على الشام، والقائد يؤمن على دعائه!! يا لها من عزة للرجال ذوى المبادئ، يا لها من كرامة للحق وأهله.

وكلما زاد أهل الحق شجاعة كلما امتلأ الخائفون خوفاً وهلعاً، خوفاً على أنفسهم عسى ينالهم جميعاً الغضب، وعسى يخرجون من بلاط الملوك بغير زاد، ولعل تلك شهادة أحدهم: «فجعلنا نجمع ثيابنا خوفاً من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله فلما خرجنا من عنده، قال له قاضى القضاة نجم الدين بن صمرى وغيره «كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك»، وتأخر هو فى خاصة نفسه فى حين تركه الذين كانوا معه خشية إغراء السفهاء به ليقتلوه بعد خروجه من عند «غازان»، ولكن الأمراء وقادة الجند ما أن سمعوا به حتى خرجوا خلفه يتبركون بدعائه وهو سائر إلى دمشق وينظرون إليه، فوالله ما وصل دمشق إلا ونحو ثلاثمائة فارس فى ركابه»⁽¹⁾.

أرأيتم تلك العزة، التى يؤولها البعض بأنها «حدة»!! أرأيتم كيف يفكر شيخ الإسلام وكيف يطبق مبادئه عملياً!!

لقد طلب من «غازان» الرحيل من حيث أقى، وما كان منه إلا الاستجابة لطلب الشيخ، فقد تضاءلت نفسه أمام عظمة الشيخ، وضعفت قوته أمام شجاعته، فغادر أرض الشام، وعم السلام ببركة إخلاص أحد العلماء الذين

(1) نفسه، ص 85.

يخشون الله ولا يخشون أحداً سواه، وصدق الله العظيم ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنْ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 38].

يقول القاضي شهاب الدين أبو العباس، وكان أحد شهود تلك الواقعة: «جلس الشيخ إلى السلطان «غازان» حيث تجم الأسود في آجامها وتسقط القلوب داخل أجسامها، خوفاً من ذلك السبع المغتال، والنمرود المحتال، والأجل الذي لا يدفع بحيلة محتال، جلس إليه وأوماً بيده إلى صدره، وواجهه ودرأ في نحره، وطلب منه «غازان» الدعاء، فرفع الإمام يديه ودعا دعاءً منصفاً أكثره عليه، وغازان يؤمن على دعائه»⁽¹⁾.

ولعل هذا الموقف برهاناً جلياً ومفتاحاً قوياً لفهم تلك الشخصية، وكيف تفكر؟ وما هي قناعاتها!!

أما الموقف الثاني فيبرهن على مدى شجاعة الرجل وتجرده للحق، دون النظر إلى أى عاقبة، فلما خاف الله، أخاف الله منه الأمراء، وبسط له القلوب.

لقد شكاً إليه أحد الضعفاء الذين لا يستطيعون حيلة في الأرض ولا يهتدون سبيلاً، من ظلم أنزله به «قطوبك الكبير»، وكان هذا أحد الأمراء غلاظ القلوب، كان فيه جبروت وغلظة تسوقه إلى أخذ أموال الناس غصباً وكرهاً.

واستصرخ الرجل بالإمام... القلوب وجلة، والتلاميذ مشفقون، والإمام أبي إلا الذهاب إلى هذا الظالم، ليدخل عليه غير هيّاب ولا وجل موجهاً إليه السؤال مباشرة: «لم ظلمت هذا الرجل؟ ولم لا تعطه حقه»، ولكن قطوبك

(1) تاريخ ابن الوردي، ج2، ص287.

قابل هذه الجدية بالسخرية، وهذه الرجولة بالندالة، فقال له ساخراً «أنا كنت أريد أن أجيء إليك لأنك عالم زاهد».

فرد عليه الإمام بذات الجدية التي سأل بها أول الأمر «موسى كان خيراً مني، وفرعون كان شراً منك، وكان موسى يجيء إلى باب فرعون كل يوم ثلاث مرات ويعرض عليه الإيمان»⁽¹⁾.

لك أن تتخيل هذه الصواعق في وجه أحد الأمراء المماليك الذين لا يهابون أحداً، إنها إرادة حديدية في الانتصار للحق والوقوف إلى جواره مهما بلغ الثمن، حتى ولو كان الثمن هو الروح ذاتها، والحياة نفسها، فلا طابت الحياة بذل، ولا نعمت إذا ضاعت الحقوق وغض العلماء الطرف.

هذين الموقفين يوضحان بجلاء شخصية الإمام (رحمه الله)، شخصية تتلخص في كلمتين اثنتين «الانتصار للحق» أو «التجرد للمبدأ»، هذا هو التوصيف الأكثر دقة، يقول د. فؤاد عبد المنعم: «وبدت شجاعة الإمام الأدبية طوال حياته فتجرد للمخالفين واتجه إلى السنة وأعلنها ولو خالفت كل مألوف عند الناس، وكانت هي سبب بلائه، فلما نزل البلاء بدت فيه صفتان، الصبر وقوة الاحتمال»⁽²⁾.

تُرى، مع هذه المواقف التي تُظهر حدته وقوته، فهل كان الإمام متجرباً من الرحمة والرفق كما يزعم البعض؟!

لقد كان (رحمه الله) رقيقاً، ذا حدس وبصيرة يمتلأن نوراً....

(1) نقلاً عن د. فؤاد عبد المنعم، شيخ الإسلام ابن تيمية والولاية السياسية الكبرى، دار الوطن، الرياض، ط 1، 1429هـ، ص 26.

(2) نفسه، ص 21.

قابل ذات مرة طالب علم يمشى شارد الذهن، لم يكن يملك نفقة يومه، فاستوقفه الإمام وأعطاه مالا دون سؤال وقال له: «أنفق من هذا المال وأخل خاطرك وانشغل بطلب العلم»⁽¹⁾.

من الذى أعلمك يا إمام بأنه لا مال له؟، ليس شرود الذهن دليلاً كافياً على الفقر، فقد يشرد الذهن لمشكلة ما، أو لضرر يلحق بصاحبه، أو لألر بالجسد، وليس فقط لعدم وجود المال، فمن الذى ساق إلى بصيرتك أنه المال لا غير، إنه نور يقذفه الله في قلوب العارفين ليضئ أفئدتهم، ويشرح صدورهم، فيعطوا قبل أن يُسئلوا.

أضف إلى ذلك، رفته وحنانه وlinه مع أمه، فلم يكن يخطو خطوة إلا بمشورتها واستئذانها، رفض أن يتزوج لثلا تشغله زوجته وأولاده عن أمه، وتتجلى تلك الرقة والرفق بأمه عبر عدة مواقف، انتقيت منها خطاباً كتبه إليها أثناء محاكمته في مصر، وحيث خرج من السجن وتوسل إليه السلطان للبقاء في مصر ليكون بجواره، فكتب إلى أمه يقول لها: «من أحمد ابن تيمية إلى الوالدة السعيدة أقر الله عينها بنعمه، وأسبغ عليها جزيل كرمه، وجعلها من خيار إمائه وخدمه، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، فإننا نحمد اليكم الله الذى لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل شىء قدير، ونسأله سبحانه أن يُصلى على خاتم النبیین وإمام المتقين، محمد عبده ورسوله ﷺ كتابي إليكم عن نعم الله العظيمة ومنن الله الكريمة وآلائه الجسيمة، نشكره سبحانه عليها، ونسأله المزيد من فضله، ونعم الله كلها جاءت في نمو وازدياد وأياديه جلت عن التعداد.

(1) عبد الرحمن الشرقاوى، ابن تيمية الفقيه المعذب، ص 19.

وتعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد إنما هو لأمر ضرورية متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا، ولسنا والله مختارين للبعد عنكم، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم، ولكن الغائب عذره معه وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور فإنكم ولله الحمد ما تختارون الساعة إلا ذلك، ولهم نعزم على المقام والاستيطان شهراً واحداً، بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم، وادعوا لنا بالخير، فنسأل الله العظيم أن يخير لنا ولكم وللمسلمين ما فيه الخير من خير وعافية»⁽¹⁾.

خطاب يفيض رقة ورحمة وحناناً وشوقاً «ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم»، كما يفيض إيماناً وعلماً و يقيناً «وتعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد إنما هو لأمر ضرورية متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا»، ثم تأكيده (رحمه الله) على استخارته الدائمة لله، ثم طلبه للدعاء من أمه، وكذا تقديم الاعتذار الرقيق المصحوب بالعتذر حتى تتقبل أمه «ولكن الغائب عذره معه»..

تلك هي شخصية الإمام أحمد بن تيمية (رحمه الله) بكافة جوانبها، بالحدة، وبالحدة، بالرفق واللين، بالحنان والرحمة، بالحدس واليقين، رجل صنعته ظروف عصره فصنع هو التاريخ، واجهته البدع والمنكرات فتجرد لمواجهتها بكل حسم، وكل قوة.

لقد جاهد الإمام (رحمه الله) التتار بلسانه مرة فردهم عن أرض العروبة، وبسيفه مرات، ومع ذلك يتهمه بعض إعلامي القرن الحادى والعشرين بأنه كان مستأجراً من قبل التتار لزرع الفتنة في صفوف المسلمين، هو الذى

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مصر، ج28، ص33.

استنفر الناس للجهاد ووعدهم النصر وحرصهم على القتال، وذهب مستنفراً للسلطان الناصر محمد بن قلاوون في القاهرة، وشهد له المصريون وأهل الشام بأنه كان السبب الأول للنصر، ومع ذلك يُشيعون عنه تلك التهمة، ولا أدري بأي توصيف نصف هذا الكذب المتعمد، أهو الجهل الذي يترك البيوت خراباً وبواراً؟ أم الحسد الذي يأكل القلوب؟ أم العمل لحساب أجندات معينة لهدم الدين والوطن؟ أم ماذا بالضبط؟

ثم كانت الطامة الكبرى أن اتهمه بعض المرتزقة من أرباب الجهل المصنوع صنعاً بالتشدد، لير يكلفوا أنفسهم بقراءة أحداث عصره، ولم يبحثوا عن مواقفه للوقوف بفهم دقيق على معالير شخصيته، ليبقى ابن تيمية اسماً كبيراً إلى قيام الساعة، رغم حرب المرتزقة، وجهل المنتفعين، وكيد الحاقدين.

الفصل الثانى

أسباب المحاكمة

الفصل الثانى

أسباب المحاكمة

تمهيد

سيق الإمام ابن تيمية (رحمه الله) إلى المحاكمة كشأن أصحاب الرسالات الإسلامية عبر التاريخ، سواء كانوا أنبياء أم دعاة أم مفكرين أم إصلاحيين، فكم يمتلئ التاريخ بأمثال هذه المحاكمات، ولكم يمنح الظالمون المحكوم عليهم في هذه المواقف الخلود الأبدي دون أن يدروا، فقد أرادوا قتلهم والقضاء على سيرتهم، ولكنهم من حيث لا يشعرون منحوهم الخلود في قلب التاريخ، خلوداً في عمق الزمن، حضوراً في جوهر المشهد.

ويزيد الإمام ابن تيمية عن المصلحين والمفكرين كافة بأنه الرجل الذى لازال يصنع الأعداء من حوله بعد وفاته بسبعة قرون أو يزيدون، أو بدقة أكثر، لا زال البعض يصطنعون عداوته، فينقبون في تراثه ويلتقطون ما يجدونه خادماً لأهدافهم ليسلطوا سهامهم وسمومهم إلى الرجل في قبره، لماذا هذه العداوة، وما أسباب تلك الخصومة؟؟ لا أدري!! ثم أليس من حق العظماء على الأمة الذين وهبوا حياتهم لها وعاشوا طوال أعمارهم مجددين لدينها، حارسين لرسالتها، ذائدين عن مقدساتها، شاهرين سيوفهم ورماحهم

ضد أعدائها، أن تُوقر سيرتهم ويشكروا على ما أحسنوا فيه، ويُعذروا فيما أخطئوا فيه، بدلاً من التكر لهم وإهالة التراب على تراثهم ولعنهم وسبابهم بغير حق.

ولم يكن الإمام ابن تيمية بدعاً من العلماء والفلاسفة والمصلحين والدعاة، فقد أصابه هو أيضاً الكثير من غلو الغالين، وجُحد الجاحدين، وجهل الجاهلين فالبعض يجعله ملكاً ونبياً معصوماً، أو هكذا يدعون، والبعض يرميه بالجهل والفسوق والزندقة، هكذا يفترون.

ووقع الرجل بين ذاك وهاتيك، بين مرضى نفسيين يغالون، وقساة ماجورين يسبون، فلا عبر هؤلاء عن الحقيقة، ولا اقرب أولئكم منها.

وترجع أسباب تلك المحاكمة للإمام إلى خلافات قديمة، وأخرى حديثة، فالقديمة في معظمها ذات أسباب سياسية حيث حب الأمراء له وعملهم بمشورته وخاصة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فقد كان لا يقطع أمراً دون العودة إلى الإمام، لأخذ رأيه والاستئذان بمشورته، لذا تجد معظم التهم تنبعث لهذا السبب مثل انتظار أى فرصة لإعلان الحرب عليه بعد أى فتوى يُشَم من وراءها رائحة الخلاف مع المذاهب الأربعة كفتاوى الطلاق وعدم زيارة الأضرحة وغيرها، أما اليوم فالتهم جديدة تماماً ومنها أن الإمام (رحمه الله) هو المؤسس الأول للتشدد والتطرف والغلو، وأن الجماعات التكفيرية كلها خرجت من تحت عباءته، ثم اصطناع عدااء للرجل مع التصوف في حين أنه كان في حقيقة الأمر صوفياً سنياً زاهداً في الحياة الدنيا بأكملها.

هذه العداوات القديمة والحديثة ساهمت بشكل كبير في تقديم ابن تيمية

للمحاكمة قديماً حيث السجن فالموت، وللمحاكمة حديثاً حيث اتهام كل من يؤيده أو يكتب عنه بالتشدد وصناعة الإرهاب.

أولاً: الخصوم وحقيقة الخصومة

لعل السؤال الأهم الذى يطرح نفسه الآن، ما هى حقيقة الخصومة مع ابن تيمية قديماً وحديثاً، وما هى الأسباب التى صنعت له تلك العداوات اللامتناهية، والإجابة يسوقها النص التالى:

«فمنذ العصر الجاهلى تفرد العرب بظاهرة ما سبقهم بها من أحد من العالمين وهى ظاهرة (التطرف فى المدح والذم) حتى جعلوه فناً مستقلاً بذاته، وأوجدوا له قواعده وأصوله وأعلامه ومدارسه... فالواحد منهم يمدح من يحبه إلى حد التنزيه والتأليه! ويلعن من يبغضه إلى حد التكفير والتحريض على قتله»⁽¹⁾.

هذه قاعدة عامة يمكن تسميتها بقاعدة «الحب والكراهية» وهى قاعدة عاطفية وجدانية لا تستند إلى عقل، وتالياً تفتقد أحكامها درجات المصادقية. ويخضع ابن تيمية للأسف لتلك القاعدة الوجدانية التى تتغير أحكامها بحسب الانفعالات لا العقل، بحسب الوجدانيات لا الموضوعية، فكان الشطط والغلو فى الكراهية، لدرجة أن أحد أولئك القادحين فى تراث الرجل وضعه فى كفة مناوئة تماماً لأهل السنة والجماعة فكتب متسائلاً «أى المنهجين القائم بنصرة منهج أهل السنة والجماعة ويهدى به، وأحق أن يتبع،

(1) محمد عبد الشافى القوصى، ابن تيمية فى الميزان، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، ط1، 2014م، ص7.

منهج جمهور علماء الأمة، أى منهج الغالبية العظمى من علماء الإسلام فى العالم، أم منهج مدرسة الإمام ابن تيمية»⁽¹⁾.

من أول لحظة وهم يُصدرون للناس أن ابن تيمية خالف الإجماع وخرج على الأمة ومزق المعارف وقطّع أوصال البديهيّات والمسلّمات، بل إن البعض الآخر مثل رائد السّمهورى يتهم الإمام باطلاً وزوراً، بما يتناقض مع العقل والمنطق معاً، وبما يتناقض مع أى من المعارف الإنسانية فيجعله ملهماً للجميع، المسامح والبلطجى، الخير والشرير، فيقول «الجدير بالذكر أن شيخ الإسلام ملهم للجميع، مؤيدهم ومعارضهم فمن أراد أن يتكلم عن العنف والشدة مع المخالف بل قتاله وقتله ينتقى من أقوال الشيخ ما يناسب هذا المقام دون النظر إلى أقواله الأخرى، ومن أراد أن يتكلم عن جمع الصف وإزالة الوحشة من القلوب والدعوة إلى الوسطية والتعقل ومراعاة المصالح ينتقى من كلام شيخ الإسلام ما يستشهد به دون النظر إلى أقواله الأخرى.

وفى اتجاه آخر نجد ابن تيمية ملهماً للعنيف المثلّم صاحب البارودة والقنبلة وخطاب التفجير والقتل وملهماً للوسطى المعتدل صاحب المشلح والبخور وخطاب القلم والكتاب، ملهماً للمنظر المتأمل المتوسم الناظر فى الكليات الذهنية وملهماً للحركى الميدانى النشط المتعامل مع الجزئيات المعينة»⁽²⁾.

(1) جمال سعد الجمال، التحذير من مفاهيم التطرف والتفكير، دار الإمام الرازى، القاهرة، ط 1، 2005م، ص 7.

(2) رائد السّمهورى، نقد الخطاب السلفى، ابن تيمية نموذجاً، طوى للنشر والتوزيع، لندن، ط 1، 2010م، ص 20.

ولو صح هذا الاتهام لأهيل التراب على تراث الشيخ بأكمله منذ زمن، ولكن الله قيض له من ينشره ويدافع عنه ويكتب له الشروح والتحليلات والتحقيقات ليُعم نفعه على الأمة المسلمة، ولا يمكن فهم هذه الخزعات إلا فى إطارين اثنين، الأول إرادة المؤلف تصدير مشهد العنف ليرسخ لفكرة حاول الترسيخ لها كثيرون غيره، الإمام مصدر العنف والإرهاب فى العالم، هو الذى أنتج داعش والجماعات التكفيرية عبر طول الوطن العربى وعرضه.... هكذا يزعمون وهكذا يؤكدون.... وهكذا ينفقون أموالهم للترسيخ لتلك الفكرة، والثانى محاولة المؤلف بعث فكرة إلى ذهن القارئ مؤداها يتلخص فى كلمة واحدة «تناقض» ابن تيمية، ليقول للجميع، من أراد تبريراً للعنف والقتل فليذهب إلى ابن تيمية، وفى ذات الوقت من أراد تحفيزاً على السلم والسلام فليذهب إلى الرجل ذاته!!

ما هذا العبث؟! وما هذه الهرطقات؟!

هذا هو النقد الذى ينبعث من الوجدانيات، وتدفعه الانفعالات، فيخرج النقد مسخاً لا روح فيه ولا عقل ولا نبض، ليكون لا شاهداً على ابن تيمية، ولكن شاهداً على الضلالة المعرفية والمنهجية والبحثية التى يتمتع به أولئك النقاد، وشاهداً على مدى خوائهم الفكرى والمعرفى.

ولو فهم هذا الناقد للشيخ تراثه كما ادعى هو أنه مارس حفرًا معرفيًا بحسب ادعائه «إننا محتاجون إلى ممارسة شىء من «الحفر المعرفى» والفكرى لهذه الأدوات والإجراءات والمفاهيم التى تتحكم فىنا وتسيرنا عن غير وعى منا، لعلنا نصل إلى الجذور التى تنتج مثل هذا النوع من الثمار التى نتغذى عليها، نأكلها بشراهة، ونقبل عليها بنهم، دون أن ندري ما تحتويه من

عناصر، أهي صحية مغذية أم هي على العكس من ذلك، وقد يكون ضاراً في جميع الحالات، دون أن يدرك الناس ضرره، لأنهم استمروا مع التعود أو على الأصح مع «التعويد»⁽¹⁾.

هذا الكلام كله تشكيك في التراث وفي مؤسساتنا الدينية عبر طول الوطن العربي وعرضه، ويكفي دلالة على هذا التشكيك الكلمة الأخيرة في النص «التعويد»، وكأنه يتهم المؤسسات الدينية بتعمد الترسيع لتراث الإمام ابن تيمية، والذي هو تراث سام بحسب زعم ذاك الناقد، وتالياً فتكون تلك المؤسسات الدينية الوطنية مشاركة في تلك الجريمة عند رائد السهموري.

لقد كان ممكناً أن يتغير موقفه تماماً لو أنه فهم الشيخ في ضوء عصره، ولو أنه قرأ فتاويه في ضوء مناسباتها، ولو أنه فهم تراثه في ثياب بيئته والأحداث السياسية التي عاشها الإمام (رحمه الله) ولكنه للأسف فصل الرجل تماماً عن العصر الذي عاش فيه والظروف التي أحاطت به، بل واقتطع من أحاديثه وأولها على غير مرادها كشأن أكثرية النقاد الذين يتمتعون بالبعد عن المنهج العلمي في البحث والكتابة، بل وعن الأمانة العلمية، فغالباً ما يقتطعون نصوصاً بما يؤيد وجهة نظرهم، وبما يُغير وجهة نظر الإمام ذاته في تلك القضية على غرار ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: 43]، من ذلك قول أحدهم على سبيل المثال «ومن أخطاء ابن تيمية ما ادعاه في تبديع الصحابي الجليل عبد الله بن عمر بن الخطاب، وذلك لشدة اتباعه وتحريره للمواضع التي صلى فيها رسول الله ﷺ وقال في حق عبد الله بن عمر بالحرف الواحد «بل هو

(1) المرجع السابق، ص 12.

مما ابتدع»⁽¹⁾ بينما النص الصحيح هو قول الإمام «وتحرى هذا ليس من سنة الخلفاء الراشدين، بل هو مما ابتدع»⁽²⁾ على المبني للمجهول.

وأمثال هذا كثير عند نقاد ابن تيمية، فغالباً ما يقتطعون النصوص ويسيئون تأويلها وفهمها، ثم يُصدرون عداًءاً مصطنعاً للإمام مشفوعاً بتلك النصوص المقتطعة وبما يؤيد وجهة نظرهم، دون النظر إلى صالح الإسلام أو مصلحة المسلمين، ودون أدنى فهم لمقاصد الشريعة التي تقدم دفع المضار على جلب المنافع.

هؤلاء الخصوم لا يتورعون عن إصاق التهم بالشيخ على الدوام وكأنهم عازمون على إهالة التراب على تراثه بأكمله، ولكن هيهات هيهات أن يطفئوا نور الله ﴿وَيَأْتِيكَ اللَّهُ الْآنَ يَتِمُّ ثَوْرُهُ﴾ [التوبة: 32]، فهم عادة ما يبحثون عن أقدر التهم، ويغلفونها بأقذر الألفاظ، ويغلفون ذلك كله بسوء الفهم وعقم التأويل ليصلوا إلى مقصودهم، ولكم بلغ الكذب والبهتان مبلغه عندما ذهب رائد السمهوري إلى أن للشيخ وسائل واستراتيجيات للرد على المتكلمين يسوء في منها استراتيجية زعمها وادعاها على الإمام تحت عنوان «تشنيع حال المتكلمين»، وفي عنوان فرعي سماه «الشحن العاطفي ضد المتكلمين» قال ما نصه: «ومن أساليب شيخ الإسلام في هجومه على المتكلمين الشحن العاطفي، والشحن العاطفي وما فيه من حدة مجاف لأساليب النقاش العلمي الموضوعي الهادئ الذي ينبغي أن يقوم على الدليل والبرهان والحجة»⁽³⁾.

(1) د. محمود صبيح، أخطاء ابن تيمية في حق رسول الله وأهل بيته، بدون دار نشر، ط 1، 2003م، ص 329.

(2) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ص 390.

(3) رائد السمهوري، المرجع السابق، ص 536.

هذا هو المستوى المعرفي لنقاد ابن تيمية، مستوى لا يخرج عن طور التلاعب بالألفاظ والسفسطة لا أكثر، فأغلبهم يتصيد كلمات بعينها قيلت في مواقف معينة، لها ظروفها، ولها مناسبتها، ثم يُصدرون المشهد، ذالكم هو مذهب الرجل، وهذه آراءه، مثل معركته مع المتكلمين ومحاولة تنقية العقيدة من كل شائبة ليكون المرجع والمآل إلى الكتاب والسنة لا غير، فجمعوا كل الفتاوى التي تصب في هذا الإطار، ومارسوا عملية انتقاء وبتروا.... انتقاء من كلمات الرجل ما يؤيد وجهة نظرهم، وبتروا لسائر أقواله، بل وللظروف التي قيلت فيها تلك الأقوال التي استشهدوا بها ضده، بحثاً عن السوءات فقط إشباعاً لرغبة دنيئة في النقد دون دليل، أو استتجاراً من أحد مقابل الدرهم والدينار.

إجمالاً يمكننا القول في حقيقة الخصومة التي أضمرت لابن تيمية وتتجدد في كل عصر، أنها ترجع إلى عاملين، أحدهما خارجي والآخر داخلي.

فالأول يرجع إلى مجموعة من المأجورين أو المرتزقة أو ربما باحثين جادين ومحترمين ولكنهم ضلوا الطريق وأساءوا الفهم واندفعوا وجدانياً مع الذين هيئوا لهم أسباب الاندفاع وساروا في تيار الهدم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ولكنهم في غالب الأمر يتمتعون بجهل ذريع في الفهم والتأويل والصياغة، ويمكننا إجمالاً أبرز الصفات التي يتمتعون بها كالتالى:

- 1- البعد عن المنهج العلمى وعدم إجادة أدواته وأساليبه.
- 2- قصور الفهم وسوء التأويل، وسوء توظيف النصوص التي يختارونها.
- 3- ضعف الدليل العقلى لديهم والحجة المنطقية.

4- الاعتماد على الأسلوب العاطفى الذى يبرز مدى الركاكة العلمية والأدبية والفنية.

5- تعمّد الكذب فى أحيان كثيرة، ولجؤهم إلى التجريح الشخصى فى أحيان أكثر، وهذا وذاك يبرز جهلهم من ناحية، وحقدهم من ناحية أخرى.

تلك هى أهم صفات العامل الخارجى المتمثل فى نقاد ابن تيمية، أما العامل الداخلى فيتمثل فى حدة ابن تيمية التى لا يقبلها هؤلاء، حتى هذه الحدة أساءوا فهمها، وأساءوا تقديرها، فأخذوا على الإمام قيامه بالتعزير بنفسه مع أنه ليس ولياً للأمر، وهذا يبرهن على مدى قسوته وغلظته وحدته، وهى ذات التهمة التى واجهها الإمام قديماً من بعض قضاة المالكية وأرادوا بها الواقعة بين الشيخ والسلطان فخاب سعيهم وضل، ولعل الأنسب للرد ذكر تلك الشبهة على لسان الرجل ذاته: « كنا نقاوم المنكر بأيدينا منذ نحو عشرين عاماً دونما إذن من ولى الأمر، ولكن عندما فتح الله علينا وزادنا علماً بفضل، تبين لنا أن ما كنا نقوم به ليس هو الشرع، فاعلموا منذ اليوم أن إقامة الحدود وتعزير الخاطئين من ضرب وسجن وجلد ونحوه، وإتلاف المال الحرام وغيره، كل ذلك من عمل ولى الأمر، فهو المسئول وحده عن إنزال العقاب وليس لأحد أفراد الأمة أن يقوم عنه بهذا إلا إذا أذن له ولى الأمر، فولى الأمر وحده هو الذى يحق له عقاب أهل الجنايات وقهر الناس على التزام الجادة واتباع حكم الشريعة، أما ما كنا نقوم به منذ عشرين عاماً فهو غلط سببه نقص العلم، وقد أوقعنا فيه الغيرة على السنة وحمية الشباب والجهل بما للراعى

على الرعية من حقوق، فعفا الله عما سلف، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا»⁽¹⁾.

هذا هو كلام الرجل في هذا الإطار، قدم اعتذاراً واعترف بالخطأ، وكلُّ يؤخذ منه ويُرد عليه إلا النبي ﷺ، ثم إن هذا كله كان بدافع الغيرة على السنة والدين، فلما بدا له خطأ هذا الفهم تركه واعتذر عنه، ولكن القوم لا يتركون الفرص دون أن يتصيدوها، ودون أن يغتتموها، فصنعوا حول الرجل فوهة بركانية سبق وأن أطفأها واعتذر عنها.

أولئك هم الخصوم، وتلك هي أسباب الخصومة، أسباب ترجع في مجملها إلى «أمراض القلوب»، فبعضهم عدّ نفسه خصماً للرجل، كالنملة وقعت على نخلة، فقالت لها «أيتها النخلة اثبتى تحت قدمى حتى أطيّر، فقالت لها النخلة، أيتها النملة والله ما شعرت بك حين وقفتى فكيف أشعر بك حين تطيرين»، فمن هؤلاء من أخذ أجراً من الدراهم والدنانير، ومنهم من حاول قدر الإمكان أن يكون موضوعياً، ومنهم من خرج عن كل الأطر المعرفية والعلمية والموضوعية، وغالبية هؤلاء غير مختصين لا علمياً ولا شرعياً، فهم غير مؤهلين علمياً، كما أنهم غير مؤهلين شرعياً للحديث في مسائل عقائدية كتلك التي تحدثوا فيها نقداً للإمام ابن تيمية (رحمه الله)، بل إن أغلبهم لم يتجاوز علمياً مرحلة اللسانس، ولكنهم وضعوا لأنفسهم ألقاباً زائفة لن تستر جهلهم بحال من الأحوال.

لكن تُرى، ماذا كتب أولئك الخصوم في عريضة الدعوى، وما هي الاتهامات التي وجهوها إلى الإمام (رحمه الله).

(1) ابن تيمية، بيان الدليل، ج1، ص195.

ثانياً: نص الاتهام

ينبعث التساؤل الهام قبل جلسة الدفاع التى تحدث فيها الإمام ببراعة عن نص الاتهام الذى واجهه، عن بنود عريضة الدعوى المقامة ضده، والتى تلخصت اتهاماتها فى أربع نقاط رئيسية تتمثل فى التالى:

1 - نقد ابن تيمية للفلاسفة والمتكلمين:

وهى التهمة الأولى فى عريضة الدعوى قديماً وحديثاً، حيث اتهمه معاصروه بالإعلاء من السنة على حساب العقل وتالياً الانتقاص من قدر العقل وصده عن التأويل والتفكير وقطعه الطريق أمام الفلاسفة والمتكلمين، بل زاد البعض حديثاً اتهامه بالانتقاص من الإمام الأشعرى وأبو منصور الماتريدى وغيرهم من الأئمة العظام، وهذا كله دليل على نقص الفهم وسوء تأويل نصوص ابن تيمية وعدم فهم مفتاح شخصيته التى تحدثنا عنها، ذلك أن نقد ابن تيمية للفلاسفة والمتكلمين لم يكن إلا فيما ابتعدوا فيه عن القرآن والسنة لا أكثر، أما مباحثهم الإنسانية والعقلية فلم يعترض عليها، ولكنه فقط يعترض على مباحث الإلهيات اعتقاداً منه بأن كافة ما تشتهيه النفس من مباحث عقلية وغير عقلية هى مما حوته العلوم الشرعية، لذا نجد آرائه كافة مستمدة من تلك العلوم حتى علم السياسية أسماه «السياسة الشرعية» عملاً ويقيناً بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: 3].

والمنقب فى تراث الرجل يجد نقده لأى فرقة أو طائفة ينبعث من نصره للقرآن والسنة فقط، لا لغرض شخصى، ولا لمرض نفسى، ولا لشيء آخر

غير الانتصار للقرآن والسنة، فالعلوم الشرعية لا يصح الحديث عنها بغير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أما المتكلمين فقد أعطوا للعقل أهمية كبرى في التفسير والتأويل والمجادلة، وهذا ما يرفضه الإمام، لأن القرآن والسنة كافيان، بل وفيهما الزيادة لمن أراد، لذا يمكننا القول باطمئنان أن نقد الإمام للفلاسفة كان من جنس نقد الإمام الغزالي لهم، ولكن لم تقم الدنيا ضد الغزالي لأنه كان أقرب من ابن تيمية إلى التصوف، ولأن عصر الغزالي لم يكن ممتلئاً بالصراعات كعصر ابن تيمية، ثم أخيراً، لأن الغزالي لم تكن به حدة ابن تيمية، فلعل تلك الأسباب هي الأبرز والتي توضح مكنون التساؤل لماذا العداء لابن تيمية دون الغزالي مع أنها معاً وجهها للنقد للفلاسفة.

لكن قبل الغوص في أوجه النقد التي وجهها ابن تيمية للفلاسفة والمتكلمين، ينبغي الوقوف على نقطتين هامتين، الأولى تتمثل في خلطه الواضح بين الفلاسفة والمتكلمين وجمعهم في إطار واحد، حيث أنه يعتبر كل من يبتعد في دليله عن القرآن والسنة قد ضل الطريق القويم، والثانية ضرورة توضيح أسباب نشأة علم الكلام، حيث أنه لم ينشأ من فراغ، أو من لهو الحديث، أو لمجرد السفسطة كما يدعى البعض، ولكنه نشأ لعدة أسباب جوهرية تتمثل في التالي:

أ- استعمال القرآن الكريم للغة البيان والمجادلة والدفاع في العديد من المواطن مثل رده على المشركين في عدة مواقف منها ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجن: 24]، وردة على النصارى في قولهم بأن عيسى ابن الله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30]، فرد عليهم بقوله ﴿إِنْ مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ ﴿[آل عمران: 59]، ورده على الذين أنكروا الحشر﴾ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ تُعِيدُهُ. ﴿[الأنبياء: 104]، ثم استعماله للأمثلة﴾ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿[يس: 78 - 79] وغير ذلك من الآيات الكثيرة.

ب- استعمال الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لغة المجادلة مع أقوامهم والرد على ادعاءاتهم والتدليل على أن الله هو وحده القادر والخالق الذي يستحق العبادة، من ذلك مثلاً ما قصة القرآن من مجادلة الخليل إبراهيم مع ربه ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

وكذا استعمال الخليل إبراهيم للدليل العقلي في البرهنة على وجود الله ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ أَيْلٌ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآافِلِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 76 - 80]

ويمتلى القرآن بأمثال هذه النماذج.

ج- لعل الخلافات السياسية التي ابتلى بها الإسلام هي أحد الأسباب

الرئيسية التي أدت إلى ظهور علم الكلام ممثلاً في الفرق الكلامية كالخوارج والشيعة والأشعرية والمعتزلة وغيرهم، وحيث حاجة المؤمنين الصادقين إلى الدفاع عن الإسلام.

د- ازدياد الفتوحات الإسلامية والتقاء المسلمين بحضارات وديانات الأمم التي فتح بلادها الإسلام مما ترتب عليه صراعاً في العقائد والعادات.

هـ - حركة الترجمة التي بدأت في أواخر العصر الأموي وازدهرت في العصر العباسي وحيث انتقلت الفلسفة اليونانية إلى المسلمين مما أدى إلى انتشار الفرق الكلامية للدفاع عن العقيدة مستنديين في دفاعهم إلى المنطق وحجج الفلسفة.

تلك هي أبرز الأسباب التي أدت إلى ظهور علم الكلام، إذ لربما يكن بُد من ظهوره، بل إنه قام بدور لا يمكن نكرانه في وقت من الأوقات، حيث كان حائط الصد الأول أمام الهجمات الشرسة ضد العقيدة، خاصة تلك الفرق التي التزمت الكتاب والسنة وعلى رأسها الأشاعرة والماتريدية، أما تلك الفرق التي أنكرت بعض ما أقره القرآن وأشعلت الفتنة بدون وقود كالخوارج والطوائف الغلاة من الشيعة والجهمية، فهي فرق ساهمت بحق في وضع السيف على رقبة العقيدة لأنها أفسدت أكثر مما أصلحت، ولعل نقد الإمام ابن تيمية للفلاسفة والمتكلمين يرجع سببه الأول إلى هذه الفرق.

ومن ثمّ واجه الشيخ الإتهامات العديدة في هذا الإطار، فهناك من يرميه بمعادة الإسلام ذاته، من ذلك ما كتبه «اليماي الفخراني» حيث قال: «المطالع لما سطره ابن تيمية في مؤلفاته يجد بلا لبس أو غموض مدى سيطرة النزعة الفردية، ومدى ولعه بسلب الكرام وادعاء احتكار الحقيقة والفهم السديد

للإسلام، ويتجلى ذلك بوضوح في هجومه اللاذع ونقده الهدام لعلماء الكلام وأصول الدين، فنجد أنه لا يألو جهداً في النيل من المتكلمين والطقن في علم أصول الدين»⁽¹⁾، ويستمرئ الرجل إلقاء التهم جزافاً على الإمام دون فهم للنصوص أو حتى للتاريخ وظروف عصر الإمام فقال: «وهكذا يعتبر ابن تيمية مذهب هو الصواب الذي يلزم عنه تمام الدين وأمانة الرسول ﷺ في تبليغ الدعوة، ومذهب مخالف فيه من الأشاعرة والماتريدية وغيرهم هو الضلال الذي يلزم عنه نقصان الدين وعدم تمامه، وخيانة الرسول ﷺ ولا حول ولا قوة إلا بالله»⁽²⁾.

تلك هي الآفة الكبرى التي تمتع بها العرب عقوداً وقرونًا، الغلو في المدح، والفجر في الخصام، ولا أدري ألم يلتفت هؤلاء الذين اتهموا الشيخ بالعداء لكافة الفرق الكلامية والفلاسفة إلى أقواله المتناثرة عبر تراثه كله عن الإمام الأشعري خاصة وعن بعض قادة الرأي في الإسلام عامة، ألم يثنى الشيخ على الإمام الأشعري في تصديه لأهل البدع فقال: «ولا ريب أن للأشعري في الرد على أهل البدع كلاماً حسناً هو من الكلام المقبول الذي يُحمد قائله إذا أخلص فيه النية»⁽³⁾ ثم فصل هذا الإجمال شيئاً ما فقال «كان الأشعري لخبرته بأصول المعتزلة أظهر من تناقضها وفسادها ما قمع به المعتزلة وبما أظهره من تناقض المعتزلة والرافضة والفلاسفة ونحوهم صار له من الحرمة والقدر ما صار له»⁽⁴⁾.

(1) د. اليماني الفخراني، المتشابهات بين ابن تيمية الحارثي والقرضاوى والصفطاوى، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، القاهرة 2014م، ص 7.

(2) نفسه، ص 30.

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 31، ص 69.

(4) نفسه / ص 70.

وعندما تحدث الشيخ عن الصفات الإلهية أثنى على موقف الإمام الأشعري وقال «لكن الأشعري أعظم موافقة للإمام أحمد بن حنبل ومن قبله من الأئمة في القرآن والصفات»⁽¹⁾.

ثم جمع الشيخ في الثناء بين الأشعري والرازي والجويني فقال: «ما من هؤلاء إلا له في الإسلام مساع مشكورة وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع والانتصار الكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على من عرف أحوالهم وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وانصاف، لكن لما التبس عليهم هذا الأصل المأخوذ ابتداء عن المعتزلة وهم فضلاء عقلاء احتاجوا إلى طرده والتزام لوازمه، فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال ما أنكره المسلمون من أهل العلم والدين وصار الناس بسبب ذلك: منهم من يعظمهم لما لهم من المحاسن والفضائل، ومنهم من يذمهم لما وقع في كلامهم من البدع والباطل، وخيار الأمور أوسطها، والله تعالى يتقبل من جميع عباده المؤمنين الحسنات ويتجاوز لهم عن السيئات ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10]، ولا ريب أن من اجتهد في طلب الحق والدين من جهة الرسول ﷺ وأخطأ في بعض ذلك، فالله يغفر له خطأه تحقيقاً للدعاء الذي استجاب له الله لنبيه وللمؤمنين حيث قالوا ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286]⁽²⁾.

إذا كان ذلك ثناءً من الشيخ (رحمه الله) على المتكلمين واعترافه بفضلهم

(1) نفسه، ج 12، ص 72.

(2) ابن تيمية، درء تعارض العقق والنقل 1/ 283.

على الإسلام والذب عنه، فما هى أوجه النقد التى وجهها إلى الفلاسفة والمتكلمين.

لعل أبرز ما وجهه الإمام إليهم من نقد يتمثل فى أن علم الفلاسفة ناقص ومشوش ويتعد عن القرآن والسنة، ومن ثم فلا حاجة للمسلمين ولا فائدة فى أى علم يتعد عن القرآن والسنة، لذا نراه يقول «إن الأسباب التى يخلق الله بها الحوادث فى الأرض والسماء لا يحصيها إلا هو، أما أعيانها فلا ريب، وكذلك أنواعها أيضاً لا يضبطها المخلوق لسعة ملكوت الله سبحانه وتعالى، ولهذا كانت طريقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنهم يأمرؤن الخلق بما فيه صلاحهم، وينهؤنهم عما فيه فسادهم، ولا يشغلونهم بالكلام فى أسباب الكائنات كما تفعل المتفلسفة، فإن ذلك كثير التعب، قليل الفائدة أو موجب الضرر»⁽¹⁾.

ثم يقدم الإمام فروقاً نوعية بين النبى والفيلسوف فيقول: «ومثل النبى ﷺ مثل طبيب دخل على مريض فرأى مرضه فعلمه فقال له، اشرب كذا أو اجتنب كذا، ففعل ذلك، فحصل غرضه من الشفاء، والمتفلسف يطول معه الكلام فى سبب ذلك المرض وصفته وذمه وذم ما أوجبه، ولو قال له المريض: فما الذى يشفينى منه؟ لم يكن له بذلك علم تام.

على أن الكلام فى بيان تأثير بعض هذه الأسباب قد يكون فيه فتنة لمن ضعف عقله ودينه، بحيث يختلط عقله فيضله إذا لم يُرزق من العلم والإيمان ما يوجب له الهدى واليقين، ويكفى العاقل أن يعلم أن ما سوى

(1) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق د. ناصر بن عبد الكريم، مكتبة الرشد، ط 5، 1996م، ص 347.

المشروع لا يؤثر بحال، فلا منفعة فيه، أو أنه وإن أثر فضرره أكثر من نفعه»⁽¹⁾.

إذن علم الفلاسفة قاصر ومشوش، أما علوم الأنبياء فنافعة ذات غاية، ومن ثم فقد وجه الإمام إلى الفلاسفة عدة أوجه للنقد يمكننا إجمالها كالتالي:

1- لعل من أولى دعائم نقد الفلاسفة قولهم بأن السعادة تكمن في معرفة الحقائق، فيقول الإمام: «والمتفلسفة أسوأ حالاً من اليهود والنصارى، فإنهم جمعوا بين جهل هؤلاء وضلالهم، وبين فجور هؤلاء وظلمهم، فصار فيهم من الجهل والظلم ما ليس في اليهود ولا النصارى، حيث جعلوا السعادة في مجرد أن يعلموا الحقائق حتى يصير الإنسان عالماً معقولاً مطابقاً للعالم الموجود، ثم لم ينالوا من معرفة الله وأسمائه وصفاته وملائكته وكتبه ورسله وخلقهم وأمرهم إلا شيئاً نزريراً قليلاً، فكان جهلهم أعظم من علمهم، وضلالهم أكبر من هداهم، وكانوا مترددين بين الجهل البسيط والجهل المركب، فإن كلامهم في الطبيعيات والرياضيات لا يفيد كمال النفس وصلاحها، وإنما يحصل ذلك بالعلم الإلهي، وكلامهم فيه لحم جمل غث على رأس جبل وعر، لا سهل فيُرْتَقى، ولا سمين فينتقل»⁽²⁾.

2- استخدمهم لألفاظ لم يرد عليها دليل شرعي: «فمعلوم أن الألفاظ نوعان، لفظ ورد في الكتاب والسنة أو الإجماع، فهذا اللفظ يجب القول بموجبه، سواء فهمنا معناه أو لم نفهمه، لأن الرسول ﷺ لا يقول إلا حقاً، والأمة لا تجتمع على ضلالة.

(1) ابن تيمية، المصدر السابق، ص 347.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 7، ص 386.

والثاني: لفظ لم يرد به دليل شرعي، كهذه الألفاظ التي تنازع فيها أهل الكلام والفلسفة، هذا يقول: هو متحيز، وهذا يقول ليس بمتحيز، وهذا يقول هو في جهة، وهذا يقول ليس في جهة، وهذا يقول هو جسم أو جوهر، وهذا يقول ليس بجسم ولا جوهر، فهذه الألفاظ ليس على أحد أن يقول فيها بنفى ولا إثبات حتى يستفسر المتكلم بذلك فإن بين أنه أثبت حقاً أثبتته، وإن أثبت باطلاً رده، وإن نفى باطلاً نفاه، وإن نفى حقاً لم ينفه، وكثير من هؤلاء يجمعون في هذه الأسماء بين الحق والباطل في النفي والإثبات»⁽¹⁾.

3- نقدهم لطريقة السلف، وهو ما يعني قدهم في الشرع ذاته: «فإن هؤلاء المبتدعين الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ومن حذا حذوهم على طريقة السلف، إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث، من غير فقه لذلك، بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ﴾ [البقرة: 78] وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات، فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المخالفة التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر، وقد كذبوا على طريقة السلف وضلوا في تصويب طريقة الخلف، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف، وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص بالشبهات الفاسدة التي شاركوا فيها إخوانهم من الكافرين، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر، وكان مع ذلك لا بد للنصوص من معني، ظلوا

(1) ابن تيمية، المصدر السابق، ج 5، ص 191.

متريدين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى، وهى التى يسمونها طريقة السلف، وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع فيه تكلف، وهى التى يسمونها طريقة الخلف، فصار هذا الباطل مركباً من فساد العقل والكفر بالسمع، فإن النفى إنما اعتمدوا فيه على أمور عقلية، ظنوها بينات وهى شبهات، والسمع حرفوا فيه الكلم عن مواضعه»⁽¹⁾.

4- أصول الفلاسفة تناقض الحق: «ومشكلة الفلاسفة الرئيسية أنهم أعرضوا عما جاء به الرسول وقدموا استدلالاتهم عليه، فالرسول ﷺ بين الأصول الموصلة إلى الحق أحسن بيان، وبين الآيات الدالة على الخالق سبحانه وأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، ووحدانيتها على أحسن وجه، وأما أهل البدع من أهل الكلام والفلسفة ونحوهم، فهم لم يثبتوا الحق بل أصلوا أصولاً تناقض الحق، فلم يكفهم أنهم لم يهتدوا ولم يدلوا على الحق حتى أصلوا أصولاً تناقض الحق ورأوا أنها تناقض ما جاء به الرسول ﷺ فقدموها على ما جاء به الرسول»⁽²⁾ وفى ذلك فند كل دعاوى الفلاسفة وقال فى ذلك كلام كثير.

5- لعل الفلاسفة علمهم ناقص مقارنة بأهل العلم والحديث: «فأما ما أوتيهم علماء أهل الحديث وخواصهم من اليقين والمعرفة والهدى فأمر يحل عن الوصف، ولكن عند عوامهم من اليقين والعلم النافع ما لم يحصل منه شيء لأئمة المتفلسفة والمتكلمين، وهذا ظاهر مشهود لكل أحد»⁽³⁾.

(1) ابن تيمية، المصدر السابق، ج 5، ص 9 - 10.

(2) ابن تيمية، المصدر السابق، ج 16، ص 247 وما بعدها.

(3) ابن تيمية، نقض المنطق، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة. د. ت، ص 26.

أضف إلى ذلك سوء اعتقادهم بأن الأنبياء كتموا علمهم عن أقوامهم، وهذا قدح في سمو الرسالة وسمو الرسول، يقول الإمام: «الفارابي يقول إن خاصة النبوة جودة تخيل الأمور المعقولة في الصور المحسوسة، وابن سينا يذكر هذا المعنى في مواضع ويقول: ما كان يمكن موسى ابن عمران مع أولئك العبرانيين، ولا يمكن محمد مع أولئك العرب الجفاة، أن يبيننا لهم الحقائق على ما هي عليه، فإنهم كانوا يعجزون عن فهم ذلك، وإن فهموه على ما هو عليه انحلت عزماهم عن اتباعه، لأنهم لا يرون فيه من العلم ما يقتضى العمل»⁽¹⁾.

6- الغاية عند الفلاسفة الحسيات المحضة: «وأما المتفلسفة وأتباعهم، فغايتهن أن يستدلوا بما شاهدوه من الحسيات، ولا يعلمون ما وراء ذلك، مثل أن يعلموا أن البخار المتصاعد ينعقد سحاباً، وأن السحاب إذا اصطك حدث عنه صوت ونحو ذلك، لكن علمهم بهذا كعلمهم بأن المنى يصير في الرحم، لكن ما الموجب لأن يكون المنى المتشابه الأجزاء تخلق منه هذه الأعضاء المختلفة، والمنافع المختلفة على هذا الترتيب المحكم المتقن الذي فيه من الحكمة والرحمة ما بهر الأبواب»⁽²⁾.

7- لعل من أكبر الآفات تأثر الفلاسفة والمتكلمين بفلسفة اليونان القديمة، والتي بدت سوءاتها عند أغلبهم كالفارابي وإخوان الصفا وابن سينا، فكانت عاقبة هذا التأثير الإفراط في الحس والعقل، وبالقدر ذاته البعد عن الشرع: «وكذلك أبو نصر الفارابي دخل حران، وأخذ عن فلاسفة

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 4، ص 64.

(2) المصدر السابق، ج 6، ص 353.

الصبايين تمام فلسفته، وأخذها الجهم أيضاً لما ناظر «السمنية» بعض فلاسفة الهند - وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات - فهذه أسانيد جهم ترجع إلى اليهود والصبايين والمشركون، والفلاسفة الضالون هم إما من الصبايين وإما من المشركين.

ثم لما عُربت الكتب الرومية واليونانية، - في حدود المائة الثانية هجرية - زاد البلاء مع ما ألقى الشيطان في قلوب الضلال ابتداء من جنس ما ألقاه في قلوب أشباههم»⁽¹⁾.

تلك هي أوجه النقد التي وجهها الإمام ابن تيمية إلى الفلاسفة والمتكلمين، ليبقى التساؤل كما هو، ما أوجه المخالفة الشرعية أو العقلانية في هذه الأوجه؟ وهل أخطأ ابن تيمية (رحمه الله)؟ ثم هل يمكننا قراءة هذه المشاهد كلها من أول حرف خطه الشيخ إلى آخر حرف في كتبه في غير العصر الذي كتب فيه؟، هذه أسئلة يجيب عنها كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، خاصة أن الشيخ (رحمه الله) لم يقدح في العلوم العقلية، وإنما تمثل نقده فقط فيما يخص العقيدة، لذا رأيناه يقول عن أرسطو وأتباعه «لهم في الطبيعيات كلام غالبه جيد، ولهم عقول عرفوا بها ذلك، وهم يقصدون الحق، ولا يظهر عليهم العناد، لكنهم جهال بالعلم الإلهي، ليس عندهم منه إلا القليل»⁽²⁾.

ولعل هذا النص يبين صحة ما اقتنعت به نفسي، أن الإمام لم يكن ينقد أحداً كائناً من كان إلا إذا ابتعد عن العقيدة الصحيحة، ومصدرها كتاب

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 5، ص 19.

(2) نفسه، ج 17، ص 462.

الله وسنة رسوله ﷺ، أما الأئمة العظام الذين قصدوا الدفاع عن الدين فلمهم عنده مكانة كبرى لا ينكرها إلا مفتعلاً للمشكلات وباحثاً عن مجد زائف أو غنيمة عاجلة.

تُرى، هل في هذا الإتهام الأول قديماً وحديثاً ما يعيب الرجل؟! وهل يصلح هذا الإتهام لتقديم الشيخ إلى المحاكمة قديماً وحديثاً؟!

2- مشكلة التجسيم:

وهي مشكلة محدثة ابتكرها المحدثون ولم تكن ضمن بنود عريضة الإتهام التي ساقها القدماء ضد الإمام ابن تيمية (رحمه الله)، ولكنها من ابداع وإخراج المحدثين الذين يبحثون عن ثغرات ضئيلة ليصنعوا منها فتنة كبيرة، وكانهم أقسموا على هدم تراث الرجل كله.

وتتلخص هذه المشكلة في مسألة الأسماء والصفات، مثل ألفاظ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5]، وهي مسألة اجتهادية تماماً كل يأخذها بفهمه، دون أن يصل الأمر إلى حد تكفير أحد المختلفين معك في فهمك، فأمثال هذه الآيات حملها البعض على ظاهرها دون تأويل أو تشبيه أو تعطيل، في إطار قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، وهذا مذهب الإمام ابن تيمية، ومنهم من أول هذه الآيات وحملها على غير ظاهرها كبعض المفسرين الذين أولوا اليد بالجود والكرم، ومقاليد السموات والأرض بملكهما وغير ذلك.

أما ابن تيمية فيتلخص رأيه في تلك القضية التي ألفت فيها كتب لا حصر لها في فقرة واحدة يقول فيها: «المفهوم أن لله تعالى يدان مختصتان به ذاتيتان

له كما يليق بجلاله وأنه سبحانه خلق آدم بيده دون الملائكة وإبليس، وأنه سبحانه يقبض الأرض ويطوى السموات بيمينه وأن يده مبسوطتان ومعنى بسطهما بذل الجود وسعة العطاء لأن الإعطاء والجود في الغالب يكون ببسط اليد ومدّها، وتركه يكون ضمّاً لليد إلى العنق صار من الحقائق العرفية إذا قيل هو مبسوط اليد فهم منه يد حقيقية وكان ظاهره الجود والبخل كما قال تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: 29] (1).

ففي هذا النص يؤكد ابن تيمية ما أكده القرآن من وجود يد لله سبحانه، وأول الآية التي ذكرها بالجود والبخل، فهو إذن يثبت اليد ويثبت التأويل الأقرب للعقل، مع عدم الإخلال بكونه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فهو سبحانه وإن كان سميعاً بصيراً إلا أنه ليس كسمعنا وبصرنا، بل ليس له سبحانه مثيل.

هذا هو فهم الرجل، وهذا هو مذهبه، فهل في هذا ما يخالف العقيدة؟

إن الإمام عليّ (كرم الله وجهه) نفى الحد والكيف والأين تنزيهاً لله، فقال: «من وصفه فقد حده، ومن حده فقد عده، ومن عده فقد أبطل أزلّه، ومن قال كيف فقد استوصفه، ومن قال أين فقد حيزه» (2).

هذا الجواب محمول على التنزيه الكامل والمطلق للذات الإلهية، دون وصف ودون تحديد أو تمثيل أو تشبيه أو تجسيم، وهي تقريباً عقيدة الجمع الأعظم من أئمة الإسلام فلما سئل الإمام مالك (رحمه الله) عن الاستواء قال

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 14، ص 172.

(2) نهج البلاغة للإمام عليّ، جمع الشريف الرضي، شرح الإمام محمد عبده، تقديم د. مصطفى لبيب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د.ت، 2/ 40.

«الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة»، ثم سئل الإمام أحمد أيام المحنة عن أحاديث النزول والرؤية ووضع القدم فقال «نؤمن بها ونصدق ولا كيف ولا معنى» وسئل عن الاستواء فقال «استوى على العرش كيف شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف»، وهذا تفويض وتنزيه ليس فيه تخريح للفظ على الظاهر أو غير الظاهر⁽¹⁾.

ويذهب الإمام الأشعري أيضاً إلى أن لله يدين بلا كيف أو تمثيل فيقول «وإن الله تعالى على عرشه كما قال ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5]، وأن له يدين بلا كيف»⁽²⁾.

إذن، التساؤل الآن ما هي المخالفة في هذا الاعتقاد؟ وهل تعدى ابن تيمية حدود العقيدة في شيء؟ بل هل تعد هذه القضية التي هي قضية اجتهاد بالأساس يُقبل فيها كل رأى مع مراعاة التنزيه في اطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ من القضايا التي يمكن أن نكفر بها أحد أو نرميه بالفسوق ومخالفة إجماع الأمة.

إنه للهراء والحسد الذي يأكل القلوب لا أكثر، يغذيه ضالة العلم وقلة البصاعة وسوء النية، لكن في النهاية يبقى الأمل كله في الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: 38].

3- العداء للتصوف:

أشيع عن الرجل عدائه للتصوف قديماً وحديثاً، وهذه الشائعة لها مصدرها حقيقة في تراث الإمام، حيث تحدث أحياناً عن بعض الفرق الصوفية بما لا

(1) عبد الرحمن الشرقاوى، المرجع السابق، ص 183.

(2) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص 290.

يليق، واتهمهم أحيانا بمجالسة الشياطين والخمور وغير ذلك من أفعال لا يقرها الشرع، ولكن هذا كله لم يكن نقداً للتصوف الحق، بل كان نقداً للمتمسحين بالتصوف الحقيقي، أو لمرتزقة الصوفية الذين لا يعلمون عن التصوف الحقيقي أى شئ.

وعلى من يريد رفع تهمة على أحد، أن يفند آرائه أولاً ليرى هل هي مخالفة للشرع أم منبثقة من ثنايا عقده الكريم، ليتأكد صاحب الدعوى من موقفه قبل رفعها، وقبل اتهام الناس بالباطل، وصدق العزيز العليم ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: 6].

لقد أثبت حول الإمام تهمة عداؤه للتصوف، ومصدرها عاملين اثنين فقط، يتلخصان في سوء الفهم سواء من القدماء أو من المحدثين ويأتى العامل الأول من الإمام نفسه فالإمام رحمه الله كان ضد بناء المساجد على قبور الأولياء سداً للذريعة أمام الإشراف بالله والتمسح بالأضرحة ودعائها من دون الله والذبح والنذر لها وغير ذلك من أعمال شركية حقاً لا تستقيم مع العقيدة ولا يُقرها دين، واستخدم في تنقية العقيدة من تلك الشوائب أحاديث صحيحة، حيث نهى النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد في أكثر من نص، منها قوله ﷺ: «إِنْ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِلَّا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ فإني أنهاكم عن ذلك»⁽¹⁾.

وكذا قوله ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ

(1) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، حديث رقم 532.

مساجد» قالت عائشة «ولولا ذلك لأبرز قبره ﷺ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً»⁽¹⁾.

ويعلق الإمام ابن تيمية على هذا الحديث بقوله: «والمقصود أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يبنوا قط على قبر نبي ولا رجل صالح مسجداً ولا جعلوه مشهداً أو مزاراً ولا على شيء من آثار الأنبياء، مثل مكان نزل فيه أو صلى أو فعل شيئاً من ذلك، لم يكونوا يقصدون الصلاة في مكان لم يقصد الرسول ﷺ الصلاة فيه»⁽²⁾.

أيضاً يأخذ الإمام ابن تيمية على بعض أهل التصوف مغالاتهم في حرمان أنفسهم من طيبات ما أحل الله لعباده، فهذا من الغلو المنهى عنه، لذا نراه يقول: «والذين يُحرمون ما أحل الله من الطيبات وإن كانوا يقولون إن الله لم يُحرم هذا بل يلتزمون ألا يفعلوه إما بالنذر وإما باليمين، كما حرم كثير من العباد والزهاد أشياء، يقول أحدهم، لله على ألا أكل طعاماً بالنهار أبداً، وهذا يلتزم ألا يتكلم قط، وهذا يلتزم ألا ينكح ولا يذبح وأنواع هذه الأشياء من الرهبانية التي ابتدعوها على سبيل مجاهدة النفس وقهر الهوى والشهوة ولا ريب أن مجاهدة النفس مأمور بها، وكذلك قهر الهوى والشهوة كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى»⁽³⁾ لكن المسلم المتبع لشرعة الإسلام هو المحرم ما

(1) نفسه حديث رقم 529.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج17، ص281.

(3) رواه أحمد في مسنده، ج2، 4/124.

حرّمه الله ورسوله، فلا يُحرم الحلال ولا يُسرف في تناوله بل يتناول ما يحتاج إليه من طعام أو لباس أو نكاح، ويقتصد في ذلك، ويقتصد في العبادة، فلا يُحمل نفسه ما لا يطيق»⁽¹⁾.

هذه بعض أوجه النقد التي وجهها الإمام (رحمه الله) إلى بعض أهل التصوف، فهل فيها ما يخالف الشرع أم أنها تعتمد في أصلها وتقوم في جوهرها على الشرع!!

ثمة نقد آخر وجهه الشيخ إلى محيي الدين ابن عربي كونه يتحدث بأحاديث غامضة، إلا أنه عاد عن ذلك بعد أن بان له مقصوده، ومن أمثلة ذلك ما أنشده الشيخ محيي الدين بن عربي.

يا من يراني ولا أراه كم ذا أراه ولا يراني

فقاطعه أحد الحاضرين معترضاً، كيف تقول إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك؟ فرد قائلاً:

يا من يراني مجرمًا ولا أراه آخذًا
كم ذا أراه منعماً ولا يراني لائذاً

هذا هو العامل الأول المتسبب في السمعة السيئة التي لحقت بالإمام ابن تيمية في عداؤه للتصوف، والتي تتلخص في سوء فهم معاصريه، كون الرجل لم يخرج عن حدود ما قاله الله، وما قال نبيه ﷺ.

أما العامل الثاني فيتمثل في سوء فهم المحدثين والذين هم من الأتباع

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج6، ص126.

الذين لا أشك في إخلاصهم، فقط ينقصهم فهم تراث الرجل بأكمله، وفهم مفتاح شخصيته وجبلته التي فُطر عليها حتى يستطيعوا في النهاية تكوين رأياً إجمالياً صحيحاً عن الرجل، حيث أنهم بوضعهم سياجاً حول الرجل يكون بمثابة حصن يمنع الاقتراب منه، وبسوء فهمهم هم لمقاصد الرجل فقد أشعلوا نار الفتنة النائمة وألصقوا بالرجل تهماً هو برئ تماماً منها، بل ساعدوا الآخرين من المرتزقة على تثبيت تلك التهم على الإمام (رحمه الله)، من ذلك ما كتبه محقق رسالة الإمام ابن تيمية المعنونة بـ «الصوفية والفقراء»⁽¹⁾ في أول مقدمته: «لا يا شيخ الإسلام، لا أقول إن ابن تيمية (رحمه الله) قد استوفى موضوع رسالته هذه بحثاً ودراسة وتحقيقاً كما عهدناه دائماً في بحوثه ودراساته التي يتوافر عليها، ولعل ذلك راجع إلى ظروف معينة كان يعيشها الشيخ وهو يكتب هذه الرسالة، واستند الرجل في تبريره هذا الرأي إلى قول للإمام في آخر الرسالة حيث قال «وهذا الجواب فيه جُمْل تحتاج إلى تفصيل لم يتسع له هذا الموضع»⁽²⁾.

وكان مقدم الرسالة بهذا الكلام يوحى إلى القارئ أن الإمام (رحمه الله) كتب هذه الرسالة تحت ضغوط ومخاوف لا نعلم مصدرها، ويريد أن يُصدّر لنا مشهد خوف لرجل لا يخاف، ذالكم الرجل الذي واجه التتار حرباً وسلماً، وواجه الملوك والسلاطين جهاداً بقول الحق دون أن يخش في الله لومة لائم، يريد هنا مقدم الرسالة خائفاً مذعوراً يكتب تحت ضغط، أي ضغط هذا؟ لا أدري، ومن الضاغطة؟ أسئلة يجيب عنها موحياً فقط.

(1) وهي منشورة كملحق لهذا الكتاب.

(2) ابن تيمية، الصوفية والفقراء، تقديم د. محمد جميل غازي، مكتبة المدني، جدة، د.ت،

لقد ساهمت هاتان الجبهتان في سوء سمعة الإمام ابن تيمية مع التصوف، فصنعوا عداوة مزيفة لا أصل لها ولا فرع، مستندين إلى أحاديثه التي هاجم فيها غلاة التصوف و متمسحيه، فجعلوا منه عدواً للتصوف كعلم وكذوق وكتجربة، وهو ما ينافي الحقيقة تماماً، تلك الحقيقة التي سنتحدث عنها في دفاع الإمام (رحمه الله) في الفصل القادم.

4- صراع العقل والنقل؛

وهي التهمة الرابعة في عريضة الدعوى ضد الإمام قديماً وحديثاً، فالقدماء اتهموه بالمغالاة في اتباع السنة على حساب العقل واتباع القرآن على حساب التأويل العقلي أيضاً، والمحدثون اتهموه بإهدار متعمد للعقل وإهمال تام للمسائل والقضايا العقلية. والعقل لغة من عقل البعير عقلاً أى شد عليه الحبل⁽¹⁾، والعقل مقصوده العلم بصفات الأشياء من حسن وقبيح، أو كمال ونقصان أو العلم بخير الخيرين، وشر الشرين⁽²⁾.

وقد ذكر الله معنى العقل وليس لفظه في عدة مواضع في القرآن الكريم، فكثيراً ما تجد نهايات الآيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾، ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وغير ذلك من آيات تدور في فلك المعنى، ولعل السر الإلهي الذي يكمن خلف عدم ذكر الله للفظ العقل صريحاً لئلا يُفتن الناس به ويقدمونه على الوحي .

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج11، دار صادر، بيروت، سنة 1375هـ، ص458.

(2) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج4، دار الجيل، بيروت، ص19.

ويعرف الإمام ابن تيمية العقل بقوله: "وأما العقل في لغة المسلمين فهو مصدر عقل يعقل عقلاً، وهو صفة تقوم بالعقل، فسماه من باب الأعراض لا الجواهر القائمة بذاتها ولم يرد في كلام الله ورسوله ﷺ إلا بهذا المعنى كما في قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 73]، وقوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: 46]، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 118]، وقد يراد بها الغريزة نفسها الموجودة في الإنسان والتي بها يستطيع أن يميز بين النافع والضار ويكتسب العلم وقد ورد في كلام الإمام أحمد بن حنبل والحرث والمحاسبى وغيرهما أن العقل غريزة، وهى كذلك عند جمهور العقلاء، فإن العقل قوة ثابتة في الإنسان كما أن البصر قوة العين والذوق قوة في اللسان واللمس قوة في الجلد»⁽¹⁾.

ومع كون العقل نعمة كبرى كونه وسيلة إدراك النعم، إلا أن بعض الفرق الكلامية قد غالت في تقديمه على النص، بل وفي تقديسه لذاته، مثل المعتزلة الذين أولوا كل نص بعقل قاصر عن بلوغ مراد النص، فجعلوا من العقل فيصلاً في شتى أمور الإيمان والعقيدة لدرجة جعلت بشر بن المعتز وهو أحد أقطاب المعتزلة يقول عن العقل:

لله در العقل من رائد	صاحب في العسر واليسر
وحاكم يقضى على غائب	قضية الشاهد للأمر
وإن شيئاً بعض أفعاله	أن يفصل الخير من الشر
لذوق قوى، قد خصه ربه	بخالص التقديس والطهر ⁽²⁾

(1) ابن تيمية، الرد على المنطقيين، ط 3، باكستان 1976م، ص 196.

(2) كتاب الحيوان للجاحظ، ج 6، ص 65، نقلاً عن د. محمد يوسف موسى ص 131.

فهؤلاء يغالون في تقديس العقل، والإمام ضد تقديس العقل لهذه الدرجة لسبب واحد ووحيد فقط، وهو ألا يركن الجمهور إلى العقل والرأى والقياس ويتركوا القرآن والسنة، ذاك هو السبب الذي يفتح لنا فهم ما أُغلق في تراث الرجل بأكمله، حيث تقديمه للقرآن والسنة على كل شيء.

لكن يأبى القوم إلا جعله عدواً للعقل منذ أول صفحة في أعمالهم، ولك أن تقرأ إهداء الكتاب الذي ألفه «رائد السمهوري» حيث جاء فيه: «إلى الذين يحملون ما أحمل من الهم والقلق من أجل نهضة هذه الأمة.. إلى الذين تحررت عقولهم من قيود التقليد والتبعية، وقلوبهم من سطوة الوهم والخرافة، وضمايرهم من سلطان تقديس الأشخاص وأفهام البشر.. إلى الذين يعرفون للعقل موضعه وللإنسانية كرامتها، وللإسلام معناه.. أهدى هذا الجهد المتواضع»⁽¹⁾

منذ أول لحظة والكاتب يُصدر مشهد تعدي ابن تيمية على سلطان العقل وعدم احترامه له، وتالياً يخاطب أولئك الذين يقدسون العقل، يناديهم بالتححرر من سلطان الموروث وهو التراث بما فيه كتب الإمام ابن تيمية، وكأنه يُصدر مشهد الصدام والعداء منذ البداية مع الإمام، محكمة من طرف واحد، مع الأخذ في الاعتبار أن هذا كله ليس ضد ابن تيمية، ولكن عقله فقط هو الذي صدر له هذا العداء المصطنع كبيت العنكبوت، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو أنهم يعلمون، لأن ابن تيمية لم يكن ضد العقل، ولأن تراثه ليس به ما يشينه وتالياً فالتحرر من التقليد لابن تيمية مطلوب بحكم أعمال العقل وفقه الواقع وتجديد روافد هذا الدين، ولكن السخرية

(1) رائد السمهوري، المرجع السابق، ص 7.

من التراث هي فقط ما تشين أى دعوة من هذا النوع، ولو قرأ المؤلف إنتاج الإمام بحيادية وموضوعية ودون تعصب مسبق وشحن عاطفى ضد الرجل، لعلم أنه (رحمه الله) أحق الناس بهذا الإهداء.

ولكنه «رائد السمهورى» يأبى إلا قذف الإمام بالبعد عن العقل، وكأن الحفاظ على السنة واتباعها مناف للعقل.... هكذا يفهم.... وهكذا يظن.... لذا نراه آخذاً على الإمام (رحمه الله) تقديمه للنص على العقل فيقول فى صراحة منقطعة النظر: «غير أن شيخ الإسلام - مع قطعه بأن العقل لا يخالف النقل - يقرر بوضوح أن مصدر التلقى الأول هو كتاب الله، ثم سنة رسول الله ﷺ ثم الإجماع، وهذا بعكس بعض علماء الكلام الذين يجعلون الدليل الأول هو العقل فالكتاب فالسنة فالإجماع» ثم يكمل المؤلف حديثه بالقول «وتقديم المتكلمين للعقل هنا إنما هو تقديم طبيعى تقتضيه طبيعة الأشياء» ثم يؤكد ذات المعنى بقوله «والوعى بكل تلك الأمور وحقائق الأشياء ابتداء هو حالة عقلية فالعقل مقدم شئنا أم أبينا، فالكتاب يكون مدلولاً عليه بادئ ذى بدء، والذى يدل عليه هو العقل، وإذن فالطبيعى هو أن يكون العقل مقدماً فى الدلالة، ثم إذا عرف العقل أن الكتاب هو من عند الله، جعله دليلاً يسير مع العقل جنباً إلى جنب»⁽¹⁾ بالله عليكم هل يسبق العقل الشرع فى الدلالة؟! أى منطق هذا؟

ثم هل يكون مقصود الكاتب أن الشرع لا يفهم إلا بالعقل؟! إذن فأين الجديد؟ وأين المشكلة عند ابن تيمية التى تنور ثائرة هؤلاء وأمثالهم عليها؟ هل نفى الإمام ابن تيمية الصلة بين العقل والشرع؟ وهل نفى أن الشرع يفهم

(1) نفسه، ص 173.

بالعقل؟! إنها مجرد السفسطة لا أكثر، محاولة إثبات الذات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج، ظلمات بعضها فوق بعض...

إن هؤلاء يثبتون بما لا يدع مجالاً للشك إفلاسهم الفكري والمعرفي، بل والضمايرى أيضاً، لأنهم لم يقرئوا تراث الرجل.

لكن الحقيقة التي لا خلاف عليها أن الرجل يقدر للعقل دوره فنجده كثيراً ما يكرر قولاً يعطى للعقل أهميته ويبين ميزته كأن يقول: «ولكن مع كون أحد من العقلاء لم يعلم أنه قال هذا ومع كون نقيضه مما يُعلم بالسمع فنحن نذكر دلالة العقل على فساد»⁽¹⁾ وكأن يقول: «الأدلة العقلية دلت على امتناع اتصافه سبحانه بالنقائص والقبائح»⁽²⁾.

ويمتلي كتابيه «منهاج السنة» و«الرد على المنطقيين» بمثل هذه العبارات التي تؤكد اعتماده على العقل في فهم النص وفي التدليل عليه وفي قبول أو رفض حجج الشيعة والمخالفين للكتاب والسنة، ومن ذلك ما ورد على لسانه في مجادلته للشيعة بالعقل حيث قال في الرد على قضية العصمة، وهي نموذج مما دار في رفع الشبه الكثيرة عن هذا الدين: «إنهم يدعون أن العصمة لم تدع لأحد بعد النبي ﷺ إلا لعل، فتعين أن يكون هو إياه للإجماع على انتفاء النوبة إلى المنتظر محمد بن الحسن صاحب السرداب الغائب فاعترف أن هذا تقرير مذهبهم على غاية الكمال، قلت له فأنا وأنت طالبان للعلم والحق والهدى، وهم يقولون من لم يؤمن بالمنتظر فهو كافر، فهذا المنتظر

(1) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط 1، 1986م، ج 2، ص 50.

(2) ابن تيمية، منهاج السنة، ج 2، ص 45.

هل رأيت أو رأيت من رآه أو سمعت بخبره أو تعرف شيئاً من كلامه الذى قاله هو أو ما أمر به أو ما نهى عنه مأخوذاً عنه كما يؤخذ من الأئمة، قال لا، قلت فأى فائدة فى إيماننا هذا وأى لطف يحصل لنا بهذا ثم كيف يجوز أن يكلفنا الله تعالى بطاعة شخص ونحن لا نعلم ما يأمرنا به ولا ما ينهانا عنه ولا طريق لنا إلى معرفة ذلك بوجه من الوجوه»⁽¹⁾.

وكثيراً ما يستخدم معهم الإمام ابن تيمية هذا الجدل العقلى فيفند دعواهم بالعقل، ويستخدم المنهج التحليلى فى هذا التفنيد، ثم يقحمهم بالأدلة العقلية على بطلان ما ذهبوا إليه وما اعتقدوه، ليس هذا فقط، بل إنه (رحمه الله) فى العديد من فتاويه يرجع إلى العقل والدليل العقلى، ومن ذلك النمط من الفتوى مثلاً عندما أفتى العاشق الذى يحد فى قلبه شيء تجاه امرأة بأن يبعد عن مسكنها والاجتماع بمن يجتمع بها بحيث لا يقع لها على عين ولا أثر لأن البعد جفاً، ومتى قل الذكر ضعف الأثر فى القلب»⁽²⁾.

لهذه الدلائل كلها يمكننا القول باطمئنان أن الإمام ابن تيمية لم يكن ضد العقل أبداً، ولم يستبعده من منهجه، بل العكس تماماً هو الصحيح، لكن يبقى السؤال، إذا كان الإمام (رحمه الله) لم يستبعد العقل، فما هو مكانة العقل فى منهجه؟ وهل ثمة تعارض بين العقل والنقل فى منهج الإمام ابن تيمية؟ لقد شغلت هذه القضية الإمام ابن تيمية كثيراً، واستولت على نصيب عظيم من تراثه العظيم، وكانت مسوغاً عند مرجفى القلوب ومرضى الأفئدة للطعن فيه، إلا أن الله دوماً يسخر لهذا الدين من يذب عنه بالعقل والفكر،

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 24.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 32، ص 7.

بل وبالروح إن تطلب الأمر، فكان لابد من إعطاء هذه القضية أهميتها في هذه الدراسة لرفع شبه هؤلاء المتأولين.

لقد اعتمد الإمام (رحمه الله) على العقل إذ هو باب العلم بالشرع فيقول: «إن الشرع المنزل من عند الله ثابت في نفسه سواء علمناه بعقولنا أو لم نعلمه وهو مستغن في نفسه عن علمنا وعقلنا ولكن نحن محتاجون إليه وإلى أن نعلمه بعقولنا، فإن العقل إذا علم ما هو عليه الشرع في نفسه صار عالماً به وبما تضمنه من الأمور التي يحتاج إليها في دنياه وآخرته وانتفع بعلمه به وأعطاه ذلك صفة لم تكن له قبل ذلك ولو لم يعلمه لكان جاهلاً ناقصاً»⁽¹⁾، أضف إلى ذلك أن السمعية مملوءة من إثبات الصانع وقدرته وتصديق رسوله، ليس فيها ما يناقض هذه الأصول العقلية التي بها يُعلم السمع، بل الذي في السمع يوافق هذه الأصول، بل السمع فيه من بيان الأدلة العقلية على إثبات الصانع ودلائل ربوبيته وقدرته وبيان آيات الرسول ودلائل صدقه أضعاف ما يوجد في كلام النظار فليس فيه ولله الحمد ما يناقض الأدلة العقلية التي بها يعلم صدق الرسول ما لا يناقض شيئاً من السمعية⁽²⁾، وذلك ما يؤكده الدكتور يوسف البدوي بقوله: «إن جل وأعظم ما توصل إليه شيخ الإسلام ابن تيمية في كل ما كتب وألف أن صريح المعقول لا يخالف صحيح المنقول، بل يوافقه، حتى إن هذا جعله عنواناً لأحد كتبه وهو «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول»⁽³⁾.

(1) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل بهامش كتاب منهاج السنة النبوية، طبعة بيروت، ج1، ص47.

(2) المصدر السابق، ج1، ص49.

(3) د. يوسف البدوي، مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، ص480.

ولعل بعضهم وللأسف لا يفهم منهج ابن تيمية ويُعده منهجاً معتمداً جل الاعتماد على النص، وأنه أهمل العقل في منهجه ومؤلفاته ودراساته، وهذا خطأ صريح وقع ويقع فيه دارسو ابن تيمية⁽¹⁾ ولعل الحقيقة في منهجية هذا الفكر تكمن في انطلاقه من نقطتين أساسيتين هما، النقل الصحيح، والعقل الصريح⁽²⁾.

إن الدين الإسلامي الحنيف يحث على استعمال العقل ولا ينفيه، والقرآن يدعو إلى ذلك صراحة، يقول الدكتور عبد الفتاح سلامة ما نصه: «العقل هو تلك الجوهرة الفريدة والدرة الثمينة التي تفرد بها الإنسان، ذلك الكائن العجيب عمن عداه، وتميز بها ابن آدم عمن سواه، وبتركيبها فيه أصبح يمثل عالماً مستقلاً في كون الله الكبير له جوانبه الباهرة وإبداعاته الرائعة..

وإذا كان القرآن المجيد هو صاحب أول دعوة عملاقة كبيرة إلى النظر في جنبات ملكوت الله الشامخ والتغلغل في أعماق أعماقه، لاستنباط أسرارهِ، والوقوف على نواصيه، فإنه وهو كتاب ربنا ومعجزة نبينا يخاطب العقل الإنساني، ويتوجه إليه في احترام وتقديس أن يعرف مكانته اللائقة به، ويدرك وضعه الصحيح الذي اختارته له العناية الإلهية، وباركته له السماء، وهو وضع القيادة والزعامة والهيمنة والاستعلاء والإبداع والاستكشاف، والتخليق والصعود، وبذلك يصل العقل إلى مستواه الرفيع ومبلغ غايته

(1) وإن كنت أختلف مع الدكتور يوسف البدوي، فهذا الخطأ لم يقع فيه دارسو ابن تيمية ولكن تأوله وافتراه عليه بعضاً من أعداء الإسلام الذين أشهروا سيف السموم في وجه كل ما هو إسلامي.

(2) د. يوسف أحمد البدوي، مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، دار النفائس، الأردن، ص 41.

المنشودة، ويعرج إلى مرحلة الكمالات، ويتنسم ذروة الإشراقات فيصبح حرياً بأن يتلقى عن ربه الفيوضات، هابطة عليه من عالم العلويات»⁽¹⁾.

ويسير الدكتور السيد عبد الرحمن في ذات الاتجاه مؤكداً على الاتصال بين العقل والنص قائلاً: «لقد كان الأوائل من السلف الصالح يعتمدون في تأكيدهم على عقائدهم المتصلة بوجود الله وصفاته على أدلة النقل والعقل معاً، ويستخدمون الدليل العقلي حين يسمح الأمر باستخدامه، ويستخدمون الدليل العقلي حين يقتضى الأمر استخدامه، ويمزجون بين الدليلين بلا أدنى تحفظ، حيث لم يكن ذلك محدثاً لهم أياً من أنواع الحرج الشرعي، إذ أن الشرع قد دعا إلى النظر العقلي والتأمل واستخدام الأدلة العقلية إلى جانب الأدلة الشرعية»⁽²⁾.

ولهذه المكانة الكبرى للعقل في الإسلام فقد أفرد الإمام ابن تيمية (رحمه الله) العديد من الدلائل على ذاك التكامل بين العقل والنقل، هذا التكامل الذي هو صنيعة الشرع بالأساس، ويمكننا الوقوف على عدة أدلة إجمالاً لا حصر، من ذلك:

1- يذهب الإمام إلى تأكيد هذا التكامل لأن صريح المنقول لا يعارض صريح المعقول فيقول: «المنقول الصحيح لا يعارض معقول صريح قط، وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه فوجدت ما خالف النصوص

(1) د. عبد الفتاح سلامة، ميزان العقل، مقال منشور بمجلة منبر الإسلام، العدد 53 فبراير 1978م، ص 54.

(2) د. السيد عبد الرحمن، مشكلة الدور في منهج المتكلمين، دار شعاع للطباعة والنشر، المنصورة، 2010م، ص 3.

الصحيحة الصريحة، شبهات فاسدة يُعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع، وهذا ما تأملته في مسائل الأصول الكبار كمسائل التوحيد والصفات ومسائل القدر والنبوت والمعاد وغير ذلك، فوجدت ما يُعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذي يقال أنه يخالف إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارض العقل الصريح فكيف إذا خالفه صريح المعقول»⁽¹⁾.

فهو هنا يؤكد أن العقل لا يخالف ما جاء به السمع الصحيح، ثم يزيد الأمر وضوحاً بقوله: «والعقل الصريح دائماً موافق للرسول ﷺ لا يخالفه قط، فإن الميزان مع الكتاب، والله أنزل الكتاب بالحق والميزان، لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ما جاء به، فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه، لا بما يعلمون بعقولهم بطلانه، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم، تخبر بمحارات العقول لا تخبر بمحالات العقول، فهذا سبيل الهدى والسنة والعلم، وأما سبيل الضلال والبدعة والجهل فعكس ذلك أن يتدع بدعة برأى رجال وتأويلاتهم ثم يجعل ما جاء به الرسول ﷺ تبعاً لها، ويحرف ألفاظه، ويتأول على وفق ما أصلوه»⁽²⁾ ثم إن الأدلة العقلية تتفق دوماً مع مذهب أهل السلف وأئمة الحديث: «إن الأدلة العقلية الصريحة موافقة لمذهب السلف وأهل الحديث، وعلى ذلك يدل الكتاب والسنة مع الكتب المتقدمة، التوراة والإنجيل والزبور، قد اتفق عليها نصوص الأنبياء وأقوال السلف وأئمة العلماء، ودلت عليها صرائح

(1) ابن تيمية، بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول على هامش منهاج السنة، طبعة دار الفكر، بيروت، سنة 1321هـ، ج 1، ص 86.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ج 17، ص 268.

المعقولات، والمخالف فيها كالمخالف في أمثالها من ليس معه حجة لاسمعية ولا عقلية، بل هو شبيه بالذين قالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 10]، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]»⁽¹⁾.

إذن السنة تؤيد العقل ولا تضاده ولا تنفيه، وهو ما أكدته الإمام (رحمه الله).

2- يؤكد الإمام ابن تيمية على أن القدح في العقل هو قدح في السنة ذاتها فيقول: «لما كان مراد الرسول ﷺ لا يتم إلا بدفع المعارض العقلي وامتناع تقديم ذلك على نصوص الأنبياء بينا فساد القانون الفاسد الذي صدوا به الناس عن سبيل الله، وعن فهم مراد الرسول ﷺ وتصديقه فيما أخبر به إذا كان أي دليل أقيم على بيان مراد الرسول لا ينفع إذا قدر أن المعارض العقلي ناقضه بل يصير ذلك قدحاً في الرسول ﷺ وقدحاً فيمن استدل بكلامه»⁽²⁾ ومراد الإمام من ذلك أن يتحرك العقل في ركاب الشرع، فالعقل بمفرده قاصر عن إدراك الحقائق، وتالياً لا بد من نص يهدي للعقل⁽³⁾.

3- يذهب الإمام ابن تيمية إلى أن الشرع يفسد إذا فسد فهم العقل فيقول: «والقول كلها كان أفسد في الشرع كان أفسد في العقل، فإن الحق لا يتناقض، والرسول إنما أخبرت بحق، والله فطر عباده على معرفة الحق، والرسول

(1) المصدر السابق، ج 6، ص 159 - 160.

(2) ابن تيمية، موافقة صريح المنقول لصحيح المعقول، ج 1، ص 8-9.

(3) أبو زهرة، ابن تيمية، ص 216.

إنما بعثت بتكميل الفطرة لا بتغيير الفطرة»⁽¹⁾ ذلك أن الأصول الدينية لا تتعارض مع الأصول العقلية أبداً «في بيان أن الرسول ﷺ أول ما أنزل عليه بيان أصول الدين وهي الأدلة العقلية الدالة على ثبوت الصانع وتوحيده، وصدق رسوله ﷺ وعلى المعاد إمكاناً ووقوعاً، وقد ذكرنا فيما تقدم هذا الأصل غير مرة، وأن الرسول ﷺ بين الأدلة العقلية والسمعية التي يهتدي بها الناس إلى دينهم، وما فيه نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وأن الذين ابتدعوا أصولاً تخالف بعض ما جاء به هي أصول دينهم، لا أصول دينه، وهي باطلة عقلاً وسمعاً»⁽²⁾.

4- العقل دليل الرسالة وهادي إليها: «لولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد»⁽³⁾ ثم يؤكد على تلك الفكرة وإشراقات نور العقل فيقول: «وحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به الرسول ﷺ وطاعته، والطريق إلى ذلك الرواية والنقل، إذ لا يكفى في ذلك مجرد العقل، بل كما أن نور العين لا يرى إلا مع ظهور نور أمامه، فكذلك نور العقل لا يهتدى إلا إذا أشرقت عليه شمس الرسالة»⁽⁴⁾ وهو ما يؤكده الدكتور محمد يوسف موسى في فكر الإمام ابن تيمية بقوله: «وما ينبغي لنا أن نظن أن ابن تيمية يهمل العقل وتفكيره حين يجعل الكتاب والسنة وآثار الصحابة ومن إليهم سنده الأول في بحوثه وآرائه، بل مستنده الوحيد بعبارة أدق، فإن فهم كتاب الله وسنة رسوله فهماً دقيقاً عميقاً حقاً

(1) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، ج 1، ص 82.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 6، ص 159 - 160.

(3) المصدر السابق، ج 19، ص 99.

(4) المصدر السابق، ج 1، ص 5 - 6.

يحتاج بلا ريب إلى قلب واع وعقل مفكر نافذ، ولكنه كان يعرف للعقل قيمته ومجاليه الذي يصول فيه ويجول، فلا يجاوز به هذا المجال ولا يرتفع به عن قدره»⁽¹⁾.

إذن، المشكلة لم تكن عند الإمام ابن تيمية في استبعاد العقل فقد تبين بالأدلة القطعية أنه لم يدع إلى ذلك قط، بل دعا إلى التكامل بين العقل والنقل في مشهد بليغ لا يقبل أي تأويل، ولكن المشكلة الحقيقية، ليست عند الإمام ابن تيمية فقط ولكنها عند أئمة السلف بأسرهم، هي الخوف فقط من اتباع الرأي والهوى فيضل صاحبه عن سبيل الله، تلك هي الأزمة التي لم يفهمها المتفهبون، الذين قالوا عن الإمام ما لا يعلمون، وقد صاغ الإمام ابن تيمية تلك الإشكالية في عبارات واضحة أيضاً فقال «ومعلوم أن الكلام الذي جاءت به الرسل عن الله نوعان، إما إنشاء وإما إخبار، والإنشاء يتضمن الأمر والنهي والإباحة، فأصل السعادة تصديق خبره، وطاعة أمره، وأصل الشقاوة معارضة خبره وأمره بالرأي والهوى، وهذا هو معارضة النص بالرأي، وتقديم الهوى على الشرع، ولهذا كان ضلال من ضلَّ من أهل الكلام والنظر في النوع الخبيري بمعارضة خبر الله عن نفسه وعن خلقه بعقلهم ورأيهم، وضلال من ضلَّ من أهل العبادة والفقه في النوع الطلبي، بمعارضة أمر الله الذي هو شرعه بأهوائهم وآرائهم»⁽²⁾.

تلك هي الآفة التي يخشاها الإمام ابن تيمية، إذ أن العقل لو لم يلجم بلجام الشرع لانحرف وفقاً للهوى والغرض، وتالياً مخالفة ما جاء به الشرع

(1) د. محمد يوسف موسى، ابن تيمية، ص 129.

(2) ابن تيمية، درء تعارض العقل مع النقل، ج 5، ص 204.

بزعم الحجج العقلية، تقول الدكتوراة آمنة نصير ما نصه: «وتتضح عظمة المنهج الإسلامي في كبح غرور هذا العقل بأن حدد للعقل مجاله النظري حتى يحفظ الطاقة العقلية من التبدد وراء الغيبيات، وكان ذلك من نصيب الروح لأنه مجالها، فهي القادرة والمزودة للقيام بهذه المهمة، أما العقل فوسيلته إلى الله تتركز في مجاله من تدبر الظاهر للحس والمدرك بالعقل، ومنح الله للعقل الوسائل التي تُعينه على تدريب طاقته والوصول إلى الاستثمار والاستدلال ومن هذه الوسائل، وضع المنهج الصحيح للنظر العقلي وتدبر نوااميس الكون وتأمل ما فيها من دقة وارتباط»⁽¹⁾.

ذاك هو دو العقل، أما إذا تعداه بأهواء أهل النظر والقياس فإنه يكون قد تعدى حدوده، يقول ابن القيم «وأما أصحاب الرأي والقياس فإنهم لما لم يعتنوا بالنصوص ولم يعتقدوها وافية بالأحكام ولا شاملة لها، وغلاتهم على أنها لم تف بعُشر معشارها، فوسعوا طرق الرأي والقياس، وقالوا بقياس الشبه، وعلقوا الأحكام بأوصاف لا يعلم أن الشارع علقها بها، واستنبطوا عللاً أن الشارع شرع الأحكام لأجلها ثم اضطربوا ذلك إلى أن عارضوا بين كثير من النصوص والقياس، ثم اضطربوا، فتارة يقدمون القياس، وتارة يقدمون النص، وتارة يفرقون بين المشهور وغير المشهور، واضطربوا ذلك أيضاً إلى أن اعتقدوا في كثير من الأحكام أنها شرعت على خلاف فكان خطوهم من خمسة أوجه:

أحدها: ظنهم قصور النصوص عن بيان جميع الحوادث.

الثاني: معارضة كثير من النصوص بالرأي والقياس.

(1) د. آمنة نصير، إنسانية الإنسان في الإسلام، ص 25.

الثالث: اعتقادهم في كثير من أحكام الشريعة أنها على خلاف الميزان والقياس، والميزان هو العدل، فظنوا أن العدل خلاف ما جاءت به من هذه الأحكام.

الرابع: اعتبارهم عللاً وأوصافاً لم يُعلم اعتبار الشارع لها، وإلغاؤهم عللاً وأوصافاً اعتبرها الشارع.

الخامس: تناقضهم في ذات القياس⁽¹⁾.

ولكن ليس معنى ذلك استغناء الشريعة عن العقل ولا صدها عن سبيله، بل هما التماثلان المكمل أحدهما للآخر، يقول الإمام الجويني «إن معظم الشريعة صدر عن الاجتهاد والنصوص لا تفي بالعشر من معشار الشريعة»⁽²⁾ أو بمعنى أدق، ربما كان مقصده التكامل بين العقل والشرع، فلا الشرع يستغني عن العقل بنصه، ولا العقل يستغني عن الشرع بفهمهن بل هو في حاجة إلى هداية الشرع في كثير من مشتهات الأمور.

ولعل الإمام ابن تيمية (رحمه الله) لم يجانبه الصواب برؤيته تلك، حيث سبقه إمام أهل السنة والجماعة، الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله) إذ كثيراً ما استخدم المنهج العقلي في الرد على الخصوم والمخالفين، من ذلك رده على منكري وجود الله سبحانه في كل مكان بقوله: «لو أن رجلاً كان في يده قدح من قوارير صاف، وفيه شراب صاف كان بصر ابن آدم قد أحاط

(1) ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، الرياض، ط 1، سنة 1423هـ، ج 1، ص 249 - 250.

(2) الجويني، البرهان في أصول الفقه، تحقيق عبد العظيم الديب، مطابع الروضة الحديثة، قطر، ط 1، سنة 1938م، ج 2، ص 536.

بالقدح من غير أن يكون في القدح، فالله - ولله المثل الأعلى - قد أحاط بجميع خلقه من غير أن يكون في شيء من خلقه»⁽¹⁾.

ذاك هو منهج الإمام ابن تيمية في التكامل بين العقل والشرع، وحيث أقام الأدلة على ذاك التكامل، فليس لأهل البدع والأهواء والإفتراء أدنى نصيب من السمع أو التصديق، وحسابهم على الله، أما الإمام، فسيُجرى الله عليه الحسنات في قبره كلما افتروا عليه إلى يوم القيامة⁽²⁾.

(1) الإمام أحمد بن حنبل، الرد على الزنادقة والجهمية، المطبعة السلفية، ط2، القاهرة 1399هـ، ص49 نقلاً عن د. السيد عبد الرحمن، مشكلة الدور في منهج المتكلمين، ص15.

(2) هم يقدمون على الدوام الأدلة الفاسدة، فهم لا يجيدون مجرد تلفيق التهم، لأن فريق كبير منهم اتهم الإمام بالجمود والوقوف عند حدود النص دون إعطاء العقل حقه، وللأسف من هؤلاء من يظن في نفسه أوحدية العلم، لكن التراث يشهد بضلال فهمهم وفساد عقولهم.

الفصل الثالث

الدفاع والنطق بالحكم

الفصل الثالث

الدفاع والنطق بالحكم

تمهيد

تناولنا في الفصل الماضي لنص عريضة الدعوى التي قدمت ضد الإمام ابن تيمية (رحمه الله) بنودها الأربعة، ورأينا مدى ما فيها من زيف ومغالطات هدفها الرئيسي هدم تراث الرجل وصناعة عداءات وهمية واشعال الساحة الفكرية بالباطل والإفتراء على الناس بغير الحق، ذاك هدفهم، وتلك غايتهم، وما بين الإثنين تسقط أقنعتهم وينبطحون أرضاً، فلا الأرض أشفقت عليهم، ولا السماء حمدت صنيعهم.

والآن، وبعد تناول عريضة الإتهامات، نقف على الدفاع، لا دفاعاً عن الرجل ذاته فهو أكبر من الجميع، مادحين وقادحين، محبين ومبغضين، منصفين وكاذبين، مغبطين وحاquدين، ولكنه بالأحرى دفاعاً عن القضايا التي ملأت قناعتنا وأشرقت حقيقتها بنور ربها، وزال اللبس عنها، دفاعاً يأتي على لسان الرجل وكأنه رأى بنور ربه أفواج النقاد قديماً وحديثاً، وكأن الله كشف عن بصيرته ليرى في الأفق أقزاماً يهدمون التراث ويعبثون بالعقيدة ويقلبون الحقائق ويصفعون الحق بجهل أو بعمد، فيرد عليهم

جميعاً بكلمات معدودات «يا من لا تفهمون ما قلته ابحثو عن أسبابه أولاً وستعلمون».

تلك هي المعضلة المعرفية الكبرى في تراث الرجل بأكمله، فصل الأقوال عن الظروف، وانتقاء بعضها واقتطاع البعض الآخر بما يخدم وجهة نظر النقاد بغض النظر عن الموضوعية أو الأمانة العلمية.

إن كل هذه الإشكالات التي تضمنتها عريضة الدعوى قدم لها الإمام (رحمه الله) الدفاع اللازم عنها، وأقدمه للقارئ الكريم الآن برويتي وفهمي وبنصوص من تراث الرجل دون لى لعنق النص كما فعل الخصوم، ودون تهجم أو ازدراء لأحد كما فعلوا هم ثم أقدمه بطلاً في تلك المحاكمة الباطلة ليراه ويسمعه الخصوم!!

إن عليهم أولاً أن يفهموا تراث الرجل في ضوء الاجتهاد العقلي، حيث كان الإمام مجتهداً ومجدداً لا مقلداً، ثم في ضوء يسره أيضاً حتى يعلموا مدى كذبهم العلمى في افتراءاتهم عليه تهماً لا أصل لها ولا تمثل كل تراثه ولا كل وجهة نظره، بل فقط تمثل مواقف معينة لا تتعدها، قيلت في مناسبتها، ثم ليفهموا أيضاً كيف كان الإمام (رحمه الله) يتعامل مع قضايا الواقع، حيث فقه الواقع وفقه الأولويات وهذه القضية بالتحديد لم يفهموها، وتالياً عجزوا عن فهم التراث بأسره.

إننى أزعّم أن الإمام (رحمه الله) كان صوفياً، وأزعّم كذلك إيمانه المطلق بحق الآخر العقائدى الذى كفله له هذا الدين، ثم أزعّم أخيراً بأن هدف الإمام الرئيسى وغايته الكبرى توحيد الأمة المسلمة وصناعة وحدتها وإئتلاف وتعاون أفرادها كي تستطيع البقاء والخلود، وكى تستطيع تحقيق

الغاية من وجودها، من كونها الأمة الوسط ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143] ولتحقق الغاية من جعلها آخر الأمم لتكون لها الخيرية ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: 111]، وكم تمنى الرجل صياغة تلك الوحدة عملياً، وكم دفع من عمره وفكره لأجل تحقيقها.

إن عريضة الدعوى ضد الإمام كانت واهية... خالية المعنى والمضمون... لا ينبعث منها شيء سوى الحقد والحسد والعداء لهذا الدين بأجر أو بغير أجر، بقصد أو بغير قصد، وكم تثبت هذه الأدلة الدامغة التي يقدمها الإمام براعته، وكم تثبت أصالته وتشبعه بالعلم الشرعي، ويكفي للدلالة على ذلك سمو غاياته ونبيل مقاصده، وكثرة مؤلفاته التي يعجز هؤلاء الأقزام عن مجرد ذكرها فكيف بتأليفها.

لقد أسفرت تلك المحاكمة عن موت الإمام، موت الجسد، مع خلود الروح، وخلود الذكر إلى أبد الآبدين، فسلام عليه في الأولين، وسلام عليه في الآخرين.

أولاً: الاجتهاد

الذين وجهوا النقد للرجل لم يفهموه في ضوء اجتهاده (رحمه الله) ولا في ضوء فقه الواقع، حيث لا يمكن بحال من الأحوال فهم الإمام إلا في ضوء فقه الواقع، واقع عصره هو لا واقع عصرنا نحن، فمثلاً فتواه بتحريم الاستغاثة بالأضرحة لعلها لم تخرج إلا بعد أن طف الصاع في هذا الإطار، فغالى الناس في التمسح بالأضرحة والاستعانة بالأموات، وهكذا سائر فتاويه التي قيلت

في القرن السابع الهجري ويأخذها عليه البعض في القرن الخامس عشر الهجري، إنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

إن اجتهاد الإمام ابن تيمية في هذه الفتاوى لم يخرج عن الإطار العام للإجتهد، مضمون الإسلام، أطر العقل، محاولة الفهم، فهم الواقع في ضوء الدين، وفهم الدين في مضمار الواقع، إنه ذات الاجتهاد الذي أدى بأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى جعل طلاق الثلاث بلفظ واحد يقع ثلاثة حتى لا يتجرأ الناس على الحلف بالطلاق، إنه الاجتهاد الذي فتح الإسلام بابه وندب إليه، فهل نهاجم ابن تيمية بحجة بعض فتاويه التي خرجت في زمن غير الزمن وفي ظروف غير الظروف وواقع غير الواقع، ودون البحث عن مقصودها في ضوء عصرها وفقه واقعها كما بحثنا فتوى أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فقه واقعها وضوء عصرها!! تلك إذن قسمة ضيزى!!

لقد سار ابن تيمية الذي اتهم بإغفال العقل إغفالاً تاماً ومتعمداً مع العقل والاجتهاد إلى أقصى درجة، فنراه يقول في السياسة: «السياسة وهي ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يشرعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحى، فإن أردت بقولك لا سياسة إلا ما وافق الشرع، أى لم يخالف ما نطق به الشرع فغلط وتغليظ للصحابة، فقد جرى من الخلفاء الراشدين ما لا يحجده عالم بالسير، وكان رأياً اعتمدوا فيه على مصلحة، مثل تحريق المصاحف المخالفة، وتحريق على كرم الله وجهه الزنادقة في الأخاديد، ومثل نفى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأحد المخنثين.

والسياسة مقام ضنك في معترك صعب فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود

وضيعوا الحقوق وجروا أهل الفجور على الفساد وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد، وسدوا على أنفسهم طرقاً صحيحة من الطرق التي يُعرف بها المحق من المبطل، وعطلوها مع علمهم وعلم الناس أنها أدلة حق، ظناً منهم منافاتها لقواعد الشرع، والذي أوجب منهم ذلك نوع تقصير في معرفة حقيقة الشريعة والتطبيق بين الواقع وبينها، فلما رأى ولاية الأمور ذلك وأن الناس لا يستقيم أمرهم إلا بشيء زائد عما فهمه هؤلاء من الشريعة فأحدثوا لهم قوانين سياسية ينتظم بها مصالح العالم، والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلتها وأماراته في نوع واحد وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأدل وأظهر، بل بين بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط، فأى طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها، والطرق أسباب ووسائل لا تتراد لذواتها، وإنما المراد غاياتها التي هي المقاصد، ولن تجد طريقاً من الطرق المثبتة للحق إلا وهي موافقة للشريعة، وهل يظن بالشريعة الكاملة خلاف ذلك؟ ولا نقول إن السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة، بل هي جزء من أجزائها وتسميتها أمر اصطلاحى، وإلا فإذا كانت عدلاً فهي من الشرع، وقد أحرق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قصر سعد بن أبي وقاص لأنه احتجب فيه عن الرعية والزم بالطلاق الثلاث لمن أوقعه بفم واحد عقوبة له كما صرح هو بذلك، وإلا فقد كان على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدرًا من خلفه عمر يجعل واحدة إلى غير ذلك من السياسات العادلة التي ساسوا بها الأمة»⁽¹⁾.

في هذا النص يوضح الإمام (رحمه الله) قاعدة رئيسية مؤداها: «كل ما

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 18، ص 264.

يُستخرج به العدل والحق فهو من الشريعة، وكل ما لا يكون الواجب إلا به فهو واجب»، وهذه القاعدة تقوم على أسس من الاجتهاد العقلي بالسير نحو الحق والعدل في أى اتجاه، وفي أى طريق لأن هذا هو جوهر الإسلام.

هذا النص وأمثاله الكثير في تراث الرجل يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أهمية العقل والاجتهاد، ولكن يأبى القوم إلا اتهامه بإغفال قيمة العقل وبغض الطرف عن أبواب اجتهاد الرجل لئسقطوا بذلك جانباً كبيراً من جوانب شخصيته العظيمة، وليقدموه في أسوأ صورة ممكنة بغير فهم للتراث، بل وبغير فهم للشريعة أو لمقاصدها أو لأحكامها بالأساس في فقه الواقع وفقه الأولويات وتقديم دفع المضار على جلب المصالح وغيرها، ومن أمثلة هذه الاتهامات ما ذكره رائد السمهورى حيث أورد نصاً للإمام ابن تيمية تحت عنوان «بل إكراه في الدين» متهماً - غفر الله له - بغير فهم الإمام بأنه يقر بالإكراه في الدين بالمخالفة للقاعدة الإسلامية العريضة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 265]، فيورد للإمام نصاً قال فيه: «والإكراه قد يكون إكراهاً بحق وقد يكون إكراهاً بباطل، فالأول كإكراه من امتنع من الواجبات على فعلها مثل إكراه الكافر الحربى على الإسلام، أو أداء الجزية عن يد وهم صاغرون، وإكراه المرتد على العودة إلى الإسلام، وإكراه من أسلم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت»⁽¹⁾.

وأبسط رد على إنكاره لهذا النص ونقده له، أن نذهب معاً إلى علماء الأصول أو علماء الشريعة لنسألهم هل في هذا الكلام أدنى خطأ شرعى.

فمن ناحية إكراه الكافر الحربى على الإسلام أليس هذا مبدءاً شرعياً

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 8 ص 275.

رسخ له القرآن وأيدته السنة، رسخ له القرآن في قوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: 191]، وقوله تعالى: ﴿فَضْرَبَ الرِّقَابَ حَتَّى إِذَا انْخَسَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَأْبُودٌ وَإِمَّا فَدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: 4]، القرآن يتحدث عن قتل لا هوادة فيه، عن إعزاز لهذا الدين، والنبي ﷺ يؤكد هذا المعنى في وصيته ﷺ لقادة الجند بعرض الإسلام أولاً على الأعداء، فإن قبلوا وإلا فالجزية، فإن قبلوا وإلا فالسيف، وأكثر من حديث يؤدي هذا المعنى، فأين الخطأ إذن.

ثم أين مخالفة ابن تيمية في اقراره لإكراه المرتد على العودة إلى الإسلام، ألم يقل النبي ﷺ «من بدل دينكم فاقتلوه» وهذا ليس إكراهاً ولكنه الحفاظ على هذا الدين وصونه والذب عنه، لأنه دين سعادة البشرية، هو خاتم دين، وأتم دين... وصدق العزيز العليم ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3] ومن المعلوم بالعقل أن المرتد حال ارتداده عن الإسلام فقد أضر بالدين، والقاعدة العريضة «لا ضرر ولا ضرار» هذا بادئاً، وثانياً لماذا أسلم منذ البداية، هل أكره على الإسلام، الدين لا يُكره أحداً على الدخول فيه، والقاعدة التي اطمئن لها النبي ﷺ قول الحق سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: 99]، وقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103] ففي الأولى يؤكد قدرته سبحانه على هداية جميع الخلق، وفي الثانية ينفي إيمان الأكثرية، فالمرتد إذا دخل الإسلام مختاراً فلا يفارقه مختاراً، لأن هذا ضرر بالجماعة المسلمة ويحدث فيها الفتن ويشمت فيها الأعداء ويشجعهم على أمة التوحيد، ولا زال حكم الردة في الإسلام أحد البوابات التي يدخل منها مرجفي القلوب من الشرق والغرب على السواء ليمدوا يد الطعن على

هذا الدين متناسين أو متغافلين عن حروب أبي بكر ضد القبائل التي ارتدت عن الإسلام والتي عُرفت باسم «حروب الردة».

ثم يأخذ المؤلف على الإمام إقراره لمحاربة تاركي أحد أركان الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة، ولا أعلم هل قرأ عن حروب أبي بكر التي خاضها ضد مانعي الزكاة وقال قوله الشهيرة «والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليها» ثم أليست تلك الأركان هي الأعمدة الرئيسية في هذا الدين الحنيف وأمرينه النبي ﷺ عن ترك الصلاة أو تأخيرها عن وقتها، أو البخل بالزكاة أو الصدقات، أين الخلل إذن؟

لا أراه إلا في قصور فهم البعض وضيق الأفق وقلة الزاد، وما أراه إلا في إجادة فن إصاق التهم دون دليل أو سند من الشرع اللهم إلا هرطقات وتخيلات لا تغني ولا تسمن من جوع.

إنها فتاوى من جنس ما علم من الدين بالضرورة، لم يكن مقصودها أبداً المعنى الذى ساقه الناقد فى عنوانه، ولكنه أخذ فتوى الرجل واقتطعها قطعاً وأولها كيف يشاء، مع أنها لا تخرج عن الإطار العام للدين، بل يتفق العامة والخاصة وكل من له دراية بالعلوم الشرعية على صحتها قرآناً وسنة.

إن فصل الإمام عن واقعه، وعن اجتهاده وعن عصره، هو الذى يخلق مثل هذه المشكلات، فباب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه فى كل عصر لاختياره ما يناسبه من كافة الزوايا، وللشيخ الشعراوى (رحمه الله) فتاوى عدة قد يظنها البعض أيضاً من باب التشدد، ولكنها من صميم الدين وجوهر الشريعة، من ذلك فتواه (رحمه الله) بعدم جواز الصلاة خلف من لا يجيد قراءة القرآن الكريم، وقال بأن الصلاة خلفه لا تصح، كما أفتى (رحمه الله)

بأن المسيحى الذى يهدى للمسلم خمراً فإن هذا المسلم مشكوك فى دينه، وفى سؤال له عن مكبرات الصوت أجاب بأنها غوغائية تدين وباطلة، وهى أكبر نقمة أصابت الدعاة، وغير ذلك من فتاوى تتفق والشرع من ناحية، وتفهم فى ضوء واقعها وعصرها من ناحية أخرى.

ثم يهاجم البعض الرجل أيضاً بسبب فتواه بعدم جواز الخروج على الأمراء أو الحاكم الشرعى؟ متهمين الرجل بعدم تجاوز فقهه حدود (دورة المياه) قاصدين بذلك الطهارة والوضوء وأركان الإسلام، وأنه (رحمه الله) غرض الطرف عن فساد الأمراء المماليك الذين عاثوا فى الأرض فساداً!!

ورغم عدم مخالفة تلك الفتوى من الناحية الشرعية، حيث تمتلئ السنة النبوية بعشرات الأحاديث التى تحض على السمع والطاعة، نذكر منها قوله ﷺ فى حديث علقمة بن وائل الحضرمى عن أبيه قال سأل سلمة ابن يزيد الجعفى رسول الله ﷺ فقال: يا نبى الله! أرايت إن قامت علينا أمراء يسألوننا حقهم ويمنعونا حقنا، فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سألته فأعرض عنه، ثم سألته فى الثانية أو فى الثالثة فجذبه الأشعث بن قيس وقال: «اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم»⁽¹⁾.

وعن عوف بن مالك الأشجعى قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خيار أمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم» قالوا قلنا يا رسول الله، أفلا ننبذهم عند ذلك؟ قال: «لا ما أقاموا فيكم الصلاة،

(1) رواه مسلم فى كتاب الإمامة، باب فى طاعة الأمراء وإن ضيعوا الحقوق، رقم 49 / 1846، ص 943.

لا ما أقاموا فيكم الصلاة ألا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يداً من طاعة»⁽¹⁾.

هذا نموذج مما ذكر في هذا الباب، أضف إلى ذلك أن الأئمة مجمعون على أن الخروج على الحاكم الشرعي حرام لأن مفسده أكثر من منافعه، فالخرقي في حاشيته يقول: «وإذا اتفق المسلمون على إمام فمن خرج عليه من المسلمين يطلب موضعه حوربوا ويدفعوا عن ذلك بأسهل ما يُعلم أنهم يندفعون به»⁽²⁾، ويقول ابن قدامة: «كل من ثبتت إمامته حُرِّم الخروج عليه وقتاله سواء ثبت بإجماع المسلمين عليه، كإمامة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أو بعهد الإمام الذي قبله إليه كعهد أبي بكر لعمر أو بقره للناس حتى أذعنوا له ودعوه إماماً كعبد الملك بن مروان»⁽³⁾.

إذن، رغم صحة هذه الفتوى شرعاً، إلا أن لها بُعداً وقائعياً على الأرض في عصر الإمام، حيث أن الأميرين بيبرس الكاشنجير وسلار خرجا على السلطان الناصر محمد بن قلاوون واستولوا على الحكم وخرجت المظاهرات في القاهرة تطالب بعودة السلطان قلاوون ومحاسبة الأمراء الذين انقلبوا عليه، حيث عمت الفوضى البلاد وانهار الاقتصاد وتعطلت مصالح الناس وانتشر القتل بين طوائف الشعب المختلفة وضج الناس من الظلم والفوضى، والإمام شاهد على كل هذه الأحداث معاين لها، وبالتالي رفض الخروج على الحاكم واقعياً واستند إلى ذلك من الشرع لما في الخروج من مفسد لا يعلم مداها إلا الله.

(1) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم، رقم 66 / 1855، ص 948.

(2) الخرقي، حاشية مختصر الخرقي، دار الفكر، بيروت، 1984م، ج 2، ص 216.

(3) ابن قدامة، الكافي في فقه الإمام المجل أحمد بن حنبل، 4 أجزاء، المكتب الإسلامي، بيروت، 1986م، ج 4، ص 146.

لذا نراه يقول: «لا يجوز إنكار المنكر بما هو أنكر منه، ولهذا حُرِّم الخروج على ولاة الأمر بالسيف، لأجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن ما يحصل بذلك من فعل المحرمات وترك واجب أعظم مما يحصل بفعلهم المنكر والذنوب، وإذا كان قوم على بدعة أو فجور ولو نهوا عن ذلك وقع بسبب ذلك شر أعظم مما هم عليه، ولر يمكن منعهم منه، ولر يحصل بالنهي مصلحة راجحة لر ينهوا عنه، بخلاف ما أمر الله به من الأنبياء وأتباعهم من دعوة الخلق، فإن دعوتهم يحصل بها مصلحة راجحة على مفسدتها، كدعوة موسى لفرعون ونوح لقومه، فإنه حصل لموسى من الجهاد وطاعة الله وحصل لقومه من الصبر والاستعانة بالله ما كانت عاقبتهم به حميدة وحصل أيضاً عن تفريق فرعون وقومه ما كانت مصلحته عظيمة»⁽¹⁾.

ويزيد الإمام هذا الرأي وضوحاً بالقول: «وهكذا حال المقتلين من المسلمين في الفتن الواقعة بينهم فلا تكون عاقبتها إلا عاقبة سوء، الغالب والمغلوب، فإنه لر يحصل له دنيا ولا آخرة كما قال الشعبي: أصابتنا فتنة لر نكن فيها بررة أتقياء ولا فجور أشقياء، وأما الغالب فإنه يحصل له حظ عاجل قد ينتقم منه في الآخرة وقد يُعجل الله له الإنتقام في الدنيا، كما جرى لعامة الغالبين في الفتن، فإنهم أصيبوا في الدنيا كالغالبين في الحرة وفتنة أبي مسلم الخراساني ونحو ذلك»⁽²⁾.

تلك هي رؤية الرجل في هذا الإطار، من الناحيتين الشرعية والواقعية؟
فماذا ينقم عليه الناقمون؟! ولماذا يعتدى بالقول المعتدون؟

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج14، ص262.

(2) نفسه، ج14، ص76.

ثم هل يغفل النقاد عن اجتهاد الإمام الذي يسوده التيسير في كل شيء، فمن أين يصفونه بالتشدد؟!

لقد قصد الرجل في اجتهاده التيسير في كل شيء، في العبادات والمعاملات، بل وفي الاعتقاد أيضاً حيث نراه يفرق بين المسلم والمؤمن، فمن شهد الشهادتين فهو مسلم ولا يحق لأحد إخراجه من دائرة الإسلام بحال من الأحوال، بمجرد النطق بالشهادتين يصير مسلماً، يقول الإمام: «وهذا دين الله الذي لا يقبل من أحد ديناً غيره، لا من الأولين ولا من الآخرين، ولا تكون عبادته مع إرسال الرسل إلينا إلا بما أمرت به رسله، لا بما يُضاد ذلك، فإن ضد ذلك معصية وقد ختم الله الرسل بمحمد ﷺ فلا يكون مسلماً إلا من شهد ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وهذه الكلمة بها يدخل الإنسان في الإسلام، فمن قال: الإسلام الكلمة وأراد هذا فقد صدق، ثم لا بد من التزام ما أمر به الرسول ﷺ من الأعمال الظاهرة كالمباني الخمسة، ومن ترك من ذلك شيئاً نقص إسلامه بقدر ما نقص من ذلك، وهذه الأعمال إذا عملها الإنسان مخلصاً لله تعالى فإنه يثيبه عليها، ولا يكون ذلك إلا مع اقراره بقلبه أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فيكون معه من الإيمان هذا الإقرار، وهذا الإقرار لا يستلزم أن يكون صاحبه معه من اليقين ما لا يقبل الريب، ولا أن يكون مجاهداً ولا سائراً ما يتميز به المؤمن عن المسلم، وخلق كثير من المسلمين باطنياً وظاهراً معهم هذا الإسلام بلوازمه من الإيمان، ولم يصلوا إلى اليقين والجهاد فهؤلاء يثابون على إسلامهم وإقرارهم بالرسول مجملًا، وقد لا يعرفون أنه جاء بكتاب وقد لا يعرفون أنه جاء ملك، ولا أنه أخبر بكذا، وإذا لم يبلغهم أن الرسول أخبر بذلك لم يكن عليهم الإقرار المفصل به، لكن لا بد من الإقرار بأنه رسول الله، وأنه صادق في كل ما يخبر

به عن الله، ثم الإيمان الذي يمتاز به فيه تفصيل، وفيه طمأنينة ويقين، فهذا متميز بصفته وقدره في الكم والكيف، فإن أولئك معهم من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وتفصيل المعاد والقدر ما لا يعرفه هؤلاء»⁽¹⁾.

بل يذهب إلى أن المسلم الذي نطق بالشهادتين لا يجوز تكفيره فيقول: «ولا يجوز تكفير المسلم بذنوب فعله ولا خطأ أخطأ فيه كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة، فإن الله تعالى قال ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: 285]، وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء وغفر للمؤمنين خطأهم⁽²⁾ والخوارج المارقون الذين أمر النبي ﷺ بقتالهم، قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخلفاء الراشدين، واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ولم يكفرهم علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم، ولم يقاتلهم على حتى سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على أموال المسلمين فقاتلهم لرفع ظلمهم وبغيهم، لا لأنهم كفار، ولهذا لم يسب حريمهم ولم يغنم أموالهم».

وَيُدْخِلُ الْجَمِيعَ فِي زِمْرَةِ الْإِسْلَامِ بِقَوْلِهِ:

«وهذا يبين أن عامة أهل الصلاة مؤمنون بالله ورسوله وإن اختلفت

(1) نفسه، ج7، ص 182 - 183.

(2) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، الريان للتراث، القاهرة 1987م، وجمع في مجلد واحد، دار الاعتصام، القاهرة، 2011م، كتاب الإيمان، باب أنه سبحانه وتعالى لا يكلف إلا ما يطاق، حديث رقم 125.

اعتقاداتهم في معبودهم وصفاته، إلا من كان منافقاً، يُظهر الإيمان بلسانه ويُطن الكفر بالرسول، فهذا ليس بمؤمن، وكل من أظهر الإسلام ولم يكن منافقاً فهو مؤمن، له من الإيمان بحسب ما أوتيته من ذلك، وهو ممن يخرج من النار ولو كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، ويدخل في هذا جميع المتنازعين في الصفات والقدر على اختلاف عقائدهم، ولو كان لا يدخل الجنة إلا من يعرف الله كما يعرفه نبيه ﷺ لم تدخل أمته الجنة، فإنهم أو أكثرهم لا يستطيعون هذه المعرفة بل يدخلونها وتكون منازلهم متفاضلة بحسب إيمانهم ومعرفتهم، وإن كان الرجل قد حصل له إيمان يعرف الله به وأتى آخر بأكثر من ذلك عجز عنه لم يُحمل ما لا يطيق، وإن كان يحصل له بذلك فتنة لم يحدث بحديث يكون له فيه فتنة»⁽¹⁾.

نص لا يحتاج إلى تفصيل أو توضيح، فهل يا ترى يوصف الرجل بالتشدد؟! ثم لماذا يغفل النقاد هذه النصوص؟! بل إنه (رحمه الله) يجيب على سؤال عن الشفاعة في أهل الكبائر وهل يدخلون الجنة أم لا فأجاب: «إن أحاديث الشفاعة في أهل الكبائر ثابتة متواترة عن النبي ﷺ وقد اتفق عليها السلف من الصحابة وتابعيهم بإحسان وأئمة المسلمين، وإنما نازع في ذلك أهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم، ولا يبقى في النار أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان، بل كلهم يخرجون من النار ويدخلون الجنة ويبقى في الجنة فضل، فيُنشئ الله لها خلقاً آخر ويدخلهم الجنة»⁽²⁾.

بل وأبعد من ذلك يذهب الإمام (رحمه الله) إلى أن فساق المسلمين

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج3، ص200.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج4، ص197.

يدخلون الجنة برحمة الله وبشفاعة نبيه ﷺ فيقول: «ويؤمن أهل السنة والجماعة بأن فساق المسلمين معهم بعض الإيمان وأصله، وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذي يستوجبون به الجنة، وأنهم لا يخلدون في النار بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال خردلة من إيمان، وأن النبي ﷺ ادخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته»⁽¹⁾.

وعلى طول تراث الرجل وعرضه تجد تيسيراً في فتاويه التي تفارق إطار عصرها منسحبة إلى كل عصر من قبيل:

□ جواز بيع الأصل بالعصير، كالزيتون بالزيت.

□ القول بجواز الوضوء بكل ما يسمى ماءً مطلقاً كان أو مقيداً.

□ القول بجواز بيع ما يتخذ من الفضة للتحلي وغيره كالتخاتم ونحوه بالفضة متفاضلاً، وجعل الزائد من الثمن في مقابل الصنعة.

□ القول بجواز التيمم لمن خاف فوات العيد والجمعة مع وجود الماء.

وغير هذه الفتاوى التيسيرية في العبادات والمعاملات الكثير.

يبقى السؤال إذن، أين التشدد؟ قد يقولون، «للإمام نصوص كثيرة في التشدد ولكنك تغفلها عن عمد»، والرد أبسط ما يكون حيث أنني لم أغفلها عمداً ولكني أغفلتها فقهاً لأن النصوص التي يبترونها ويستشهدون بها قيلت في عصر معين وموقف معين ومناسبة معينة ولا يمكن حملها على إطلاقها، أما الفتاوى والنصوص التي أذكرها فهي نصوص مجردة مطلقة ليست خاصة بموقف ولا بزمان ولا بظروف معينة، ولا يمكن أبداً الاستدلال على المطلق

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج3، ص239.

بالمقيد والاستنباط من المقيد حكماً مطلقاً، ولكن يمكن الاستنباط من المطلق على حكم مطلق، ولكن النقد بعلم أو بجهل أغفلوا هذه الحقيقة المنطقية.

ثم يا سادة، على فرض وجود بعض أحكام مطلقة عند الرجل تتسم بالتشدد، لم لا نُغض الطرف عنها بل ونحذفها من تراثه ونطلب له من الله المغفرة، ثم ننتفع وينتفع أبنائنا وطلابنا ببقية تراث الرجل؟ هل هذه معضلة؟ لا أدري!!

إن فهم قضية الاجتهاد ويسر هذا الاجتهاد عند الإمام ابن تيمية تحل كثيراً من المعضلات العالقة في أذهان الناقدين إن أرادوا الحق، كما أن فهم تراث الإمام في ضوء اجتهاده يساعد على فهمه بموضوعية، ويساعد على دحض الاتهامات المقدمة آنفاً في عريضة الدعوى الواهية.

ثانياً؛ فقه الأولويات؛

وهى القضية الرئيسية التى يغفلها النقد عمداً أو جهلاً، ولا يمكن أبداً قراءة كلمة واحدة في تراث الرجل إلا بعد فهم فقه الأولويات مضافاً إليه فقه الواقع، وقراءة تراث الرجل في ضوءها وفي ثياب عصره هو لا عصرنا نحن، وتتجلى تلك القضية مختصرة في جملتين للرجل مؤداهما: «والواجب تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناهما هو المشروع»⁽¹⁾ يقول الدكتور القرضاوى ما نصه: «إن من أهم ثمرات العلم والفقه في الدين، معرفة قيمة الأعمال ومراتبها الشرعية والاحتفاظ لكل

(1) ابن تيمية، السياسة الشرعية، ص 43.

منها بموضعه في سلم المأمورات أو المنهيات دون خلط أو إخلال بالنسب، أو تفريق بين المتماثلات أو تسوية بين المختلفات»⁽¹⁾.

وقد لفت القرآن الكريم النظر إلى قضية فقه الأولويات في عدة مواضع نذكر منها قوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْنَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 217] ف قيل في سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ

بعث عبد الله بن جحش في رجب، وبعث ثمانية رهط من المهاجرين، وكتب له كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر ما أمره به رسول الله ﷺ ولا يستكره أحداً من أصحابه، فلما سار يومين نظر في الكتاب وقال سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتية منها بغير وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فليطلق ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ فمضى، وسار معه الصحابة لم يتخلف منهم أحد حتى إذا كانوا بمعدن فوق الفرع يقال له بران، أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بغيراً لهما كان يعتقبانه، فتخلفا عليه في طلبه ومضى عبد الله بن جحش وبقيّة أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به غير

(1) د. يوسف القرضاوي، الصحوّة الإسلامية، كتاب الأمانة، قطر، ط 3، 1402هـ،

قريش تحمل زيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش، فلما رآهم القوم هابوهم وتشاور القوم فيهم في آخر يوم من رجب، فمن قائل، نقاتلهم، ومن قائل نحن في حرمة الشهر الحرام، ثم أجمعوا على قتالهم فقتلوا من قدروا عليه منهم وأخذوا ما معهم⁽¹⁾، فلما قدموا على النبي ﷺ قال لهم: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فقالت قريش، لقد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام فسفكوا فيه الدماء وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال، فأنزل الله هذه الآية رداً عليهم، ليقول لهم، إن تأخذوا على المسلمين قتالهم في الشهر الحرام، فظلمكم أكبر وقد أخرجتموهم من ديارهم وفتنتموهم في دينهم، والفتنة أكبر من القتل⁽²⁾ ونجد أيضاً قول الحق سبحانه في نبي موسى والخضر عليهما السلام ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: 79] أى أن خرق السفينة وإصابتها بعيب بسيط أولى من ضياعها على هؤلاء المساكين الذين لا يجدون عملاً أو رزقاً غيرها.

أيضاً نجد فقه الأولويات في سنة النبي الكريم ﷺ وسيرته العطرة، فيوم أن بُعثت كانت ألوف الأصنام فوق الكعبة وحولها، ولم يهدمها، إلا في العام الحادى والعشرين من البعثة، إذ كان حرصه أن يهدم الأصنام المترتبة على عرش القلوب، الأصنام داخل النفس البشرية قبل تحطيم الأصنام المادية، بل إنه ﷺ طاف ومعه أصحابه في عمرة القضاء والأصنام لا تزال موجودة داخل الكعبة وحولها، إلى أن أشرقت شمس الإسلام وأذن الله بالفتح، وكان

(1) قيل إن ما كان معهم عبيد وأسيرين، وقيل غير ذلك، وكله مبسوط في كتب التفسير.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مكتبة الصفا، ط 1، سنة 2004، ج 1، ص 227

فتحاً مبیناً، فأخذ النبي ﷺ يكسر الأصنام وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: 81].

أيضاً نجد إقرار النبي ﷺ لكفر عمار بن ياسر بلسانه مع اطمئنان قلبه حين عذبه المشركون كي يكفر بالنبي ﷺ فوافقهم بلسانه، وفي ذلك نزل القرآن ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: 106].

ثم نجد ترتيباً للأولويات في قول النبي الكريم ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»⁽¹⁾ والحديث يدل على تفاوت المصالح في العلو والرتبة، فأعلاها الشهادتين ثم التدرج بحسب الأولوية حتى الوصول إلى إماطة الأذى عن الطريق.

وفي وصية أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في آخر لحظات حياته للفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أن اختاره خليفة للمسلمين قائلاً له: «إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، ولله عمل بالنهار لا يقبله بالليل، وإن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة»⁽²⁾.

بل إن الإسلام أباح الكذب لحماية المسلمين، دمائهم وأعراضهم، فذكر

(1) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، حديث رقم (35) عن أبي هريرة وأخرجه البخاري (9).

(2) أبو الفرج ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي، مكتبة السلام العالمية، القاهرة، ب ت، ص 71.

عبد الملك بن حبيب من فقهاء المالكية، قال حدثني معبد بن المسيب عن شريك عن أبي شيبة قال: سألت أنس بن مالك عن الرجل يؤخذ بالرجل، هل ترى أن يحلف ليقه يمينه، قال نعم، لئن أحلف سبعين يميناً وأحنت أحب إلي من أن أدل على مسلم»⁽¹⁾.

بل إن الشريعة قدمت حفظ النفس على غيره، فيذكر ابن الأثير عن ابن عباس قال: أسرت الروم عبد الله بن حذافة السهمي، فقال له الطاغية تنصر وإلا ألقيتك في البقرة [وهي من نحاس يغلى فيها الزيت]، قال: ما أفعل، فدعا بالبقرة النحاس فملئت زيتاً وأغلقت ودعا برجل من أسرى المسلمين فعرض عليه النصرانية فأبى، فألقاه في البقرة، فإذا عظامه تلوح، وقال لعبد الله تنصر وإلا ألقيتك، قال لن أفعل، فأمر به أن يُلقى في البقرة فبكى، فقالوا قد جذع، ردوه، فقال له عبد الله لا ترى أني بكيت جزعاً مما تريد أن تصنع بي ولكني بكيت حيث ليس لي سوى نفس واحدة تقتل في سبيل الله، ووالله إني لكنت أود أن يكون لي ألف ألف نفس تقتل في سبيل الله، فأعجب به الطاغية وأحب أن يطلقه، فقال: قبل رأسي وأطلقك، قال ما أفعل، قال تنصر وأزوجك ابنتي وأقاسمك ملكي، قال ما أفعل، قال: قبل رأسي وأطلقك وأطلق معك ثمانين من المسلمين، قال: أما هذه فنعم، فقبل رأسه وأطلقه وأطلق معه ثمانين من المسلمين، فلما قدموا على عمر بن الخطاب قام إليه فقبل رأسه، قال: فكان أصحاب رسول الله ﷺ يمازحون عبد الله فيقولون قبلت رأس عالج، فيقول لهم، أطلق الله بتلك القبلة ثمانين من المسلمين⁽²⁾.

(1) تفسير القرطبي (6/ 3805).

(2) عز الدين بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الشعب، القاهرة، د. ت (3/ 211، 212).

إذن، الوظيفة الأولى لفقهاء الأولويات ترتيب المصالح بحسب قدرها ودرء المفاسد بحسب حجمها، وهى على أنماط أربعة:

1- إذا كانت المصلحتان المتعارضتان في رتبة واحدة، أى أن كلاهما مثلاً في رتبة الضروريات أو الحاجيات أو التحسينيات، فيُقدم ما به حفظ الدين على ما به حفظ النفس عند تعارضهما، وما به حفظ النفس على ما به حفظ العقل، وما به يكون حفظ العقل مقدماً على ما يكون به حفظ النسل، وما به يكون حفظ النسل مقدماً على ما يكون به حفظ المال⁽¹⁾.

2- إذا كانت المصلحتان المتعارضتان متعلقتين بكلي واحد كالدين أو النفس أو العقل، فتقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، مثال ذلك تحريم الاحتكار، وإخراج الطعام من يد محتكره قهراً، فإن فيه تقديماً لمصلحة عامة هى مصلحة الجماعة في توفير ما يلزم لمعاشهم وإلا هلكوا، وإن أدى ذلك إلى تفويت مصلحة المحتكر الخاصة في الحصول على الربح⁽²⁾.

3- إذا تعارضت مفسدتان واضطر إلى ارتكاب إحداهما فترتكب الأقل ضرراً لأجل اجتناب الأشد ضرراً، مثال ذلك التداوى بالنجاسات إن لم يوجد طاهر عند الضرورة، وشرب الخمر عند العطش الشديد وخوف الهلاك إن لم يوجد ماء⁽³⁾.

(1) د. عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارنة بالقانون الوضعي، دار التراث، القاهرة، سنة 1982م، ص 204.

(2) د. حسين حامد حسان، نظرية المصلحة في الفقه الإسلامي، مكتبة المتنبي، القاهرة، ط 1، سنة 1981م، ص 74.

(3) العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، دار الجيل، بيروت، ط 3، سنة 1980م، 1/ 95.

4- إذا تعارضت المصلحة مع المفسدة وكان لابد من ارتكاب المفسدة إذا أخذ بالمصلحة أو تفويت المصلحة إذا اجتنبت المفسدة، يتم النظر إلى حجم كل منهما فإن كانت المفسدة أعظم من المصلحة اجتنبنا المفسدة ولا حرج في فوات المصلحة قال سبحانه ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: 219]. أما إذا كانت المصلحة أكبر من المفسدة فيجوز ارتكاب المفسدة لأجل تحقيق المصلحة قياساً لحجمها، ومن أمثلة ذلك التلفظ بكلمة الكفر مفسدة محرمة، لكنه جائز لأجل حفظ النفس إذا ما كان القلب مطمئناً بالإيمان⁽¹⁾ وجواز الكذب في مواضع معينة رغم تحريمه في سائر المواضع، ولكنه جاز في الإصلاح بين الناس وحديث الزوجين لبعضهما البعض وعلى الأعداء، لدفع المفسد الناتجة في مثل تلك المواضع وجلب مصلحة أهم⁽²⁾ وقد قدم الإمام ابن تيمية (رحمه الله) تراثه في ضوء من ذلك مثلاً.

(أ) قوله: «فإن الخلق كلهم محتاجون إلى الإقرار بالخالق، والإقرار برسله، وما اشتدت الحاجة إليه في الدين والدنيا، فإن الله يوجد به على عباده جوداً عاماً ميسراً، فلما كانت حاجتهم إلى النفس أكثر من حاجتهم إلى الماء، وحاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى الطعام، كان سبحانه قد جاد بالهواء جوداً عاماً في كل زمان ومكان، ثم الماء دونه، ولكنه يوجد أكثر مما يوجد القوت وأيسر، لأن الحاجة

(1) المرجع السابق (1/ 102 - 103).

(2) د. حسين حامد، نظرية المصلحة، ص 415.

إليه أشد، فكذلك دلائل الربوبية، حاجة الخلق إليها في دينهم أشد الحاجات ثم دلائل النبوة»⁽¹⁾.

(ب) في المصارف يقول: «وأما المصارف، فالواجب أن يحقق في القسمة بالأهم فالأهم من مصالح المسلمين، كعطاء من يحصل للمسلمين به منفعة عامة»⁽²⁾.

(ج) الفسحة في الدين للمضطر: «من استقرأ الشريعة في مواردها ومصادرها وجدها مبنية على قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: 173]، وقوله ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 3]، فكل ما احتاج الناس إليه في معاشهم ولم يكن سببه معصية - هي ترك واجب أو فعل محرم - لم يحرم عليهم لأنهم في معنى المضطر الذي ليس بباغ ولا عاد»⁽³⁾.

(د) وفي السياسة أيضاً يتبع فقه الأولويات في الولاية فيقول «فالواجب في كل ولاية، الأصلح بحسبها، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضرراً فيها، فيقدم في إمارة الحرب الرجل القوى الشجاع وإن كان فيه فجور فيها على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أميناً، كما سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، أحدهما قوى فاجر

(1) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، دمشق، د. ت -، ج4، ص79.

(2) ابن تيمية، السياسة الشرعية، ص44.

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج18، ص214.

والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يُغزى؟ فقال: أما الفاجر القوى
فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف فصلاحه
لنفسه وضعفه على المسلمين، فيُغزى مع القوى الفاجر، وقد قال
النبي ﷺ: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»⁽¹⁾ وروى
«بأقوام لا خلاق لهم» فإذا لم يكن فاجراً، كان أولى بإمارة الحرب
ممن هو أصلح منه في الدين، إذا لم يسد مسده، ولهذا كان النبي ﷺ
يستعمل خالد بن الوليد على الحرب منذ أسلم، وقال: «إن خالداً سيف
سله الله على المشركين» مع أنه أحياناً قد يعمل ما ينكره النبي ﷺ
حتى إنه رفع يديه ذات مرة إلى السماء وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما
فعل خالد»⁽²⁾ وذلك لما أرسله إلى جُزيمة فقتلهم وأخذ أموالهم بنوع
فيه شبهة، ولم يكن يجوز ذلك، وأنكره عليه بعض من كان معه من
الصحابة حتى وداهم النبي ﷺ وضمن أموالهم، ومع هذا فما زال
يقدمه في إمارة الحرب، لأنه كان أصلح في هذا الباب من غيره»⁽³⁾
وهذا هو الأصل عند ابن تيمية، ولعله يلخص تلك القضية في قوله
«إذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فقدم أوكدهما ما لم يكن الآخر
في هذه الحالة واجباً، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجب
في الحقيقة، وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل
أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذه الحالة محرماً في الحقيقة، وإن

(1) رواه البخاري في كتاب الجهاد حديث رقم 2248، وذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى، ج 18، ص 216.

(2) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية، ج 4، ص 186.

(3) ابن تيمية، السياسة الشرعية، ص 16 - 17.

سُمي ذلك ترك واجب، وسُمي هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لضرر، ويقال في مثل هذا ترك الواجب لعذر، وفعل المحرم للمصلحة الراجحة أو للضرورة، أو لدفع ما هو أشد حرمة⁽¹⁾.

معنى ذلك أن النبي ﷺ يعلم قسوة خالد، ولكنه يقدمه لشجاعته، لأجل المحافظة على انتصار المسلمين، بحيث تقدم المصلحة العظمى على المفسدة الأقل، يقول الإمام: «فتفطن لحقيقة الدين وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية والمفاسد بحيث تعرف ما ينبغي من مراتب المعروف ومراتب المنكر، حتى تقدم أهمها عند المزاخمة، فإن هذا حقيقة العمل بما جاءت به الرسل، فإن التمييز بين جنس المعروف وجنس المنكر وبين الدليل وجنس الدليل وغير الدليل يتيسر كثيراً، فأما مراتب المعروف والمنكر ومراتب الدليل بحيث تقدم عند التزاحم أعرف المعروفين فتدعو إليه وتنكر أنكر المنكرين وترجح أقوى الدليلين فإنه هو خاصة العلماء بهذا الدين»⁽²⁾ وقريباً من هذا المعنى قوله: «الحكيم هو الذي يقدم أعلى المصلحتين، ويدفع أعظم المفسدتين»⁽³⁾.

(هـ) يلخص الإمام ابن تيمية قضية فقه الأولويات في العبارة التالية: «التعارض إما بين حسنتين لا يمكن الجمع بينهما فنقدم أحسنهما بتفويت المرجوح، وإما بين سيئتين لا يمكن الخلو منهما، فيدفع

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 34، ص 222.

(2) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ص 298.

(3) ابن تيمية، منهاج السنة، ج 3، ص 191.

أسوأهما باحتمال أدناهما، وإما بين حسنة وسيئة لا يمكن التفريق بينهما، بل فعل الحسنة مستلزم لوقوع السيئة وترك السيئة مستلزم لترك الحسنة، فيرجح الأرجح من منفعة الحسنة ومضرة السيئة»⁽¹⁾ وهذا يعني أن المصالح تختلط أحياناً كثيرة مع المفساد، ويؤيد هذا القول العز بن عبد السلام إذ يقول: «المصالح المحضة قليلة، وكذلك المفساد المحضة، والأكثر منها ما اشتمل على المصالح والمفساد»⁽²⁾.

وبالتالى لابد من التعمق في الفقه للوقوف على ما يجب تقديمه، وما ينبغي تأخير، ولا يمكن فهم فتاوى الرجل وتراثيه إلا في ضوء فهم فقه الأولويات أولاً.

ثالثاً: ابن تيمية متصوفاً

أشيع عن الرجل عدائه للتصوف قديماً وحديثاً.... وهو الآن يمتلك من الأدلة القوية ما ينفي هذه التهمة ويبيدها تماماً، ولكن قاضي المحكمة وجه إليه التساؤل «فكيف يا إمام أشيعت عنك هذه التهمة، أنك عدو للتصوف»؟

ويجب الإمام بالقول، هذه التهمة أشيعت عنى لسبيين اثنين، الأول: أننى أنتصر للسنة على الدوام، وأعتبر كتاب الله وسنة نبيه ﷺ هما درع وسيف المؤمنين، وهما سبيلي الخلاص من كافة المحن «ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 20، ص 50.

(2) ابن عبد السلام، قواعد الأحكام، ج 1، ص 12.

رسوله ﷺ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة الرسول ﷺ والدعوة إلى غير الله، ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي غيره عموماً وخصوصاً⁽¹⁾.

ويسكت القاضي لحظة، لا يجد ما يقوله، فيبادر الإمام بالقول متماً حديثه: «وإن لزوم السنة يحفظ من شر النفس والشيطان بدون الطرق المبتدعة، فإن أصحابها لابد أن يقعوا في الآصار والأغلال وإن كانوا متأولين، فلا بد لهم من اتباع الهوى، ولهذا سمى أصحاب البدع أصحاب الأهواء، فإن طريق السنة علم وعدل وهدى، وفي البدعة جهل وظلم وفيها اتباع الظن وما تهوى الأنفس»⁽²⁾.

ويستطرد الإمام بالقول، وهم يعتبرون أن الانتصار للسنة ضد التصوف، مع أن التصوف الحقيقي ليس بدعة.

فيأخذ القاضي الكلمة من على لسان الإمام ويسأله: «وما هي البدعة يا إمامنا؟» فيجيب الإمام بالقول: «هي ما لم يشرعه الله من الدين، فكل من دان بشيء لم يشرعه الله فذاك بدعة وإن كان متأولاً فيه»⁽³⁾ ثم يكمل حديثه بالقول، والمشكلة أن بعض المتصوفة يرفعون قدر شيوخهم فوق قدر الصحابة «فمن جعل طريق أحد من العلماء والفقهاء أو طريق أحد من العباد والنسك أفضل من طريق الصحابة فهو مخطئ ضال مبتدع، ومن

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج3، ص266.

(2) نفسه، ج10، ص340.

(3) ابن تيمية، الاستقامة، تحقيق د. محمد رشاد سالم، دار الفضيلة، الرياض، السعودية، ط1، 2005م، ج2، ص5.

جعل كل مجتهد في طاعة أخطأ في بعض الأمور مذموماً معيباً ممقوتاً فهو مخطئ ضال مبتدع»⁽¹⁾.

ويستطرد الإمام في دفاعه، أما السبب الثاني في إشاعة تلك التهمة عنى فعله موقفى من الخوارج الذين نصبوا العداوة لعلى ومن والاه وهم الذين استحلوا قتله وجعلوه كافراً، وقتله أحد رؤوسهم عبد الرحمن بن ملجم، فهؤلاء النواصب الخوارج المارقون»⁽²⁾ وأهل السنة يعادون هؤلاء الخوارج «وأما أهل السنة فيقولون ويتكلمون بعدل وعلم، وليسوا من أهل الجهل ولا من أهل الأهواء، ويتبرأون من طريقة الروافض والنواصب جميعاً ويعرفون قدر الصحابة وفضلهم ومناقبهم ويرعون حقوق أهل البيت»⁽³⁾...

وهنا يسأل القاضى، فماذا عن أئمة التصوف يا شيخ الإسلام؟!

فيجيب الإمام بقوله: «وأما أئمة الصوفية والمشايخ المشهورون من القدماء مثل الجنيد بن محمد وأتباعه ومثل الشيخ عبد القادر وأمثاله فهؤلاء من أعظم الناس لزوماً للأمر والنهى وتحذيراً من المشى مع القدر كما مشى أصحابهم أولئك، وهذا هو الفرق الثانى الذى تكلم فيه الجنيد مع أصحابه، والشيخ عبد القادر كلامه كله يدور على اتباع المأمور وترك المحذور والصبر على المقدور ولا يثبت طريقاً تخالف ذلك أصلاً، لا هو ولا عامة المشايخ المقبولين عند المسلمين»⁽⁴⁾ بل إن أئمة التصوف والعلماء عامة كمالك

(1) ابن تيمية، الصوفية والفقراء، ص 21.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 3 / 3 / 468.

(3) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، ج 1، 2 / 71.

(4) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 17، ص 261.

والأوزاعي والثوري وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل والفضيل بن عياض ومعروف الكرخي وأمثالهم مصرّحون بأن أفضل علمهم ما كانوا فيه مقتدين بعمل الصحابة وبالسنة النبوية و...

وهنا يتدخل القاضي مقاطعاً، يا إمام لقد أتعبتنا معك، إنك تتحدث عنهم وكأنك منهم، وليس في كلامك ما يدينك، ولا ما يبرهن على ادعاء رافعوا الدعوى ضدك، وأرى أن تُرفع الجلسة في هذه التهمة لحين ورود أدلة أقوى ضدك.

هكذا تمت المحاكمة للإمام بتهمة ازدراء التصوف، ولكنه فند هذه الدعوى وبيّن مدى سفاهتها وضعفها وفساد منطقها وضعف حجتها، ولكن القاضي أبي أن يمنحه البراءة مما نُسب إليه، لأنه يبحث عن أى ثغرة يدين بها الرجل، لكن للأسف جاءت كل محاولاته بالفشل لأن صفحة الشيخ ناصعة البياض، بل إنني أزعم أن الشيخ رحمه الله كان صوفياً، ولى على هذا القول أدلة قوية أسوقها كالتالى:

1 - موقفه من آل البيت:

شكك الكثيرون حديثاً في حب الإمام (رحمه الله) لآل بيت رسول الله ﷺ وصدرت في ذلك كتابات مع وضد، وحملت عناوين براقعة من قبيل «أخطأ ابن تيمية في حق رسول الله ﷺ وآل بيته» و«ابن تيمية يسب النبى ﷺ وآل بيته» و«انتقاص ابن تيمية من آل بيت رسول الله ﷺ»، وغير ذلك من عناوين ذات شكل وغير ذات مضمون، بل مضمونها يحوى كذباً وزوراً وافتراءً على الرجل بغير حق، ولكنها الحرب الممنهجة ضد التراث الإسلامى وأئمة السنة عامة وابن تيمية خاصة باعتباره شيخ الإسلام.

ولكن الرجل لا يتنقص أبداً من آل بيت النبي ﷺ، بل يرفع من قدرهم ويُعلي شأنهم حيثما ذكرهم ويعزلهم عن المغالين فيهم الذين قال عنهم الإمام عليّ (كرم الله وجهه) «يهلك فيّ رجلاان، محب غال يقرظني بما ليس فيّ، ومبغض يرميني بما نزهني الله منه»⁽¹⁾.

والذين قال عنهم زين العابدين بن الإمام الحسين (رضى الله عنهم جميعاً): «أحببتمونا حتى سار حبكم لنا عاراً»، ويقول الإمام في ذلك: «وأما العالم العادل فلا يقول إلا الحق، ولا يتبع إلا إياه، ولهذا من يتبع المنقول الثابت عن النبي ﷺ وخلفائه وأصحابه وأئمة أهل بيته مثل الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين وابنه الإمام أبي جعفر محمد بن عليّ الباقر، وابنه الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق شيخ علماء الأمة، ومثل أنس بن مالك والثوري وطبقتهما، وجد ذلك جميعه متفقاً مجتمعاً في أصول دينهم وجماع شرائعهم ووجد في ذلك ما يشغله وما يغنيه عما أحدثه كثير من المتأخرين من أنواع المقالات التي تخالف ما كان عليه أولئك السلف وهؤلاء المتأخرون ممن ينتصب لعداوة آل بيت رسول الله ﷺ ويبخسهم حقوقهم ويؤذيهم، أو ممن يغلو فيهم غير الحق ويفترى عليهم الكذب»⁽²⁾.

ثم يذكر الرجل آل البيت بكل أدب واحترام لمكانتهم وتقديرًا لمنزلتهم فقال عن مولانا الإمام زين العابدين بن الحسين: «وأما علياً بن الحسين فمن كبار التابعين وساداتهم علماء ودينًا، وأخذ عن أبيه وابن عباس وروى عنه أبو

(1) رواه أحمد في مسنده ج1، حديث رقم 160 / 1.

(2) ابن تيمية، حقوق آل البيت، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987م، ص40 - 41.

سلمة بن عبد الرحمن ويحيى بن سعيد الأنصارى والزهرى، وله من الخشوع وصدقة السر وغير ذلك من الفضائل ما هو معروف»⁽¹⁾.

وقال عن حادث استشهاد الإمام الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وأما من قتل الحسين أو أعان على قتله أو رضى بذلك، فعليه لعنة الله وملائكته والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً» فقال له أحد الحاضرين: فما تحبون أهل البيت؟ فرد عليه الإمام بالقول: «محبتهم عندنا فرض واجب يؤجر عليه، فإنه قد ثبت عندنا في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أنه قال، خطبنا رسول الله ﷺ بغدير يُدعى «خما» بين مكة والمدينة فقال «أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله» فذكر كتاب الله وحض عليه ثم قال: «وعترتي أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي» ثم قال الإمام لسائله: ونحن نقول في صلاتنا كل يوم «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد» فقال السائل: فمن يبغض أهل البيت؟ فقال الإمام (رحمه الله) «من أبغضهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»⁽³⁾.

وكذلك يقول الإمام (رحمه الله) عن مولانا الإمام عليّ (كرم الله وجهه) في معرض رده على الروافض المغالين في آل البيت «أن يقال فضل عليّ وولايته

(1) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، 4/ 49.

(2) رواه مسلم، حديث رقم 1216، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده رقم 2/ 114، 4/ 367.

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج4، ص213.

لله وعلو منزلته عند الله معلوم عند الله ولله الحمد من طرق ثابتة أفادتنا العلم اليقيني لا يحتاج معها إلى كذب ولا إلى ما لا يُعلم صدقه»⁽¹⁾.

ويقول عن الإمام جعفر الصادق: «وجعفر الصادق من خيار أهل العلم والدين وقال عمرو بن المقدم: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين»⁽²⁾.

ثم تحدث شيخ الإسلام (رحمه الله) عن واقعة استشهاد الإمام الحسين باستفاضة واستدلالات أكثر عن الشهادة والمنزلة والبلاء فقال: «ومن ذلك أن اليوم الذي هو يوم عاشوراء الذي أكرم الله فيه سبط نبيه وأحد سيدا شباب أهل الجنة بالشهادة على أيدي من قتله من الفجرة الأشرار، وكان ذلك مصيبة عظيمة من أعظم المصائب الواقعة في الإسلام، وقد روى الإمام أحمد وغيره عن فاطمة بنت الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن جده رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من رجل يُصاب بمصيبة فيذكر مصيبته وإن قدمت، فيحدث لها استرجاعاً إلا أعطاه الله من الأجر مثل أجره يوم أصيب بها»⁽³⁾ فقد علم الله أن مثل هذه المصيبة العظيمة سيتجدد ذكرها مع تقادم العهد، فكان من محاسن الإسلام أن روى هذا الحديث صاحب المصيبة والمصاب به أولاً، ولا ريب أن ذلك إنما فعله الله كرامة للحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورفعاً لدرجته ومنزلته عند الله، وتبليغاً له منازل الشهداء والحقاً له بأهل بيته الذين ابتلوا بأصناف البلاء ولم يكن الحسن والحسين حصل لهما من الابتلاء ما حصل لجدتهما

(1) ابن تيمية، منهاج السنة، ج4، ص186.

(2) نفسه، ج1، 4 / 52.

(3) أخرجه أحمد في مسنده 1 / 201.

ولأهمها ولعمهم، لأنهما ولدا في عز الإسلام، وتريبا في حجور المؤمنين، فآتم الله نعمته عليهما بالشهادة أحدهما مسموماً، والآخر مقتولاً، لأن الله عنده من المنازل العالية في دار كرامة ما لا ينالها إلا أهل البلاء كما قال النبي ﷺ وقد سُئل: أى الناس أشد بلاءاً؟ فقال: «الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة»⁽¹⁾ وقد شقى بقتله من أعان عليه أو رضى به، فالذى شرعه الله للمؤمنين عند الإصابة بالمصائب وإن عظمت أن يقولوا: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 156]⁽²⁾.

هذا هو حديث الرجل عن آل البيت يا دعاة حب آل البيت وقاذفيه بالبغض لهم، هذا هو كلامه، الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وقتلة الحسين فجرة أشقياء، ومصيبة مقتل الحسين من أعظم المصائب في الإسلام، والحديث الذى روته فاطمة بنت الحسين كان كرامة للحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وشقى بقتل الحسين كل من أعان أو رضى.. تلك هى رؤية الرجل للإمام الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فماذا تنقمون عليه.

بل إنه (رحمه الله) ذكر أن من كرامة الحسين استشهاده في يوم عاشوراء فقال: «وقرر النبي ﷺ أن الله أنجى فيه موسى وقومه وأغرق فرعون وقومه وروى أنه كان فيه حوادث الأمم، فمن كرامة الحسين أن الله جعل

(1) أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد باب 57 وابن ماجه فى كتاب الفتن باب 23 والدارمى فى كتاب الرقاق باب 67.

(2) ابن تيمية، حقوق آل البيت، ص 45، 44.

استشهاده فيه، كما أن سابع عشر من رمضان كانت وقعة بدر وفيه استشهاد على⁽¹⁾.

وعندما تنقب بعينيك في تراث الرجل تجده يذكر أحاديثاً كثيرة في فضل آل البيت الكرام، مستشهداً بها في كلامه منها قوله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي»⁽²⁾.

ثم لما نزل قول الحق سبحانه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [السجدة: 33]، أدار النبي ﷺ كساءه على علي وفاطمة والحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وقال «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»⁽³⁾، ويقول الإمام في شرح هذا الحديث: «ولما بين سبحانه أنه يريد أن يذهب الرجس عن أهل بيته ويطهرهم تطهيراً دعا النبي ﷺ أقرب أهل بيته وأعظمهم اختصاصاً به وهم علي وفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسيدا شباب أهل الجنة، جمع الله لهم بين أن قضى لهم بالتطهير، وبين أن قضى لهم بكمال دعاء النبي ﷺ»⁽⁴⁾.

ثم يدل شيخ الإسلام على كون الحسن والحسين عماد بيت النبوة بحديث الصدقة فيقول «وثبت عنه ﷺ أن ابنه الحسن لما تناول تمرة من تمر الصدقة قال له: «كخ كخ أما علمت أنا آل بيت لا تحل لنا الصدقة»⁽⁵⁾.

(1) ابن تيمية، حقوق آل البيت، ص 48.

(2) ذكره الإمام ابن تيمية في حقوق آل البيت ص 29، والحديث رواه الترمذي في المناقب وأورده السيوطي في الجامع الصغير حديث رقم 224.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب 60 من حديث أم سلمة.

(4) ابن تيمية، حقوق آل البيت، ص 27.

(5) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب 6 وفي الجهاد باب 188.

هذه هى مكانة آل البيت عند الإمام ابن تيمية، وهذا حديثه عنهم، وهذا تقديره وحبه لهم، فأين أخطائه تلك فى آل البيت؟ وأين انتقاصه من حقوقهم؟ أين ذلك كله؟

لقد كان الإمام (رحمه الله) محباً وعاشقاً لآل البيت كعشق أى مسلم سنى يحب النبى ﷺ وعترته آل بيته، بل كحب أى صوفى معتدل بالشرع والعقيدة كالجنيد وعبد القادر وغيرهم ممن ذكرهم الرجل وشهد لهم بالاعتدال.

لذا، أزعـم أن الرجل كان صوفياً، لأنه لم يخرج فى حديثه عن آل البيت عن الحب الذى يعرفه الصوفية، وعن الحب الذى يعرفه أهل السنة، شاء من شاء، وأبى عن أبى .

2- موقفه من الصوفية:

قد تعجب - عزيزى القارئ - إذا قلت لك أن ابن تيمية كان متصوفاً، وقد يزداد عجبك إذا قلت لك بأنه لم يكن ضد الصوفية أو التصوف، بل تلك سمعة مغلوطة خرجت كحبكة درامية لعريضة الدعوى التى قدمت ضده أكثر من مرة، ولكم يبلغ عجبك إذا علمت أن للرجل نظرية فى التصوف قوبلت بالمعارضة الشديدة من بعض الطوائف التى تتشدد حيث لا ينبغى تشدد، والتى هاجمت الرجل بسبب رسالته المعنونة بـ «الصوفية والفقراء» والتى يمكن الوقوف على ملخصها كالتالى:

يبدأ الرجل الرسالة بالبحث فى مصدر اسم التصوف فيذهب إلى أنه أتى من لبس الصوف فيقول «وقيل هو المعروف أنه نسبة إلى لبس الصوف، فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة وأول من بنى دويرة

الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، ولهذا كان يقال: فقه كوفي وعبادة بصرية»⁽¹⁾.

الصوفية صديقو الأمة:

وفي مشهد لا يمكن وصفه، يذهب شيخ الإسلام إلى أن الصوفية هم صديقو الأمة، بما يمتلكونه من قلوب صافية وعبادة روحية خالصة، ولا أجد تعبيراً أفضل من كلام الرجل نفسه حيث يقول: «وإذا عرف أن منشأ التصوف كان من البصرة، وأنه كان فيها من يسلك من طريق العبادة والزهد ما له فيه اجتهاد، كما كان في الكوفة من يسلك من طريق الفقه والعلم ما له فيه اجتهاد، وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة وهي لباس الصوف، ف قيل في أحدهم: صوفي، وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف، ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال.

ثم التصوف عندهم له حقائق وأحوال معروفة، قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه، كقول بعضهم: الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر واستوى عنده الذهب والحجر.

التصوف: كتمان المعاني وترك الدعاوى وأشباه ذلك، وهم يسرون بالصوفي إلى معنى الصديق.

وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون كما قال الله تعالى: ﴿فَأَوْلِيكَ

(1) ابن تيمية، الصوفية والفقراء، ص 12.

مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ
أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ [النساء: 69].

- ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفي، لكن هو في الحقيقة نوع من الصديقين فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه، فكان الصديق من أهل هذه الطريق، كما يقال صديق العلماء، وصديقو الأمراء، فهو أخص من الصديق المطلق، ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم، فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين إنهم صديقون، فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة، إنهم صديقون أيضاً، كل بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده، وقد يكونون من أجل الصديقين بحسب زمانهم، فهم من أكمل صديقي زمانهم، وإن الصديق في العصر الأول أكمل منهم»⁽¹⁾.

الصوفي عند الإمام ابن تيمية من صفات الكدر، وامتلاء من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر... لا تشغل الدنيا باله، ولا يبدى اهتماماً بماله، ولا يتعلق قلبه بعياله، محبوبه الأول هو الله، فهو ملء القلب والفؤاد والصدر، هو مصدر المعية ومنبع الحب والعشق، هو سبحانه كل المطلوب، وكل المقصود، وكل الغاية.

هذا هو الصوفي الحق عند ابن تيمية، كلامه ينم عن مجرب لا عالم، لأن علم التصوف شيء، والتصوف ذاته شيء آخر، بل إن الصوفي المتذوق

(1) ابن تيمية، الصوفية والفقراء، ص 22 - 23.

قد لا يفلح في التعبير عما تذوقه، ولكن حديثه ينم عن أنه صوفي، ثم انظر إلى إيمانه بأن الصوفية هم الصديقون، «وهم يسرون بالصوفي إلى معنى الصديق.. وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون»...

هو إذن مؤيد، ويؤيد كلامه بالقرآن ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [النساء: 69]...

لم يبد الرجل اعتراضاً على الذين ساروا بالصوفي إلى درجة الصديق، بل ولعله هو الذي سار ولكنه تحدث بصيغة المبني للمجهول، ثم يتم روعة هذا الحديث بالقول: «ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفي، لكن هو في الحقيقة نوع من الصديقين».....

الصوفي نوع من الصديقين عند الإمام ابن تيمية يا من تتهمون به بالعداء للتصوف، لماذا يا إمام يكون الصوفي نوع من الصديقين، لأنه خصص نفسه لله، وزهد في كل شيء: «فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهد فيه».

وحتى يستقيم الأمر في فهم نظرية التصوف دون الوقوف عند حد «الصوفية صديقو الأمة»، فإن الرجل يقسم الصوفية إلى ثلاثة أصناف حسب العلم بالشرع والسنة، ليخرج من زمرة الصديقين المتمسحين بالتصوف وأدعيائه فيقول: «ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف صوفية الحقائق، وصوفية الأرزاق، وصوفية الرسم، فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم.

وأما صوفية الأرزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالحوانك فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فإن هذا عزيز، وأكبر أهل

الحقائق لا يتصدون بلوازم الخوانك ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط:

أحدها: العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويحجبتون المحارم.

والثاني: التأدب بأداب أهل الطريق وهى الآداب الشرعية فى غالب الأوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت إليها.

والثالث: ألا يكون أحدهم متمسكاً بفضول الدنيا، فأما من كان جماعاً للمال، أو كان غير متخلق بالأخلاق المحمودة، ولا يتأدب بالآداب الشرعية أو كان فاسقاً فإنه لا يستحق ذلك.

وأما صوفية الرسم: فهم المقتصرون على النسبة، فهمهم فى اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك، فهؤلاء فى الصوفية بمنزلة الذى يقتصر على زى أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم، بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم وليس منهم»⁽¹⁾.

هذه القسمة أراد بها الإمام توضيح موقفه حتى لا يغالى فيه أحد، لا مؤيد ليصف الرجل بأنه مقر بكل أفعال المنتسبين إلى التصوف، أقصد جهلة التصوف الذين ادخلوا على الدين ما ليس منه وتوسلوا بغير الله وذبحوا لغيره سبحانه، ولا يعلمون عن الصوفية ولا التصوف سوى الاسم والرسم، الشكل دون المضمون، العرض دون الجوهر، ولا معارض كذا الذى كتب مقدمة رسالة الإمام عن «الصوفية والفقراء» وأبدى اعتراضه من أول كلمة كتبها «لا يا شيخ الإسلام» ثم اتهم الرجل بالتقصير فى هذا البحث مشيراً ببحث إلى أن ظروف معينة منعه من اتمام بحثه، وكأنه يوعز إلى القارئ أن الإمام كان

(1) ابن تيمية، الصوفية والفقراء، ص 24 - 25.

يخاف من شيء أو من أحد معين، دون أن يشفع له سجن الرجل مدى الحياة، وخروجه من سجن ليدخل سجناً آخر، ليدد هذا الظن السيئ، ولكن الإمام يضع نظريته في التصوف خالصة صافية سائغة لذة للشاربين، فلا هو مؤيد للشطط والشطحات غير الشرعية، ليس شطحات الأقوال كمحيي الدين بن عربي أو أحد السادة الصوفية، ولكن شطحات الاعتقاد كالنذر والذبح وعبادة القبور من دون الله، ولا هو مؤيد للذين يجنحون ضد التصوف ويتهمون أهله زوراً وبهتاناً ويضرمون نار الحقد ضد التصوف وأهله.

نعم، لقد جاءت نظرية الرجل كأوسط ما يكون، وكأعظم ما يكون، ولعل الشيخ حسنين مخلوف قد أحسن فهم تلك الحقائق واستساغ قلبه نظرية الإمام في التصوف فكتب يقول: «إن ابن تيمية الذي قضى حياته كلها مكافحاً ومناضلاً في سبيل تنقية عقائد المسلمين مما علق بها من بدع وأوهام وخرافات، ليس من المعقول أن يرفض هذا النوع من التصوف النقى، أى التصوف السنى من الشوائب، الذى ليرى خالطه زيغ ولا شطط ولا جهل ولا ابتداع، وهو تصوف العلماء والنسك العارفين بالله تعالى، القائم على حدوده، المتمسكين بشريعته، وجعلهم من السلف الصالح، وأئمة الهدى وعلماء الدين! بل إن ابن تيمية لا يقل شيئاً عن الصوفى الأصيل الذى يُعبر عن وجده وشطحاته بعبارات غامضة غريبة، فبحده يتذوق مباحث جذبه وهيامه، بل إن روح ابن تيمية أكثر بهجة وضياءً من كلام بعض كبار الصوفية، لأنه يخاطبنا بلغة القرآن الكريم، الذى ظلت له القلوب خاشعة فيقول: «وقد يشاهد من المؤمنين من جلال الله وعظمته وجماله أموراً عظيمة تصادف قلوباً رقيقة، فتحدث غشياً وإغماءاً، ومنها ما يوجب بالموت، ومنها ما يُخل بالعقل»، بل إن ابن تيمية الذى تطلع إلى

المحبة الإلهية وكابد الشوق نحو معرفة الله تعالى لم يخل قلبه من تأثيرات الحب الإلهي، ولكنه أمام العداء الشديد للإسلام عن طريق التتار في عصره، والغزو الثقافي الذي حاول طمس المعالم الأساسية للدين الإسلامي الخفيف، يتمسك بالمنهج السلفي لكي يواجه كل ذلك، فكان عنيفاً صارماً في مواجهة خصومه الكثيرين⁽¹⁾.

ولكم نزل هذا الحديث على القلوب برداً وسلاماً، أحد علماء الأزهر «الشيخ حسنين مخلوف» يقول بأن الإمام ابن تيمية كان ذا وجد أكثر من بعض كبار الصوفية.. ثم يبين الرجل عمق فهمه لنظرية التصوف عند الإمام فيقول بأنه لم يفصح عن تصوفه بسبب ظروف عصره والحروب المتتالية التي خاضها ضد التتار، فالتزم بالمنهج السلفي.. وإن كان هذا فهماً عميقاً إلا أنه غير مكتمل لسبب بسيط وهو أنه لا تعارض أبداً بين المذهب السلفي الصحيح والمذهب الصوفي الصحيح ولكن مغالاة بعضاً من أنصار المذهبين، هي التي صنعت تلك الخلافات التي فرقت الأمة الواحدة وأضعفت شوكتها، لذا كانت ثورة الإمام (رحمه الله) للم شمل هذه الأمة مرة أخرى.

لكن يشهد على حال ابن تيمية الذي ذكره الشيخ مخلوف، حياة ابن تيمية الواقعية التي شغلت بالعبادة والجهاد، يقول الإمام البزار: «فما رأينا من العلماء أحداً قنع من الدنيا بمثل ما قنع هو منها، أو رضى بمثل حالته التي كان عليها، لم يُسمع أنه رغب في زوجة حسناء، ولا سرية حوراء، ولا دار قوراء، ولا ممالك جوار، ولا بساتين ولا عقار، ولا شدّ على درهم ولا دينار،

(1) ابن تيمية، رسالة المسترشدين، المقدمة للشيخ حسنين مخلوف، نقلاً عن ابن تيمية في الميزان ص 69 - 70.

ولا رغب في دواب ولا نعم، ولا ثياب ناعمة فاخرة ولا حشم، ولا زاحم في طلب الرياسات، ولا رُئي ساعياً في تحصيل المباحات، مع أن الملوك والأمراء والتجار والكبراء، كانوا طوع أمره، خاضعين لقوله وفعله»⁽¹⁾ هذا هو حال الرجل، وتلك كانت حياته، وهذا مذهبه في التصوف لدرجة أنه دُفن في مقابر الصوفية، ولكن لأنه رأى التراشق بين أدعياء السنة وأدعياء التصوف، فوقف بين الطرفين منادياً على الجميع... أنتم أبناء أمة واحدة، تعبدون رباً واحداً ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92] فلا تغفلوا عن تلك الوحدة التي أرادها لكم ربكم.

رابعاً: وحدة الأمة المسلمة

وقف الرجل في ساحة القضاء، القضاة يجلسون في شرفة عالية، والخصوم يجلسون في شرفة دون شرفة القضاة بقليل، والأتباع يفترشون الأرض، بينما الرجل يقف خلف القضبان، يستعيد شريط الذكريات، حيث قدوم غير ميمون للتتار، وحيث ضعف الأمة وانحلالها وتفرقها وتمزقها، وحيث كثرة الطوائف والفرق والنحل في بلاد الإسلام، وحيث تعدد الأحزاب، كل حزب بما لديهم فرحون، وحيث ينخر السوس في جسد الأمة الواحدة.

ذكريات مريرة، قاسية، كلها ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ثم هو الآن خلف القضبان لهذا السبب ذاته، التمزق والتشرذم والتحزب، كل فرقة تكيد للآخرى، وكل طائفة تمكر بالآخرى،

(1) البزار، الأعلام العلية، ص 46.

وكل مذهب يدعى لنفسه الصحة والعصمة والكمال، ويضيع العامة بين هذه الصراعات، وفي النهاية يُفلح الأعداء في اختراق جسد الأمة فيشبعونها ضرباً وركلاً وقتلاً، وهذا كله مما تمتلئ به صفحات التاريخ.

ثم يتذكر الرجل أنه الآن يقف هذا الموقف بسبب عداء بعض الصوفية له واتهامهم له بازدراهم والسخرية منهم، فيرى أن الخلاف بلغ مبلغه، وأن القلوب صدأت، ولا حل لهذه الأمة سوى بالاتحاد والألفة فيصرخ من خلف القضبان... كيف بكم يا أمة محمد وقد تمزقتم شر ممزق، وقد تفرقتم طرائق قدداً، وقد عبث الأعداء بعقولكم، وملأت الدنيا أفئدتكم، وأشبع الأناية قلوبكم، فيكيد بعضكم لبعض، وتغضون الطرف عن الأعداء، ما لكم تنازعتم ففشلتهم وذهبت ريحكم، وتنافستم الدنيا كما تنافسها الذين من قبلكم فأهلكتكم كما أهلكتهم، ما لكم وقد سبانا الله بالأمة الواحدة، وجعل كل فرد فينا يحمل هموم أخاه، ويفديه بروحه، فكيف بكم وأنتم تبحثون لبعضكم البعض عن المصائب، وكيف تحفرون المصائب بأيديكم لإخوانكم؟ «إذا كان الله تعالى قد أمرنا بطاعته وطاعة رسوله وأولى الأمر منا وأمرنا عند التنازع في شيء أن نرده إلى الله وإلى الرسول، وأمرنا بالاجتماع والإئتلاف ونهانا عن التفرق والاختلاف، وأمرنا أن نستغفر لمن سبقنا بالإيمان، وسبانا المسلمين، وأمرنا أن نداوم عليه إلى الممات، فهذه النصوص وما كان في معناها توجب علينا الاجتماع في الدين كاجتماع الأنبياء قبلنا»⁽¹⁾ ذلك أن أمر الله قد أكمل لنا ديننا وأتم علينا نعمته ورضى لنا الإسلام ديناً، وأمرنا أن نتبع صراطه المستقيم ولا نتبع السبل فتفرق بنا عن

سبيله، وجعل هذه الوصية خاتمة وصاياه العشر التي هي جوامع الشرائع التي تضاهي الكلمات التي أنزلها الله على موسى عليه السلام في التوراة وإن كانت الكلمات التي أنزلت علينا أكمل وأبلغ وأمرنا ألا نكون كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، وأخبر أن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء⁽¹⁾.

كلمات خرجت من قلب موجوع.... محزون..... مهموم..... قلب يبحث عن الآخر لا الأنا، عن الدين لا النفس، عن الجماعة لا الفرد، لا يهمه السجن أو حتى القتل بقدر ما يهمه مصلحة تلك الأمة التي أفنى حياته خدمة لها وذوداً عن حرمتها.

إن القرآن والسنة يحثان على اجتماع ووحدة الأمة المسلمة وأن المسلمين أولياء بعض، وبالتالي فالواجب على المسلم أن يزيل من قلبه كل رواسب الخلاف والإرجاف، فإذا صار في مدينة من مدائن المسلمين فيصلي بصلاتهم ويوالي المؤمنين ولا يعاديهم وإن رأى بعضهم ضالاً أو غاوياً وتمكن من هدايته وإرشاده فليفعل، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها وعليه أن يبني كل صلة تقرب بين جماعات المسلمين، وأن يهدم كل بنيان شيد لتلك التفرقة فإنه أسس على غير تقوى من الله.

ويذهب الإمام ابن تيمية إلى أن هناك أسباب ثلاثة رئيسة أدت إلى اختلاف الأمة الإسلامية يمكننا اجمالها كالتالي:

1- كيد الكفار والمشركين لهذه الأمة مثلما نص على ذلك القرآن في مواضع

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 28، ص 118

عدة ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120] ثم إنهم ينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنفال: 36] وغير ذلك من نصوص تؤكد عدائهم للإسلام إلى أن فضح الله كيدهم بقوله (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [الأنفال: 30] فهم لا يفتنون يتركون فرصة للكيد للإسلام وأهله إلا اغتتموها⁽¹⁾ يقول الإمام ابن تيمية: «والوسائل الخفية عندهم لضرب الإسلام أكثر وأقوى من الوسائل الظاهرة، فهم قد تألفوا على الباطل، وتعاونوا على الإثم والعدوان، وتمزيق وحدة المسلمين وزرع الخلاف والشقاق بينهم، وبذر الخصومة والنقائل فيهم، كل عدو حسب طريقتة وقدرته ووسائله وإمكاناته، لا نستثنى منهم أحداً، فوالله ليس لنا في أولئك الأعداء من صديق ولا رفيق ولا مخلص ولا شفيق»⁽²⁾.

2- لعل العنصرية في الرأي والرغونة في الفكر لدى بعض الأفراد والمؤسسات، أو حتى من مواقع السلطة، فتلك آفة ترسخ للتفرق والتشردم: «ولعل مرد معظم اختلافاتنا اليوم إلى عوج في الفهم تورثه علل النفوس من الكبر والعجب بالرأى والطواف حول الذات والافتتان بها، واعتقاد أن الصواب والزعامة وبناء الكيان إنما يكون باتهام الآخرين بالحق والباطل، الأمر الذي قد يتطور حتى يصل إلى الفجور في الخصومة والعياذ بالله»⁽³⁾ الخصومة بين الأفراد، والخصومة بين المجتمعات، والخصومة بين الدول

(1) تفسير القرطبي، ج6، ص216.

(2) ابن تيمية، رسالة الألفة بين المسلمين، ص6.

(3) د. عبد الفتاح أبو غدة، مقدمة رسالة الألفة لابن تيمية، ص8.

لدرجة تقود البعض إلى تكفير الآخرين: «فكيف إذا بلغ الأمر ببعض الناس إلى أن يضلل غيره ويكفره، وقد يكون الصواب معه وهو الموافق للكتاب والسنة، ولو كان أخوه المسلم قد أخطأ في شيء من أمور الدين فليس كل من أخطأ يكون كافراً ولا فاسقاً، بل قد عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان»⁽¹⁾ ولعل هذا السبب هو الذي أوصلنا إلى طريق اللاعودة، طريق التناحر بين الأحزاب والجماعات المختلفة، كل حزب بما لديهم فرحون، وهو ما رسخ للفرقة والتشردم.

3- الأحزاب والجماعات في أمة التوحيد: من العجيب أن القرآن أعلن بصراحة لا مواربة فيها لا تورية أننا أمة واحدة فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنبياء: 92] أمة واحدة العقيدة، متوحدة القلوب، إذا اشتكى فرد فيها يتألم لألمه سائر المجتمع كالعضو في الجسد، أمة سمع حاكمها صوت المظلوم عندما ناداه، واعمراه، وامعتصماه، لأنها أمة تجمع العقيدة بين قلوب أبنائها وتوحدهم وتجعلهم جميعاً منصهرين في سبيكة واحدة.

والإمام ابن تيمية يعالج تلك القضية على ثلاث مراحل، الأولى نبذ تلك الاختلافات والمسميات، والثانية وجوب التوحيد وعدم تكفير بعضنا البعض، والثالثة ابتغاء وجه الله في كل الأفعال.

ففى المرحلة الأولى ينفى الإمام افتراض وجود مسميات تشتت الأمة وتمزقها وتفتتها تحت مسميات مختلفة: «وكذلك من البدع المخالفة لأهل

(1) ابن تيمية، رسالة الألفة، ص 115.

السنة والجماعة، التفريق بين الأمة وامتحانها بما لـه يأمر به الله ولا رسوله، مثل أن يُقال للرجل، أنت سُكيلي أو قُرفندي، فإن هذه أسماء باطلة ما أنزل الله بها من سلطان، وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ ولا في الآثار المعروفة عن سلف الأمة لا شكيلي ولا قُرفندي والواجب على المسلم إذا سئل عن ذلك أن يقول لا أنا شكيلي ولا قُرفندي، بل أنا مسلم متبع لكتاب الله وسنة رسوله، والله تعالى قد سمانا المسلمين، المؤمنين، عباد الله فلا نعدل عن الأسماء التي سمانا بها إلى أسماء أحدثها قوم وسموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان، بل الأسماء التي قد يسوغ التسمي بها مثل انتساب الناس إلى إمام كالحنفي والمالكي، أو إلى شيخ كالقادري، فلا يجوز لأحد أن يمتحن الناس بها ولا يوالى بهذه الأسماء ولا يُعادى عليها، بل أكرم الخلق عند الله اتقاهم من أى طائفة كان»⁽¹⁾.

ثم يوجه الإمام أيضاً النقد إلى تلك المسميات التي تُصنف الأمة وفقاً لها فيقول: «وكذلك التفريق بين الأمة وامتحانها بما لـه يأمر به الله ولا رسوله، وقد روينا عن معاوية بن أبي سفيان أنه سأل عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: أنت على ملة علي، أو ملة عثمان؟ فقال لست على ملة علي ولا على ملة عثمان، بل أنا على ملة رسول الله ﷺ وكذلك كان كل من السلف يقولون، كل هذه الأهواء في النار، ويقول أحدهم، ما أبالي أى النعمتين أعظم؟ على أن هداني الله للإسلام أو أن جنبني هذه الأهواء»⁽²⁾.

إن أى خيار للأمة غير سبيل الوحدة هو خيار الخزي والذل بين الأمم، يقول

(1) ابن تيمية، رسالة الألفة بين المسلمين، ص 109.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 3، ص 263.

الدكتور السيد رزق الطويل (رحمه الله): «الأمة الإسلامية أتت الهجير فظنته ماءً، ثم لم تجد عنده سوى الفقر والقر والهجور، فازدادت ضعفاً إلى ضعفها، وحكمت الأهواء مكان شرع ربها فأصبحنا أذلة بعد عز، وضعفاء بعد قوة، ومهانين بعد عظمة ورفعة، ظننا الوحدة خير من الجماعة ففوجئنا بالوحدة تقتلنا وتضعف شوكتنا وتأكل من رصيدنا عند البشر، وعند رب البشر»⁽¹⁾.

ثم تأتي المرحلة الثانية ليرفض الإمام ابن تيمية تكفير المسلمين بعضهم لبعض وكيهمم الإتهامات، لأن الاختلافات لا تُخرج صاحبها من الدين: «ولا يجوز تكفير المسلم بذنوب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة، فإن الله تعالى قال ﴿أَمَّا الرَّسُولُ فَمَا نُزِّلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ أَمَّا بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» [البقرة: 285] وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء وغفر للمؤمنين خطاهم.

والخوارج المارقون الذين أمر النبي ﷺ بقتالهم قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ولم يكفرهم علي بن أبي طالب وسعد ابن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم، ولم يقاتلهم على حتى سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على أموال المسلمين، فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم لا لأنهم كفار، ولهذا لم يسب حريمهم ولم يغنم أموالهم»⁽²⁾.

(1) د. السيد رزق الطويل، وحدثنا قدرنا، مقال منشور بمجلة منبر الإسلام، العدد 7 للسنة 38 - مايو 1996م.

(2) ابن تيمية، رسالة الألفة بين المسلمين، ص 86.

فالفتن التي تقع بين المسلمين رغم كونها كبيرة وعظيمة عند الله وعند المخلصين إلا أنها لا تُخرج عن الملة ولا تبيح الدماء، فقد قاتل السلف بعضهم بعضاً من أهل الجمل وصفين، وقُتل من الطرفين كثير من صحابة رسول الله ﷺ وهم خير جيل في خير القرون، ومع ذلك بيّن الله أنهم في النهاية إخوة، وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفُتِّنَا لَهَا أَنْ تَبْغِيَ حَتَّىٰ تَقَىٰ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: 9، 10] فسامهم القرآن إخوة ذلك أنهم كانوا يقتتلون لما يعتقدون أنه دفاعاً عن الدين والحق والعدل لا عن هوى في أنفسهم، يقول الإمام ابن تيمية: «ولذا كان السلف مع الاقتتال يوالى بعضهم بعضاً موالاة الدين، لا يُعادون كمعاداة الكفار، فيقبل بعضهم شهادة بعض ويأخذ بعضهم العلم عن بعض، ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض، مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك» (1).

وهذا أدعى لنبذ الخلاف، لأننا في النهاية إخوة، في النهاية أبناء عقيدة واحدة، ونعبد إلهاً واحداً، في النهاية نحن ورثة النبوة، أحفاد الخليل إبراهيم، الذي سَمانا المسلمين، لمر يقسمنا إلى طوائف ولا إلى أحزاب، ولكنه فقط ارتضى لنا الإسلام عقيدة وديناً.

أما إذا صممت تلك الفرق والأحزاب على الاختلاف واستقلال كل فرقة بنفسها فالواجب عليها أن تخلص لله نيتها وتبتغي وجه الله بدعوتها،

(1) المصدر السابق، ص 90.

والواجب على أعضائها ألا يدعوا لحزبية ولا طائفية ولا عصبية: « فالمذاهب والطرائق والسياسات للعلماء والمشايخ والأمرء، إذا قصدوا بها وجه الله تعالى دون الأهواء ليكونوا متمسكين بالملة والدين الجامع الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم من الكتاب والسنة قدر الإمكان بعد الاجتهاد التام، هي لهم من بعض الوجوه بمنزلة الشرع والمناهج للأنبياء، وهم مثابون على ابتغائهم وجه الله وعبادته وحده لا شريك له ويثابون على طاعة الله ورسوله فيما تمسكوا به لأنه شرع رسوله ومنهاجه كما يثاب كل نبي على طاعة الله في شرعه ومنهاجه.

ويتنوع شرعهم ومناهجهم، مثل أن يبلغ أحدهم الأحاديث بالفاظ غير الألفاظ التي بلغت الآخر، وتفسر له بعض آيات القرآن بتفسير يخالف لفظه لفظ التفسير الآخر ويتصرف في الجمع بين النصوص واستخراج الأحكام منها بنوع من الترتيب والتوفيق ليس هو النوع الذي سلكه غيره، وكذلك في عباداته وتوجهاته وقد يتمسك هذا بآية أو حديث، وهذا بحديث أو آية أخرى.

وكذلك في العلم، من العلماء من يسلك بالاتباع طريقة ذلك العالم، فتكون هي شرعهم حتى يسمعوا كلام غيره ويروا طريقته فيرجح الراجح منهما، فتتنوع في حقهم الأقوال والأفعال السالفة لهم من هذا الوجه، وهم مأمورون بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه كما أمرت الرسل بذلك، ومأمورون ألا يفرقوا بين الأمة بل هي أمة واحدة كما أمرت الرسل بذلك، وهؤلاء أكد، فإن هؤلاء تجمعهم الشريعة الواحدة والكتاب الواحد وأما القدر الذي تنازعوا فيه فلا يقال إن الله أمر كلاً منهم باطناً وظاهراً

بالتمسك بما هو عليه، كما أمر بذلك الأنبياء، وإن كان هذا قول طائفة من أهل الكلام، فإنما يُقال إن الله أمر كلاً منهم أن يطلب الحق بقدر وسعه وإمكانه، فإن أصابه وإلا فلا يُكلف الله نفساً إلا وسعها، وقد قال المؤمنون ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286] وقال الله: قد فعلت⁽¹⁾ وقال تعالى ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ [الأحزاب: 5].

فمن ذمهم ولا مهم على ما لم يؤاخذهم الله عليه فقد اعتدى، ومن أراد أن يجعل أقوالهم وأفعالهم بمنزلة قول المعصوم وفعله وينتصر لها بغير هدى من الله فقد اعتدى واتبع هواه بغير هدى من الله، ومن فعل ما أمر به بحسب حاله، من اجتهاد يقدر عليه، أو تقليد إذا لم يقدر على الاجتهاد، وسلك في تقليده مسلك العدل، فهو مقتصد، إذ الأمر مشروط بالقدرة ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]، فعلى المسلم في كل موطن أن يُسلم وجهه لله وهو محسن ويدوم على هذا الإسلام، فالإسلام وجهه إخلاصه لله وإحسان فعله الحسن⁽²⁾...

كلمات طيبة، رقيقة، خرجت من قلب رقيق يبحث عن وحدة ومصلحة هذه الأمة، باعتبار تلك الوحدة أحد مقاصد الشريعة الغراء، ولسان حاله يقول: «فليسع بعضنا بعضاً فيما اتفقنا فيه وليعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه»...

لقد حذر النبي ﷺ من تلك الفتن، فعن علي بن أبي طالب كرم الله

(1) رواه مسلم 2/ 146 وأورده ابن تيمية في الألفة بين المسلمين، ص 85.

(2) ابن تيمية، رسالة الألفة بين المسلمين، ص 83، 84، 85 وقد رأيت نقل النص كاملاً لعموم فائدته.

وجهه عن النبي ﷺ أنه قال «ستكون فتنة، قلت فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعى إليه هُدى إلى صراط مستقيم»⁽¹⁾.

والرجل لا يريد أكثر من هذا، الاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه الكريم ﷺ لصناعة قوة داخلية إسلامية تستطيع مجابهة المخاطر، أما إذا استمرت الخلافات البنذاتية فإنها لن تنتج إلا مزيداً من اتساع الرقعة في الثياب ونصراً للأعداء بلا عدة ولا جند: «وما نتجت تلك المواجهات الداخلية إلا لغياب العقل والفهم السليم للدين، والجبن وحب الدنيا، حيث أنه لما جُبنت النفوس عن مواجهة العدو الحقيقي اتجهت النفوس الضعيفة لاتخاذ المخالف في المذهب عدواً وجعل البأس الداخلي شديداً وادخار الرحمة للأعداء، وهذا من باب البلاء»⁽²⁾.

لقد أودى الإسلام في سيرته وسمعته، وفي قضايا أوطانه وأمته، بوحى من التعصب الأعمى والمذهبيات المصطنعة والطائفيات المفتعلة التي تقطر سماً على الإسلام وأهله!

(1) أخرجه الترمذى فى كتاب ثواب القرآن باب 14، والدارمى فى السنن كتاب فضائل القرآن من باب 1.

(2) د. اليمانى الفخرانى، المرجع السابق، ص 19.

وإذا استمر هذا العوج النفسى والانحراف الخُلُقِى فلا تنتظر إلا مزيداً من التراجع الحضارى، ومزيداً من الضمور الثقافى والجذب العقلى، والشلل الفكرى⁽¹⁾.

فهل يعى أبناء الأمة الواحدة مقاصد دينهم، هل يحققون تلك الوحدة التى هى بالأساس أحد مقاصد عقيدتهم التى يعتقدون، ودينهم الذى يدينون، هل تكبر قلوبنا كما تكبر ألسنتنا فى الأعياد، وهل تتصافح تلك القلوب كما تتصافح الأيدي⁽²⁾، إنه الحلم الجميل الذى سرعان ما طار من العيون، سلبه الواقع بكل مآسية، سواءاً بأعدائه من الخارج، أو بالمنافقين من الداخل، حتى تكالبت علينا الأمم، ووضعنا من قدرنا الذى رفعنا الله إليه، فهل نعيد الآن هذا المقصد الجميل خاصة مع ازدياد الحاجة إليه هذه الآونة بعد أن صار الإسلام كله فى خندق، وفى مأزق، وبعد أن أعلنت الحرب على كل ما هو إسلامى، هل تستفيق تلك الأمة التى سماها ربها بالأمة الواحدة، ذاك كان حلم الإمام ابن تيمية، وسيظل حلماً لكل المخلصين إلى أن يتحقق موعوده سبحانه ﴿وَرُبُّدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الدِّينِ أَسْتَضِعُّوْا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 5].

خامساً: الآخر العقائدى عند ابن تيمية:

أثم الرجل حديثاً بالتشدد وصناعة الإرهاب والتعنّت ضد الجميع سواءاً

(1) محمد عبد الشافى القوصى، ابن تيمية فى الميزان، ص 8.

(2) د. محمد ممدوح عبد المجيد، الحسين سيد الأحرار، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، سنة 2012، ص 189 وما بعدها.

كانوا مسلمين أم غير مسلمين، فالتعنت ضد المسلمين أخذ حقه من الرد في التصوف والأمة الواحدة، أما التعنت ضد غير المسلمين فيكفى للرد عليه رؤية الإسلام للآخر العقائدي من وجهة نظر الإمام (رحمه الله).

لقد وسعت مظلة الإسلام العالمين بإسادة، ووسعت رحمته كل شيء، حتى المختلفين معه عقائدياً لم يقف ضدهم، وإنما حفظ لهم نفوسهم وأموالهم وأعراضهم ونسلهم ولم يتركهم فريسة أبداً لغيرهم، كما سنرى، وكى تتضح رؤية الإسلام لمعاملة الآخر العقائدي لابد من توضيح عدة نقاط هامة كالتالى:

1- وصية الإسلام بالأمن والسلام لربوع الأرض.

2- وصية الإسلام بالآخر:

أ- أقسام هذا الآخر.

ب- وصايا الإسلام بهم.

وتفصيل ذلك فيما يلي:

1- وصية الإسلام بالأمن والسلام لربوع الأرض:

أوصى الإسلام بالأمن والسلام للجميع بغض النظر عن التوجه العقدي فقال سبحانه ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 112] ثم خص مصر بالأمان فقال ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف:

[99] ثم ذكر دعوة الخليل إبراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 126] أضف إلى ذلك أن الله اسمه السلام ﴿الْسَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: 23] ثم أمر سبحانه بالسلام ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: 61] ثم جعل السلام تحية أهل الإسلام وتحية أهل الجنة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 23، 24] ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 45] ونظائر هذه الآيات كثير في محكم التنزيل، أما في السنة فأحاديث الأمن والأمان أكثر من الحصر، من ذلك ما رواه الإمام مسلم عن إياس بن سلمة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «من سلّ علينا السيف فليس منا»⁽¹⁾ وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من حمل علينا السلاح فليس منا ومن غشنا فليس منا»⁽²⁾، ونظائر ذلك كثير أيضاً في السنة.

يقول الأستاذ أحمد حسين ما نصه: «الإسلام دعوة إلى السلام، وإذا كانت كلمة الإسلام معناها «الإنقياد والطاعة» فقد اشتقت مادة الكلمة من السلام، وتحية المسلمين «السلام عليكم» ويُندد القرآن ويُحذر من الاعتداء على من يُلقى عليك السلام ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء: 94] فهو لم يدع

(1) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ من حمل علينا السلاح فليس منا، حديث رقم 162/99، ص 66.

(2) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ من حمل علينا السلاح فليس منا، حديث رقم 164/101، ص 66.

للسلام فحسب بل بنى كل تعاليمه وأهدافه على موجبات السلام، ومن هنا كانت تحية المسلمين «السلام عليكم» وذلك على خلاف جميع شعوب العالم والذين يُحيون بعضهم البعض بـ «صباح الخير» و«مساء الخير» لا يشذ عن ذلك العرب أنفسهم في الجاهلية حيث كانت تحيتهم «عم صباحاً وعم مساءً» جاء الإسلام ليقول للدنيا «السلام عليكم» وليس عن طريق الصدفة أن كانت كلمة الإسلام هي تقريباً السلام.

وعندما امتشق المسلمون السلاح فقد امتشقوه محافظة على سلام البشر وأمنهم وحقهم في الحياة وحرية العقيدة ولكن السلام ظل هو الهدف النهائي وهو الغاية، ومن هنا فقد طلب القرآن من سيدنا محمد ﷺ أن يلوذ بالسلم بمجرد أن يجنح محاربوه إليه ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾⁽¹⁾.

2- وصية الإسلام بالآخر العقائدي:

لعل أفضل رد على الآثمين في الداخل والخارج أن يعرفوا ماذا فعل الإسلام للآخر العقائدي، كيف تسامح معهم، وكيف حفظ أموالهم وأعراضهم، كما نرد على الافتراءات حول موضوع الجزية ولماذا شرعت؟ فهذا كفيلاً بتغيير نظرة هؤلاء إن كانوا حقاً موضوعيين كما يدعون.

أ- أقسام الآخر العقائدي:

نقصد بالآخر العقائدي، كل من يدين بغير الإسلام كاليهود والنصارى والصابئة والمجوس ويدخل معهم ضمناً المحاربين والمرتدين، فكل هؤلاء

(1) أحمد حسين، تفسير سورة ق، مقال منشور بمجلة منبر الإسلام، العدد 4 لسنة 31 مايو 1973م، ص 20.

لهم ضمانات الحياة الكريمة في الإسلام، وتالياً يمكننا تقسيم هذا الآخر إلى:

(1) **الذميون:** تفسر الذمة بالعهد والأمان، فُسمى المعاهد ذمياً نسبة إلى الذمة بمعنى العهد⁽¹⁾ الذي يؤمن معه الإنسان على ماله ودمه وسُميت بالذمة لأن: «الذمة ما يُذم على إضاعته من عهد أو أمان»⁽²⁾.

والذميون هم الذين يقيمون بين المسلمين إقامة دائمة بموجب عقد الذمة، وهم في الأصل من سكان البلاد التي فتحها المسلمون وفضل هؤلاء البقاء فيها فدخلوا في ذمة المسلمين، وهم الذين فرض عليهم الإسلام الجزية ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29] ويفرق الإمام ابن تيمية بينهم باعتبارهم أهل كتاب وبين المشركين، ففي تفسير قوله تعالى ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: 5] يقول ما نصه: «إن أهل الكتاب غير المشركين بدليل قوله ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الحج: 17]، فإن قيل: فقد وصفهم بالشرك بقوله ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 31]، قيل: أهل الكتاب ليس في أصل دينهم شرك، فإن الله إنما بعث الرسل بالتوحيد، فكل من آمن بالرسول والكتب لم يكن في أصل دينهم شرك ولكن النصارى ابتدعوا الشرك، كما

(1) أبو الطيب آبادي، عون المعبود، ط2، ج7، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1415هـ، ص313.

(2) المناوى: فيض القدير، ط1، ج3، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، سنة 1356هـ، ص565.

قال ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: 18]، فحيث وصفهم بأنهم أشركوا فلأجل ما ابتدعوه من الشرك الذي لمر يأمر الله به، وحيث ميزهم عن المشركين، فإن أصل دينهم إتباع الكتب المنزلة التي جاءت بالتوحيد لا بالشرك، فإذا قيل: أهل الكتاب لمر يكونوا من هذه الجهة مشركين، فإن الكتاب الذي أضيفوا إليه لا شرك فيه، كما إذا قيل: المسلمون وأمة محمد لمر يكن فيهم من هذه الجهة لا اتحاد ولا رفض ولا تكذيب بالقدر ولا غير ذلك من البدع، وإن كان بعض الداخلين في الأمة قد ابتدع هذه البدع، لكن أمة محمد ﷺ لا تجتمع على ضلالة، فلا يزال فيها من هو متبع لشرعية التوحيد بخلاف أهل الكتاب، ولمر يخبر الله عز وجل عن أهل الكتاب أنهم مشركون بالإسم، بل قال ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالفعل سبحانه وتعالى عما يشركون⁽¹⁾.

(2) المعاهدون (المستأمنون أو الأجانب): وهم من قدموا من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو عقد معاهدة أو غير ذلك من أسباب وطلبوا من الإمام أماناً فأعطاهم أماناً ما داموا مترددين في الإسلام⁽²⁾.

والمعاهد هو المستأمن من أهل الحرب إذا دخل أرض الإسلام فهو يأمن فيها على نفسه وماله وعرضه، ويصبح بهذا العهد حليفاً مع المسلمين، على أن يكون أمرهما واحداً في النصر والحمية⁽³⁾ ويختلف المعاهدون عن

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 14، ص 57.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 2، مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ت، ص 337.

(3) أبو الطيب آبادي، عون المعبود، ج 4، ص 189.

الذميّين في أن المعاهدين هم الأشخاص الذين يدخلون الديار الإسلامية لمدة محدودة، وليس بنيتهم الإقامة الدائمة، فإذا دامت إقامة الشخص عومل معاملة أهل الذمة⁽¹⁾.

(3) المحارب: وهو ذاك الذي يعتدى على أرض المسلمين أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وهؤلاء هم الذين أوجب الإسلام قتالهم واستباحة أموالهم لأنهم أتوا ديارنا معتدين ومثالهم الحى بنو صهيون الذين أتوا أرضنا فسلبوها وهجروا أهلها واستباحوا دمايتهم واغتصبوا وطناً ليس لهم ليقيموه على جثث الشهداء ويرتووا من بحار الدماء التى سالت من الشباب والأطفال والشيوخ دون تفريق بينهم، ودون أدنى درجة من رحمة أو قيم أو دين أو أخلاق أو حتى عُرف، فهؤلاء جزاءهم القتل، ليس افتراءً، ولكن مثلاً بمثل، فنقتلهم مثلما قتلونا وقتلوا أطفالنا، ومع أنهم مثلوا بأطفالنا وشهدائنا، إلا أن الإسلام حرّم علينا التمثيل بهم، فقط أباح محاربتهم وقتلهم صوناً للدين والأرض والعرض⁽²⁾ إلا أن الإمام ابن تيمية يبيّز العفو عنهم إذا تابوا وأقلعوا عن ظلمهم فيقول «من تاب من الكفار والمحاربين وسائر الفسّاق قبل القدرة عليه سقطت عنه العقوبة التى لحق الله، فإذا أسلم الحربى قبل القدرة عليه عصم دمه وأهله وماله، وكذلك قاطع الطريق، والزانى والسارق والشارب إذا تابوا قبل القدرة عليهم، لحصول المقصود بالتوبة، وأما إذا تابوا بعد القدرة لمر تسقط العقوبة كلها، لأن ذلك يفضى إلى تعطيل الحدود وحصول الفساد، ولأن هذه التوبة غير

(1) د. عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1982م، ص 228.

(2) تفسير القرطبي، ج 2، ص 118.

موثوق بها، ولهذا إذا أسلم الحربي عند القتال صح إسلامه، لأنه أسلم قبل القدرة عليه، بخلاف من أسلم بعد الأسر، فإنه لا يمنع استرقاقه وإن عصم دمه»⁽¹⁾.

وقد وضع فقهاء المسلمين ضوابط للحربي أهمها، المتاخمة لدار الإسلام، وأن لا يأمن المسلم فيها على ماله وعرضه ونفسه ودينه»⁽²⁾ وهذه شروط تفيد أن الإسلام لا يضع العالم كله في كفة الحربي بل فقط أولئك الذين يلحقون الأذى بأرض المسلمين وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم⁽³⁾.

(4) المرتد والزنديق: المرتد هو الذي شرح بالكفر صدراً بعد أن كان مطمئناً بالإيمان، والنبى ﷺ أمر بقتله «من بدل دينكم فاقتلوه»⁽⁴⁾ وحرمة من الميراث لأنه كفر فقال: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»⁽⁵⁾ لأنه يخالفه في حكم الدين لأنه لا يقر على كفره فلم يثبت له حكم أهل الدين الذى انتقل إليه، ولهذا لا تُحل ذبائهم ولا نكاح نسائهم وإن انتقلوا إلى دين أهل الكتاب»⁽⁶⁾.

أما الزنديق فهو الذى يُظهر الإسلام ويُبطن الكفر، وهو المنافق الذى توعد الله بقوله ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: 145]

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 10، ص 235.

(2) د. عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الإسلامية، ص 227.

(3) د. السيد عبد الرحمن، حقوق الآخر العقائدى فى ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية، ص 375.

(4) مختصر صحيح البخارى فى كتاب الجهاد، باب لا يعذب بعذاب الله حديث رقم 1294 ص 351.

(5) صحيح البخارى، فى كتاب الجهاد، حديث رقم (6383).

(6) ابن قدامة، المغنى، ط 1، ج 7، دار الفكر، بيروت، د.ت، ص 17.

ثم فضحهم بقوله ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوا إِلَّاتِ اللَّهِ مُحَرِّجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 64] ثم زاد في تلك الفضيحة عبر آيات أخرى كثيرة في الذكر الحكيم، ثم زاد فاجعتهم بأن سمى سورة باسمهم، وهؤلاء في الحكم كالمرتد.

ولكن الإمام ابن تيمية لم يعزل المنافقين أو الزنادقة عن المسلمين، بل جعلهم مع المسلمين الصادقين في كل شيء والله وحده يتولى السرائر فيقول: «وقد تنازع الفقهاء في المنافق الزنديق الذي يكتم زندقته، هل يرث ويورث؟ على قولين، والصحيح أنه يرث ويورث وإن علم في الباطن أنه منافق، كما كان الصحابة على عهد النبي ﷺ لأن الميراث مبناه على الموالاة الظاهرة، لا على المحبة التي في القلوب، فإنه لو علق بذلك لم تمكن معرفته والحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها، وهو ما أظهره من موالاة المسلمين، فقول النبي ﷺ «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»⁽¹⁾ لم يدخل فيه المنافقون وإن كانوا في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، بل كانوا يورثون ويرثون وكذلك كانوا في الحقوق والحدود كسائر المسلمين»⁽²⁾ ويستدل على ذلك بما فعل النبي ﷺ فيقول: «فكان حكمه ﷺ في دمائهم وأموالهم كحكمه في دماء غيرهم لا يستحل منها شيئاً إلا بأمر ظاهر مع أنه كان يعلم نفاق كثير منهم، وفيهم من لم يكن يعلم نفاقه»⁽³⁾.

إذن الإسلام يفرق بين ثلاثة أنواع من السكان الذين يسكنون الدولة

(1) رواه البخاري 6764 ومسلم في كتاب الفرائض، حديث رقم 1614 وأبو داود 2909.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 7، ص 143.

(3) نفس المصدر، ج 7، ص 145.

الإسلامية غير المسلمين، النوع الأول الذميون، وهؤلاء مواطنون لهم كل حقوق المواطنة لأنهم يقيمون في الدولة الإسلامية إقامة دائمة، والنوع الثاني المعاهدون أو المستأمنون وهم الذين يدخلون دار الإسلام لأمد محدود، والنوع الثالث الحرييون والمرتدون والزنادقة وهؤلاء تجب محاربتهم والاعتداء عليهم بمثل ما اعتدوا علينا⁽¹⁾.

هذه هي أصناف الآخر العقائدي، وقد وضع لهم الإسلام الضوابط العادلة لحمايتهم وضمان تجنب أذاهم، وهذا يتبين لنا من وصايا الإسلام بهم.

ب- وصايا الإسلام بالآخر العقائدي:

تتجلى وصايا الإسلام بهم في شقين، الأول الوصية عليهم، والثاني وضع ضوابط لضمان عدم تعديهم حدودهم، ففي الشق الأول نجد النبي الكريم ﷺ متسامحاً معهم لأقصى درجة، فقد ذكرت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا جانباً من تلك السماحة فقالت: «دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك، قالت عائشة ففهمتها، فقلت عليكم السام واللعنة، قالت، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله» فقلت يا رسول الله ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «قد قلت وعليكم»⁽²⁾.

ولهذا الحديث رواية أخرى عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سلم ناس من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا السام عليك يا أبا القاسم، فقال: «وعليكم» فقالت عائشة وغضبت ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «بلى قد سمعت فرددت

(1) د. السيد عبد الرحمن، حقوق الآخر العقائدي في ضوء مقاصد الشريعة، ص 376.

(2) سبق تخريجه.

عليهم، وإنا نجاب عليهم ولا يُجابون علينا»⁽¹⁾ ويعلق ابن تيمية على هذا الحديث بقوله: «ومثل هذا الدعاء أذى للنبي ﷺ وسب له، ولو قاله المسلم لصار به مرتداً لأنه دعاء على رسول الله ﷺ في حياته بالموت، وهذا فعل الكفار، ومع هذا فلم يقتلهم بل نهى عن قتل اليهودى الذى قال ذلك لما استأمره أصحابه فى قتله»⁽²⁾... بل عامل الإسلام أصحاب الأديان الأخرى وفق مبادئ التسامح والصفح والعفو، دون التدخل فى شئون دينهم يقول آدم متز: «على أنه كان فى الدولة الإسلامية ما يضمن لكل ديانة من ديانات أهل الذمة كيائها الخاص»⁽³⁾.

وتجلت تلك المعاملة الإسلامية الراقية للآخر العقائدى المسالمة فى نصوص خلدها التاريخ، فقد روى عن خالد بن الوليد عهده لأهل الكتاب بالحيرة وجاء فيه وصية لأصحابه وجنده: «فإن فتح الله علينا فهم على ذمتهم لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبي من عهد أو ميثاق وعليهم مثل ذلك من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طُرحت عنه جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام»⁽⁴⁾، وقد كتب عمر بن الخطاب عهداً لنصارى المدائن وفارس جاء فيه: «أما بعد، فلإني أعطيتكم عهد الله وميثاقه على أنفسكم

(1) أخرجه مسلم فى كتاب السلام، باب النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يُرد عليهم، حديث رقم 2166 وفى مسند الإمام أحمد (3/ 383) حديث رقم 15146.

(2) ابن تيمية، الصارم المسلول، ص 171.

(3) آدم متز، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ط 2، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 1995م، ص 59.

(4) أبو يوسف، الخراج، ص 155 - 156.

وأموالكم وعيالكم ورجالكم وأعطيكم أمانى من كل أذى، وألزمت نفسى أن أكون من ورائكم ذاباً عنكم كل عدو يريدنى بسوء وإياكم، وأن أعزل عنكم كل أذى، ولا يُغَيَّر أسقف من أساقفتكم ولا رئيس من رؤسائكم، ولا يُهدم بيت من بيوت صلواتكم ولا يدخل شيء من بنائكم إلى بناء المساجد ولا إلى منازل المسلمين، ولا تكلفوا الخروج مع المسلمين إلى عدوهم لملاقة الحرب، ولا يجبر أحد من النصارى على الإسلام عملاً بما أنزل الله فى كتابه، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256] ولى شرط عليهم ألا يكون أحد منهم عينا لأهل الحرب على أحد المسلمين فى سر ولا علانية، ولا يُثبِتُوا فى منازلهم عدواً للمسلمين، ولا يدلوا أحداً من الأعداء ولا يكاتبوه⁽¹⁾.

إنها سماحة الإسلام، سماحة لا تقبل المزايدة من أحد، لقد التقى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيهودى يسأل الصدقة، فأرسل إلى خازن بيت المال وقال له: «انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شيبته ثم نخذله عند الهرم ﴿إِنَّمَا الْأُصْدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: 60] والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عمر عنه الجزية وعن ضربائه⁽²⁾.

ثم أحسن الإسلام لهم المعاملة، ويكفى فى ذلك قول الحق سبحانه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: 6] حتى المشركين أمر الله بنبيه بإجارتهم والإحسان إليهم، ووقائع السيرة تثبت مدى إحسان النبى الكريم ﷺ إليهم، وهو ما سار عليه صحبه الكرام، فقد روى عن ابن عباس أنه ذبح شاة ذات مرة فقال

(1) د. الصلابي، الشورى فى الإسلام، ص 99.

(2) أبو يوسف، الخراج، ص 156.

لغلامه: «لا تنس جارنا اليهودي، ثم كررها حتى قال له الغلام كم تقول هذا! فقال إن النبي ﷺ قد أوصانا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه» فابن عباس إذن كان يجاور اليهود ويُهدى إليهم ويحفظ لهم حق الجوار وهو صحابي وحبر هذه الأمة»⁽¹⁾ وفي المسائل القضائية أيضاً سوى الإسلام بين المسلمين وغيرهم تحت حدود العدالة، حيث نزل القرآن الكريم ليرى يهودياً ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ [النساء: 105] أى لا تحابي المسلم على غيره ولا تجادل عنه بغير الحق مثلما يقول المفسرون.⁽²⁾

وقد أجاز الإمام ابن تيمية شهادة أهل الكتاب على المسلمين في السفر لأنه موضع ضرورة لا بد منه.⁽³⁾

أما في العادات فأباح الإسلام للمسلم أن يفوض غير المسلمين في أموره، فقد ورد أن عبد الرحمن بن عوف وهو مسلم في دار الإسلام فوض إلى أمية بن خلف وهو كافر في دار الحرب ما يتعلق بأموره، فتوكيل المسلم حريياً مستأئماً أو توكيل الحربى المستأمن مسلماً لا خلاف في جوازه⁽⁴⁾، كما أباح الإسلام للمسلم طعام أهل الكتاب ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: 5].

(1) د. آمنة نصر، إنسانية الإنسان في الإسلام، ص 126.

(2) هذه الآية وسبب نزولها وفيها كلام كثير ذكره ابن كثير في الجزء الثانى من تفسيره ص 245 وما بعدها.

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 15، ص 169.

(4) ابن حجر، فتح البارى، ج 4، ص 561.

كذلك أباح الإسلام تعزية أهل الذمة، وأجاز أن تنالهم كفارة اليمين إذا كانوا مساكين وتُدفع إليهم الكفارات⁽¹⁾، كما سمح لغير المسلمين أن يؤمن بعض المحاربين، وفي ذلك يقول الأوزاعي: «إن غزا الذمي مع المسلمين فأمن أحداً فإن شاء الإمام أمضاه وإلا فليرده إلى مأمنه»⁽²⁾.

وسمح الإسلام بمشاركة غير المسلمين في المزارعة، وقد ورد أن الرسول ﷺ أعطى خيبر لليهود على نصف ثمرها⁽³⁾.

بل إن الإسلام حرم مال الحربي إذا أسلم، وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية: «بل لو أسلم الحربي ويده مال مسلم قد أخذه من المسلمين بطريق الاغتنام ونحوه مما لا يملك به مسلم من مسلم لكونه محرماً في دين الإسلام كان له ملكاً، ولم يرده إلى المسلم الذي كان يملكه عند جماهير العلماء من التابعين ومن بعدهم، وهو معنى ما جاء عن الخلفاء الراشدين، وهو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد، وقول جماهير من أصحابه بناءً على أن الإسلام أو العهد قرر ما بيده من المال الذي كان يعتقده ملكاً له، لأنه خرج عن ماله المسلم في سبيل الله، ووجب أجره على الله، وأخذه هذا صار مستحلاً له وقد غفر الله له بإسلامه ما فعله في دماء المسلمين وأموالهم، فلم يضمنه بالرد إلى ماله كما لم يضمن ما أتلفه من النفوس والأموال، ولا يقضى ما تركه من العبادات لأن كل ذلك كان تابعاً للاعتقاد، فلما رجع عن الاعتقاد غفر له ما تبعه من الذنوب، فصار ما

(1) ابن قدامة، المغني، ج 10، ص 4.

(2) ابن حجر، فتح الباري، ج 6، ص 274.

(3) مختصر صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الإشتراط في المزارعة، حديث رقم 1191 ص 321.

بيده من المال لا تُبعة عليه فيه، فلم يؤخذ منه كجميع ما بيده من العقود الفاسدة التي كان يستحلها»⁽¹⁾.

ولكني أرى أن الإسلام وإن كان يُجِبُّ ما قبله من إثم وظلم، فليس على الآثم حرج إلا فيما بقى في يديه من مظالمه، فردها أولى، وإلى هذا يذهب الإمام الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال بوجوب رد المال على مالكه المسلم، ولكن الإمام ابن تيمية وغيره ممن لم يُحِيزُوا رد تلك الأموال قد استندوا إلى دلائل قوية أيضاً مثل قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾ [الحشر: 8]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: 40] حيث يبين سبحانه أن المسلمين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق، لكن خروجهم كان في سبيل الله، فصاروا فقراء بعد الغنى. ثم إن المشركين قد استولوا على ديار المهاجرين وأموالهم، حتى دار رسول الله ﷺ استولى عليها عقيل بن أبي طالب بعد الهجرة، ولما نزل النبي ﷺ يوم الفتح مكة لم يجد له داراً، فروى أبو رافع، قيل للنبي ﷺ: «ألا تنزل منزلك من الشعب؟ قال فهل ترك لنا عقيل منزلاً»⁽²⁾.

أما في العبادات فقد سمح الإسلام لأهل الذمة بتطبيق شرائع دينهم على أحوالهم الشخصية، وذهب فريق من علمائنا إلى أننا لا نحكم بينهم فيما شجر بينهم إلا في حالة التجائهم إلينا ورضاهم بالتحاكم إلى شرعنا، فإذا ما

(1) ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، ص 121.

(2) مختصر صحيح البخاري في كتاب الحج، باب توريث دور مكة وبيعها وشرائها وأن الناس في المسجد الحرام، حديث رقم 208.

رفض أحد الطرفين التحاكم إلى شرعنا لا يجوز الحكم بينهما، يقول ابن عبد البر⁽¹⁾: «فإذا سرق الذمي من ذمي ولم يترافعوا إلينا فلا يُعرض لهم عندنا، وإن ترافعوا إلينا حكمنا بحكم الله فيهم لأن هذا من تظالمهم الذي يجب علينا المنع منه إذا رُفِعَ إلينا»⁽²⁾.

ومن تلك السماحة العقائدية أيضاً أن الإسلام سمح ببناء الكنائس والمعابد من حيث هى حاجات ضرورية لازمة لحفظ دينهم وممارسة شعائرهم، فقد سئل عمر بن عبد العزيز في الذمي يوصى بالكنسية يوقف وقفاً ماله للنصارى أو لليهود قال يجوز ذلك⁽³⁾ وفي مذهب الإمام أحمد ما يدل على صحة وصية الذمي بخدمة الكنيسة⁽⁴⁾.

وفي ذلك يقول آدم متز: «ولم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل في شعائر أهل الذمة الدينية، وكذلك ازدهرت الأديرة في هدوء»⁽⁵⁾، ويقول بارتولد أيضاً: "ففى ظل الحكم الإسلامى حافظ النصارى فى الجملة على معابدهم، وبنوا كنائس وأديرة جديدة بدون أن يتعرضوا لمقاومة، وأما ما يقال من أن الخليفة عمر منع النصارى من بناء كنائس جديدة وإصلاح القديمة فمختلق فيما بعد، وكان نصارى بلاد الخلافة يتعاملون مع عالم النصرانية بدون

(1) هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر (368هـ: 463) وكان فقيهاً مالكياً ومن أئمة أهل السنة والجماعة. انظر سير أعلام النبلاء، ج 5، ص 38.

(2) ابن عبد البر، التمهيد، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوى ومحمد عبد البكير البكرى، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب 1387هـ، ج 14، ص 389.

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 5، دار صادر، د. ت ص 356.

(4) ابن قدامة، المغنى، ج 6، ص 532.

(5) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ص 67.

مشقة ويُمكنون من أن يتلقوا إعانات لمؤسساتهم الدينية، وكان في المؤتمر الديني الذي انعقد في القسطنطينية عام 681م مندوب من القدس أيضاً، ثم أن المسيحيين المقيمين ببلاد الخلافة كانوا مرتبطين بعضهم ببعض ارتباطاً وثيقاً⁽¹⁾...

ولكن البعض يأبون أشد الإباء إلا ذكر الرجل بالسوء في هذه القضية - بناء الكنائس - ويذكرون له نصوصاً مقيدة، فكوها من قيدها وجعلوها حكماً مطلقاً، وهو قياس فاسد منطقياً كما سبق ووضحت، من ذلك ما أورده أحد أولئك النقاد على لسان ابن تيمية: «وأما الكنائس التي بالصعيد وبر الشام ونحوها من أرض العنوة فما كان منها محدثاً وجب هدمه، وإذا اشتبه المحدث بالتقديم وجب هدمها جميعاً، لأن هدم المحدث واجب وهدم القديم جائز وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما كان منها قديماً فإنه يجوز هدمه ويجوز إقراره بأيديهم، فينظر الإمام في المصلحة، فإن كانوا قد قلوا والكنائس كثيرة أخذ منهم أكثرهم، وكذلك ما كان على المسلمين فيه مضرة فإنه يؤخذ أيضاً وما احتاج المسلمون إلى أخذه أخذ أيضاً، وأما إذا كانوا كثيرين في قرية ولهم كنيسة قديمة لا حاجة إلى أخذها ولا مصلحة فيه، فالذي ينبغي تركها، كما ترك النبي ﷺ وخلفاؤه لهم من الكنائس ما كانوا محتاجين إليه ثم أخذ منهم، وأما ما كان لهم يصلح قبل الفتح مثل ما في داخل مدينة دمشق ونحوها فلا يجوز أخذه ما داموا موفين بالعهد إلا ب معاوضة أو طيب أنفسهم كما فعل المسلمون بجامع دمشق لما بنوه، فإذا عُرف أن الكنائس ثلاثة أقسام: منها ما لا يجوز هدمه، ومنها ما يجب هدمه

(1) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص 54.

كالتى فى القاهرة ومصر والمحدثات كلها، ومنها ما يفعل المسلمون فيه الأصلى كالتى فى الصعيد وأرض الشام مما كان قديماً على ما بيناه، فالواجب على ولى الأمر فعل ما أمر الله به وما هو أصلى للمسلمين»⁽¹⁾.

فى هذا النص يذهب الإمام إلى ضرورة هدم المحدثات فقط وليس كل الكنائس أما غير ذلك فلا يجوز الاعتداء عليه إلا بمعاوضة أو طيب نفس، بل إنه أقرب بأن من الكنائس ما لا يجوز هدمه إطلاقاً، ومنها ما يخضع لرؤية واجتهاد ولى الأمر لفعل الأصلى، ولكن القوم يسيئون تأويل النص ويستخدمونه تدعيماً لآرائهم زوراً وهتافاً.

ويسير مؤلف آخر فى ذات الطريق فيبتكر عنواناً براقاً «وجوب إهانة غير المسلم وإهانة مقدساته»، وحيث أورد نصاً للإمام يقول فيه: «فإن كل ما عظم بالباطل من مكان أو زمان أو حجر أو شجر يجب قصد إهنته كما تُهان الأوثان المعبودة وإن كانت لولا عبادتها كسائر الأحجار»⁽²⁾.

هذا هو قول الإمام، فهل فيه ما يخالف العقيدة، ألا يجب إهانة كل شيء يُعظم بالباطل سداً لذريعة الشرك أو زيغ العقيدة، ثم ألا يجب إهانة الأوثان والتى هى حجر لا ينفع ولا يضر بنص القرآن فى مواضع عدة!! والتى سبق وأهانها الخليل إبراهيم عليه السلام وسجل له القرآن هذا المشهد، ثم أهانها النبى ﷺ بتكسيها يوم الفتح وهو يقرأ ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: 81]...

(1) ابن تيمية، أحكام أهل الذمة، ج2/ 686 : 677 نقلاً عن ابن تيمية فى الميزان، ص49.

(2) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ج1، ص535.

أين المشكلة إذن، وأين التشدد في كلام الرجل؟

ولكن الناقد يؤول النص على غير ما يحتمل من تأويل، وكأننا لا نفهم النص فقال: «فهذه قاعدة مطلقة يعلنها شيخ الإسلام يقرر بها حكماً شرعياً أنه يجب قصد إهانة مقدسات الآخرين سواء أكانت أمكنة كالكنائس والمعابد وبعض الأنهار أو أزمنة كعيد الكريسماس أو رأس السنة أو خلافها، أو كانت أحجاراً أو أشجاراً كالصلبان أو المجسمات أو الآثار أو أشجار عيد الميلاد مثلاً وغيرها»⁽¹⁾.

تأويل بغير تأويل، ولا أظنه لم يفهم النص كما يفهمه عامة من يقرئه، ولكنه فقط يستعمل حقه العقلي في التأويل بما لم يقصده الإمام مطلقاً، فالإمام لم يقل بإهانة النصارى ولا بإهانة كنائسهم، بل أقر قديمها في أيديهم وقال بعدم وجوب أخذها منهم لعمل عام إلا بتعويض ورضا نفس منهم، ولكن المؤلف يأبى كل الإباء إلا البحث عن كل ما من شأنه أن يصم الرجل بالتشدد والتعصب، ولا يجد حرجاً في لى عنق النصوص لتكون ضد الإمام، ولتتحول عن مقصده تماماً، وهذا ما فعله المؤلف عبر الكتاب طويلاً وعرضاً، ومثل هذه النصوص كثيرة لا داعى لذكرها لكنها في النهاية لا تعن أكثر من سوء التأويل وضعف المنهج والافتراء على الإمام بغير الحق. ومن نماذج تلك الافتراءات أيضاً اتهام الإمام بإطلاق لفظ الكفر على كل من لم يُسلم مع أنه لم يخرج الزنادقة والمناققين من زمرة المسلمين، ومع إقراره بحقوق أهل الكتاب، إلا أن البعض يؤولون نصاً له قال فيه: «وعامة الصوفية وطوائف أهل الكلام من متكلمي السنة وغير متكلمي السنة من المعتزلة والخوارج

(1) رائد السمهوري، المرجع السابق ص 42.

وغيرهم متفقون على أن من لم يؤمن بعد قيام الحجة بالرسالة فهو كافر سواء كان مكذباً أو مرتاباً أو معرضاً أو مستكبراً أو متردداً أو غير ذلك»⁽¹⁾ فيقول بعضهم في تأويل هذا النص الذي لا يحتاج إلى تأويل مطلقاً ما نصه: «والخلاصة أن الكافر عند شيخ الإسلام هو كل من لم يؤمن سواء بلغته الرسالة أم لم تبلغه وسواء أكان مكذباً أم غير مكذب، وسواء أكان متردداً أو شاكاً أو معرضاً عن النظر لسبب من الأسباب أو اجتهد فأخطأ في معرفة الحق أو حتى كان غافلاً الغفلة المطلقة.

وكل هؤلاء الذين ينطبق على أحدهم لفظ «الكافر» تجري عليهم أحكام الكافر في الدنيا والآخرة إلا الغافل غفلة مطلقة فإن عقوبته في الآخرة موقوفة على بلوغ الرسالة، وإن كان داخلاً في جملة الكفار في الدنيا»⁽²⁾.

ولن أعلق على ما قاله الناقد، بل أترك الفرصة لعقل القارئ الكريم للمقارنة بين نص الإمام نفسه وفهم الناقد له، وهل يتفق كلامه مع أدنى عقل أو منطق في الدنيا؟!

إن الذين يتهمون الإمام بالعداء لأهل الذمة حججهم بالية، ونصوصهم واهية، لأنهم يلوون عنق النص ويؤولونه على غير وجهة تأويله، كما أنهم أيضاً لم يقرءوا التاريخ، ولم يحملوا نص هدم الكنائس المحدثه على ظروف عصره فقط، باعتباره نصاً مقيداً، ولكنهم يأبون إلا إطلاقه، فيتغاضون عن التاريخ، وعن شهادة ابن كثير عن ذل المسلمين واستطالة النصارى عليهم، حيث ذكر من تألب الشيعة على أهل السنة وفرحهم بالفرنج والتتار، فكانوا

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج20، ص51.

(2) رائد السهموري، المرجع السابق، ص23.

في ذلك هم والنصارى سواء، حيث استطال النصارى بدمشق على المسلمين وأحضروا فرماناً من هولاء كو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم، فتظاهروا بالخمير في نهار رمضان ورشوه على ثياب المسلمين في الطرقات وصبوه على أبواب المساجد، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم وأهانوا من يمتنع عن القيام للصليب وصاروا يميرون به في الشوارع إلى كنيسة مريم، ويقفون به ويخطبون في الثناء على دينهم وقالوا جهراً «ظهر دين المسيح» واعتاظ المسلمون لذلك وحق لهم أن يغتاظوا، فكتبوا إلى نائب هولاء كو وهو «كتبغا» فأهانهم وشردهم، وعظم من قدر النصارى ونزل إلى كنائسهم وأقام شعائهم، وضمن لهم الحماية من المسلمين⁽¹⁾.

هذا هو التاريخ.. وتلك هي الحقائق التي وعاهنا، والتي لا يمكن حمل فتوى الإمام بهدم الكنائس المحدثّة إلا في ضوء هذا الواقع، ثم هل نسي هؤلاء وغيرهم موقف الإمام مع «غازان» قائد التتار، عندما طالبه الإمام بفك الأسرى ففك «غازان» الأسرى من المسلمين فقط، فيقف الإمام باسقاً كالنخلة ذات طلع نضيد، ويُقسم عليه أن يطلق سراح الأسرى جميعاً من المسيحيين واليهود، لأنهم جميعاً أبناء وطن واحد ويدخلون في ذمة المسلمين، وتحت وطأة هيبة الشيخ وسطوة مكانته على القلوب، أطلق غازان الأسرى جميعاً.

ثم هل نسوا يوم أن استطال النصارى على المسلمين، فسرق أحد المسلمين خمراً من نصراني، وسأل السلطان الإمام في تلك القضية فقال له: «إذا سرق المسلم من الذمي خمراً، يُقطع لأن الخمر بالنسبة لغير المسلمين مال»⁽²⁾.

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص219.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج14، ص119.

هذا هو تراث الرجل في تلك القضية، فأين التشدد إذن؟ وهل من خلل في دفاعه عن نفسه في تلك القضية؟! ثم ألا تكفى الدلائل التي ساقها من ناحية، وتناقض وضعف حجج منتقديه من ناحية أخرى لإثبات براءته؟!....

يبقى الحكم للتاريخ، لتأني العقول وتستقرئ وتستنبط وتنظر بموضوعية، ثم في النهاية يكون الحكم لله الواحد الأحد، في يوم لا تظلم فيه نفس مثقال ذرة، والله على كل شيء شهيد .

سادساً: انطق بالحكم

تمتلى قاعة المحكمة عن آخرها، قضاة وحُجَّاب وخصوم ومحبين ومتفرجين، ازدحمت القاعة بالناس، بل وضج الفضاء الخارجي لقاعة المحاكمة بالناس من كل طيف ولون، جاءوا اليوم ليشهدوا الحكم على شيخ الإسلام بعد انتهاء دفاعه في عدة أيام، وبعد أخذ ورد مع القضاة تارة، ومع الخصوم أخرى، ومع الأتباع ثالثة، وبعد أن أنهكوه تماماً.. احتبست الأنفاس، وساد صمت عميق، القلوب واجفة، والأبصار خاشعة، والأفئدة متوجسة.. تُرى أى حكم يحكم به القضاة! وماذا يستحق هذا الشيخ الجليل من جزاء لغيرته على الدين وعمله الدءوب طيلة حياته للدفاع عن العقيدة الصحيحة مهما كلفه ذلك من خصومات وعداوات اصططنعها الأعداء والأغبياء على السواء ضده، تُرى هل يسخر من المحكمة مثلما سخر سقراط اليوناني من قبل وطلب من القضاة أن يعينوه عضواً في مجلس الشيوخ، لأن هذا هو الجزاء الذي يستحقه، ثم حكموا عليه بالإعدام!! فاستمر في سخريته منهم قائلاً «أنتم لم تحكموا علىّ بالموت ولكنكم حكمتم علىّ بالحياة».

حقاً، إن عصا الجلال من حيث لا تدري تصنع بطولة للضحية على الدوام، وإن الحكم بالموت على المفكرين والعلماء والمصلحين هو حكم بالحياة، ليس بالحياة الآخرة فقط باعتبارهم شهداء أحياء عند ربهم يرزقون، ولكن حكماً بالحياة الدنيا أيضاً وخلوداً في أذهان الأجيال المتعاقبة، وتلك سنة الله في كونه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

أى حكم إذن يستحقه هذا الشيخ الذى جاهد بسيفه وقلمه ولسانه ما وسعته الحياة، ومارس الزهد عملياً كأعظم أقطاب الصوفية، وعاش حياته كلها للحق والعدل والدين، أى حكم يستحقه رجل بحجم هذا الرجل؟! وهل يكون القضاء عدولاً؟ ثم هل يقبل التلاميذ أى حكم ضد الرجل؟

هذه الأسئلة وغيرها مما تشغل بال الحاضرين، بل مما تشغل بال القضاء أنفسهم، فالموقف أصعب ما يكون، والتاريخ يسجل كل همسة ولمسة بكل شفافية وموضوعية، ولكن القاضى يحتبس أنفاسه، ويدير ظهره للجماهير، ويصدر حكماً ضد الإمام بالإعدام؟!!

أخيراً أسدل الستار على المحكمة والمحكمة الأكبر في التاريخ، حيث طالت أكثر مما يحتمله البشر، لتتطرق حكمها في النهاية، بعد اتهامات واهية، ودفاعات شافية وافية!!

يا لسخرية القدر!!

إذن، أرونا كيف ستنفذون هذا الحكم يا قضاء تدينون بالإسلام؟ وأنى السبيل لكم لتنفيذه؟!

وهنا تولد مشكلة جديدة، إنهم لو أعدموه مرة واحدة لحدثت فتنة كبرى

لا يستطيع أحداً أن يتوقع مداها، إذن فلا بد من خطة بديلة تؤدي ذات الغرض، تقضى على الرجل دون أن تثير قلقاً في الدولة.

وفكروا ودبروا، واهتدوا إلى القرار، الزج به في سجن وراء سجن حتى يموت سجيناً، فيُعزل عن الناس ونكتفى شر قوته وصلابته في الحق حتى يموت.

وأخذ القوم يدبرون له المؤامرات والمهاترات، ويتكرون له الحيل ابتكاراً، ويخلقون له التهم اختلاقاً يقول الدكتور الجلند ما نصه: «لقد حيكت حول ابن تيمية كثير من المؤامرات، ورُمى بالكفر والإلحاد، ووضعت الكتب للنيل منه، وما كان لمثل ابن تيمية أن يسلم من حقد حاسديه، فكما ينل منه في حياته كذلك تعرض تراثه لأيدي العابثين بعد وفاته، وحملت ألفاظه أكثر مما تحتمل ووضعت في غير موضعها»⁽¹⁾.

وبدأت تلك المؤامرات في عام سبعمائه وواحد من الهجرة، حيث اشتكى جماعة من الحرورية⁽²⁾ إلى السلطان أن الإمام ابن تيمية يقيم الحدود ويُعزّر ويخلق رؤوس الصبيان، وتكلم هو أيضاً فيمن يشكو منه ذلك، وبين خطأهم، ثم سكنت الأمور⁽³⁾.

(1) د. محمد السيد الجلند، الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية 1973م، القاهرة ص 413.

(2) هي إحدى طوائف الخوارج المبتدعين وتنسب إلى حروراء بالكوفة لأنهم عقدوا أول إجتماع لهم بها بعد الخروج على الإمام علي. انظر د. سيد الصريدي، الفرق الإسلامية، دار الريان للنشر، بغداد، 1982م، ص 148.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 14، ص 190.

ولكنها لم تسكن إلى الأبد، فالحقد الذى يأكل القلوب كفيل باختراع الأحداث اختراعاً وتلفيق التهم تلفيقاً، بمثل ما يقول الدكتور موسى: «ولعل من الحق علينا هنا أن نضيف إلى تلك الأسباب التى خلقت هذه الخصومات سبباً آخر نحس آثاره فى كل عصر، وهو داء الحسد الذى إذا تملك قلب إنسان أفسده وأعمى بصيرته، وجعله لا يبغي لخصمه إلا الشر والأذى، ولهذا أمرنا الله أن نتعوذ من الحسد والحاسدين»⁽¹⁾.

لقد حاول خصوم الإمام التضييق عليه بكثرة الامتحانات، وكثيراً ما وشوا به عند السلطان، وكثيراً ما عُقدت له المجالس ليسأله ببحث نية فى قضايا خلافية، من ذلك ما حكاه ابن رجب من أنهم عقدوا له امتحاناً فى عام 705هـ يسألونه عن عقيدته!!

ولك أن تتخيل حجم المأساة التى يمر بها العالم الإسلامى آنذاك؟ وحجم الحصار والتضييق على العلماء!! ابن تيمية يُسأل عن عقيدته؟! يا لهوان الدنيا على الله!!

ويجمع السلطان القضاة والعلماء بالقصر، وحضر الشيخ، وسأله عما أرادوا، فأرسل الشيخ من يُحضر له «العقيدة الواسطية» التى ألفها، فقرءوها فى ثلاثة مجالس، فلم يجدوا فيها بغيتهم، فأعلن بعض العدول منهم أن هذه عقيدة سنية سلفية صحيحة لا شائبة فيها⁽²⁾.

ولكن الخصومة تجددت مرة أخرى وفى ذات العام وإن اختلف الخصوم هذه المرة، فقد كانوا بعضاً من أتباع الطائفة الأحمدية من أهل الطرق

(1) د. محمد يوسف موسى، ابن تيمية، ص 96.

(2) ابن رجب، الطبقات، ج 2، ص 396.

الصوفية الذين زعموا أن لهم كرامات ومن أعظمها أنهم يدخلون النار ولا تصيبهم بأذى، وهو ما أثر على عقيدة الناس وجعلهم يفتنون بهم، فناظرهم الإمام ابن تيمية، وطلب منهم أمام السلطان الإغتسال جيداً ثم دخول النار بعد ذلك إن كانوا صادقين، لأنهم مخالفين للشرعة، فرد عليه أحد شيوخهم بقوله: « نحن أحوالنا إنما تتفق عند التتار وليست تتفق عند الشرع » فضبط الحاضرون عليهم تلك الكلمة وأنكروا عليهم⁽¹⁾.

ولكن الفتن التي تثار ضده لا تهدأ أبداً، فما تخمد إحداها إلا وتضرم نار أخراها، وما ينتصر لدينه في مرة، إلا وتشتعل النيران في القلوب مرات، فكان أن ورد كتاب من السلطان إلى دمشق يأمر بحمل الإمام إلى القاهرة للكشف عن عقيدته...

يا سبحان الله ... ابن تيمية يُمتحن ويُشتد عليه ويُضيق عليه، وأهل البدع والخرافات طلقاء أحرار، إنها حكمة الله، وعظمة أسرار التدبير الذي لا يعلم منتهاه سواه، إنه تدبير المعية، تدبير ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: 49].

وكثرت المشاورات حول تلك النقطة الكبرى من نقلات جهاد الإمام بعلمه والدُّب عن دينه وعقيدته، فالبعض يشير عليه بعدم الخروج، إلا أنه يأتي إلا الخروج، لا عنداً أو عناداً كما فهم بعض الأفاقين، ولكن حرصاً على مصلحة الدين، تلك المصلحة التي جاد بروحه لأجلها، أفلا يجود اليوم بسفر لبضعة أيام!! وتخرج الشام برجالها ونساءها خلف الإمام تودعه إلى القاهرة في مشهد

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 14، ص 136.

بليغ، مشهد تسير فيه المشاعر على أقدام، لا يستطيع أهل البلاغة وصفه، ولا يستطيع أهل اللغة رسمه، فقد تجلت فيه صدق المشاعر بصدق الدموع، وروعة الشوق بلوعة الفراق.

ويحكى ابن كثير عن تلك الحياة الجديدة للإمام في مصر فيقول: «فتوجه الشيخ نحو مصر وخرج معه خلق من أصحابه، وبكوا وخافوا عليه من أعدائه، وأشار عليه نائب السلطنة ابن الأشرم بترك الذهاب إلى مصر، وقال له: أنا أكتب السلطان في ذلك وأصلح القضايا، فامتنع الشيخ من ذلك، وذكر له أن في توجهه لمصر مصلحة كبيرة، ومصالح كثيرة، فلما توجه لمصر ازدحم الناس لوداعه ورؤيته حتى انتشروا من باب داره إلى قرب الجسورة، فيما بين دمشق والكوة⁽¹⁾ وهم فيما بين باك وحزين، فلما كان يوم السبت دخل الشيخ تقى الدين غزة، فعمل في جامعها مجلساً عظيماً، ثم دخلاً معاً إلى القاهرة والقلوب معه وبه متعلقة، فدخل مصر يوم الإثنين والعشرين من رمضان، وقيل إنها دخلها يوم الخميس⁽²⁾».

ولكنه وجد شيئاً عجيباً في زيارته للقاهرة هذه المرة، فالمحلات مغلقة، والحانات موصدة، ومصالح الناس معطلة، تبدو القاهرة كثيبة حزينة، باكية بلا دموع، شاكية بلا لسان؟! ما الذى حدث؟! يتسائل الرجل في نفسه، لقد أرسل إلى السلطان لامتحاني في بعض المسائل، وجئت لمقابلته، فلماذا غيّرت القاهرة اليوم جلدها ولونها؟! وما هي حقيقة الأمور؟!

(1) مدينة تقع ضمن ولاية النيل الأبيض على الحدود السودانية. انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج2، ص128.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية ج14، ص42 وما بعدها.

وما هي إلا سويغات وتبدد الشك لديه وحل اليقين، لقد تأمر سلار وبيبرس الجاشنكير وهما أميرين من المماليك، تأمرا على السلطان الشرعى للبلاد، الناصر محمد بن قلاوون، وانقلبوا عليه هم وسفهاءهم، واضطر الرجل أن يترك لهم البلاد نجاة بحياته..

وهكذا فعل، ترك البلاد باكياً على ملك سلبه العبيد، وحكم السادة المماليك، وانقلبت إليهم الأمور، ولكن أهل القاهرة الطيبين ساءت أحوالهم، وانتشرت الفتن والقتل والفساد وعمت الفوضى أرجاء البلاد، فحملوا أكفانهم ووقفوا أمام القصر يطالبون برحيل المماليك المغتصبين للسلطة وعودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

تُرى، ما الذى يمكن أن يحدث للشيخ إثر هذا الانقلاب؟! إنه العدو اللدود للمماليك خاصة الأمير سلار والأمير بيبرس الجاشنكير، والآن أصبح بيبرس هو السلطان بعد أن أخذ البيعة بالسيف والذهب، السيف للعامة، والذهب للأمرء والعلماء، فكيف سيعاملون الشيخ وهو من المقربين للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، لقد عقدوا جلسة لامتحان الشيخ يقول عنها ابن كثير «فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة عُقد للشيخ مجلس بالقلعة اجتمع فيه القضاة وأكابر الدولة، وأراد أن يتكلم على عاداته فلم يتمكن من البحث والكلام، وانتدب له الشمس بن عدنان خصماً احتساباً، وادّعى عليه عند مخلوف المالكى أنه يقول إن الله فوق العرش حقيقة وأن الله يتكلم بحرف وصوت، فسأله القاضى جوابه، فأخذ الإمام في حمد الله والثناء عليه، ف قيل له: أجب ما جئنا بك لتخطب، فقال، ومن الحاكم في؟ ف قيل له: القاضى المالكى. فقال له الشيخ، كيف تحكم في وأنت خصمى، فغضب غضباً شديداً

وانزعج، وأقيم مرسماً عليه، وحُبس في برج أياماً ثم نُقل منه ليلة العيد إلى الحبس المعروف بالجلب، هو وأخوه شرف الدين عبد الله وزين الدين عبد الرحمن⁽¹⁾.

ثم تلى ذلك إرسال الكتب إلى الشام بأمر من السلطان بالطعن على الإمام والخط من شأنه وإلزام الناس بالرجوع عن عقيدته وإلا كان العزل والحبس مصيرهم، ونودي بهذا في المساجد والأسواق.

ولبت الإمام في السجن عاماً وبضعة أشهر رافضاً الخروج من السجن لثلاثين يوماً، حتى إذا كان شهر ربيع الأول لعام 707 هـ حضر حسام الدين مهنا بن عيسى أمير العرب إلى مصر ودخل السجن وأخرج الشيخ بنفسه بعد أن استأذن في ذلك وعقدت له مجالس حضرها أكابر الفقهاء مرتين⁽²⁾ بسلام.

ثم أفرجوا عن الإمام وعلموا له فضله وسعة علمه، إلا أن مرضى القلوب والنفوس أقاموا عليه دعوى جديدة بأنه ضد التصوف وسألوه عن رأيه في ابن عربي فقال: «لا يُستغاث إلا الله، لا يستغاث بالنبي استغاثة بمعنى العبارة، ولكن يتوسل به ويتشفع به إلى الله».

وأقر بعض الحاضرين ما قاله، إلا أن الدولة أبت كل الإباء إلا أن يعود الإمام إلى السجن فيدخل السجن مرة أخرى مفضلاً ما تقتضيه المصلحة، وظل في حبسه طيلة حكم الملك المظفر الجاشنكير، وفي هذه الأثناء كان بيبرس قد ضيق الخناق أكثر من اللازم على السلطان محمد بن قلاوون وهو

(1) ابن كثير، البداية والنهاية ج 14، ص 42 وما بعدها.

(2) المرجع السابق، ج 14، ص 42 وما بعدها.

بالكراك، وأراد نفيه خارج البلاد، فاستغاث السلطان بأمراء وولاة الأقاليم في الشام ومصر وأرسل إليهم رسالة ينبعث الحزن من بين سطورها: «لما اشتد على الضنك من الأمراء، خرجت من مصر، وتركت لهم الملك، ورضيت من الدنيا بأحققر المساكن، وأضيق الأماكن، ليستريح خاطري من النكد، فما تراجعوا عني، وأرسل بيبرس يهددني بالنفي، ويطلب مني ما لا أقدر عليه، وأنتم تعلمون ما لوالدي الملك المنصور عليكم من العتق والترية وما أظنكم ترضون لي بهذا الحال» ...

واستنفرت تلك الرسالة الولاة والأمراء، وخرجوا مع الملك إلى الشام ومنها إلى القاهرة، وكلما مروا ببلد انضم إليهم أميرها حتى دخل القاهرة والولاة والنواب والأمراء كلهم رهن إشارته، فلما علم بيبرس وسلار بقدوم السلطان فرا هاربين، بينما عمت الأفراح عموم البلاد بعودة السلطان، لتعود القاهرة من جديد إلى سابق عهدها.

ولما استقر الأمر للسلطان كان أول سؤال له عن شيخ الإسلام، فأمر بإخراجه من السجن. ويحكى ابن كثير صفة دخول العالم الذي يخشى الله على السلطان، فيقول: «إن السلطان لما قدم عليه الشيخ تقى الدين بن تيمية نهض قائماً للشيخ أول ما رآه، ومشى له إلى طرف الإيوان، واعتنقا هناك هنيهة، ثم أخذ معه ساعة إلى طبقة فيها شباك إلى بستان، فجلسا ساعة يتحدثان، ثم جاء ويد الشيخ في يد السلطان»⁽¹⁾.

إنها عزة العلماء الذين يخشون الله، فيرتقى أهل السلطة تحت أقدامهم، ويأتى الإمام ابن تيمية على قائمة أولئك الصاحب الكرام الذين نذروا حياتهم

(1) ابن كثير، المرجع السابق، ج 12، ص 50.

كلها لله، ورأوا في كل محطات حياتهم عبادة لله، حتى ولو كانت المحطة في السجن، فهي أعظم عبادة، لأن تلك النفوس الراضية قد نذرت حياتها كلها لله، ولذا نراه يكتب إلى أحبابه وأصحابه وأتباعه وهو في غيابات السجن ما نصه: «﴿وَأَمَّا نِيعَمَةٌ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11]، والذي أعرف به الجماعة أحسن الله إليهم في الدنيا والآخرة، وأتم نعمته الظاهرة والباطنة، فإني والله الذي لا إله إلا هو في نعم من الله ما رأيت مثلاً في عمري كله، وقد فتح الله سبحانه وتعالى من أبواب فضله ونعمته وخزائن جوده ورحمته ما لم يكن بالبال ولا يدور في الخيال ما يصل الطرف إليها، يسرها الله تعالى حتى صارت مقاعد، وهذا يعرف بعضها بالذوق من له نصيب من معرفة الله وتوحيده وحقائق الإيمان، وما هو مطلوب الأولين والآخرين من العلم والإيمان، فإن اللذة والفرحة والسرور وطيب الوقت والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه، إنما هو في معرفة الله سبحانه وتوحيده والإيمان به وانفتاح الحقائق الإيمانية والمعارف القرآنية، كما قال البعض، لقد كنت في حال أقول فيها: إن كان أهل الجنة في هذه الحال إنهم لفي عيش طيب..»⁽¹⁾.

وظل الشيخ بالقاهرة فترة، يفتى ويُعلم، ويتردد عليه الزوار والمحبين والمستفتين، إلى أن غادرها إلى دمشق في عام 712هـ.

ولكن مما يلفت النظر في هذه المحن التي يتعرض لها الإمام نقطتين جديرتين بالاعتبار، الأولى، أنه لا يمنع وجود علماء سلطة ومرترقة وأهل ضلال وبدع، من وجود علماء يخشون الله ويصدعون بالحق، فكم وقعت رسالة هؤلاء العلماء المخلصين على قلوب أهل الحق برداً وسلاماً، إذ كتبوا إلى

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 2، ص 22.

السلطان يقولون: «أما بعد، فإنه لما قرع أسماع أهل البلاد الشرقية والنواحي العراقية التضييق على شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية سلمه الله، عظم ذلك على المسلمين وشق على ذوى الدين وارتفعت رؤوس الملحدين وطابت نفوس أهل البدع والأهواء بأكابر الفضلاء وأئمة العلماء، أنهموا حال هذا الأمر الشنيع إلى الحضرة الشريفة السلطانية زادها الله تشرifaً، وكتبوا أجوبتهم في تصويب ما أجاب به الشيخ سلمه الله في فتواه، وذكروا من علمه وفضائله بعض ما هو فيه وحملوا ذلك بين يدي مولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره وضاعف اقتداه، غيرة منهم على هذا الدين ونصيحة للإسلام وأمرء المؤمنين»⁽¹⁾.

فهؤلاء لم يصبروا على تلك المحن التي يتعرض لها الإمام فكتبوا وأعلنوا رفضهم على الملاء، ومدوا يد العون للإمام اعترافاً بفضله وإقراراً بمكانته وعلمه، وهو ما يبعث الأمل في النفوس أن الإسلام سيظل بخير وعافية، نعم، قد ينخر السوس جسده، وقد يعترى السقم بدنه، ولكنه أبداً لن يموت، لأن الله يحفظه برجاله الأتقياء، وبعلمائه الأنقياء.

أما الثانية، وهي الأشد لفتناً للأنظار أن الإمام (رحمه الله) كان متساحاً لأقصى درجة حتى مع الخصوم، ذلك أن السلطان الناصر أراد قتل معارضيهِ نكاية بما فعلوه به وأدخلوه السجن وضيقوا عليه، وظن أن الإمام سيوافقهِ، ولكنه فوجئ بكلمات كالصواعق من الإمام ابن تيمية: «إذا قتلت هؤلاء فلن تجد بعدهم مثلهم»، فقال له السلطان: إنهم قد آذوك، وأرادوا قتلك مراراً، فقال الإمام: «من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه،

(1) ابن عبد الهادي، العقود الدرية، ص 350.

وأنا لا أنتصر لنفسي» وما زال بالسلطان حتى حلم عنهم وعفا وصفح⁽¹⁾ وفي ذلك يقول ابن مخلوف المالكي: «ما رأينا أحلم من ابن تيمية سعيينا في دمه، فلما قدر علينا عفا عنا»⁽²⁾.

أرايتم الفرق بين الرجل وخصومه!!

ولو يكن عفوه ضعفاً ولا استعطافاً لأحد، ولا رياءً لأحد، بل كانت تلك صفات فطرت في جبلته، فتراه يقول: «وأنا والله من أعظم الناس معاونة على إطفاء كل شر، وإقامة كل خير، وابن مخلوف لو عمل مهما عمل، والله ما أقدر على خير إلا وأعمله معه، ولا أعين عليه عدوه قط، ولا حول ولا قوة إلا بالله هذه نيتي وعزمي، مع علمي بجميع الأمور، فإني أعلم أن الشيطان ينزع بين المؤمنين، ولن أكون عوناً للشيطان على إخواني المسلمين، ولو كنت خارجاً لكنت أعلم بماذا أعاونه، لكن هذه مسألة قد فعلوها زوراً، والله يختار للمسلمين جميعهم ما فيه الخيرة في دينهم ودنياهم، ولن ينقطع الدور، وتزول الحيرة إلا بالإجابة إلى الله والاستغفار، والتوبة وصدق الإلتجاء، فإنه سبحانه لا ملجأ منه إلا إليه ولا حول ولا قوة إلا بالله»⁽³⁾..

الله الله في كلمات كالدرد المنثور.. ابن مخلوف سعى في دم الإمام، والإمام يقول إنه لن ينصر عدوه عليه أبداً ولن يحمل له أو لغيره ضغينة، ويرد كل ما حدث إلى إرادة الله.. ذالكم هو ابن تيمية، الذي لم ينتصر لنفسه أبداً، بل ينتصر للدين: «نعم، يمكنني ألا أنتصر لنفسي، ولا أجازي من أساء إليّ

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص54.

(2) طبقات ابن رجب، ج2، ص398.

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج3، ص173.

وافترى علىّ، ولا أطلب حظي، ولا أقصد إيذاء أحد بحقي، وهذا كله مبذول مني ولله الحمد، ونفسي طيبة بذلك، وكنت قد قلت لهم، الضرر في هذه القضية ليس عليّ، بل عليكم، فإن الذين أثاروها من أعداء الإسلام الذين يبغضونه، ويبغضون أوليائه والمجاهدين عنه، ويختارون انتصار أعدائه من التتار ونحوهم.

وهم دبّروا عليكم حيلة يفسدون بها ملتكم ودولتكم، وقد ذهب بعضهم إلى بلدان التتار وبعضهم مقيم بالشام وغيره، ولهذه القضية أسرار لا يمكنني ذكرها، ولا أسمى من دخل في ذلك حتى تشاوروا نائب السلطان فإن أذن في ذلك ذكرته، وإلا فلا يقال، فتعجب أحد الجالسين وقال: يا مولانا ألا تسمى لي أنت أحداً؟ فقلت، وأنا لا أفعل ذلك وهذا لا يصلح.

لكن تعرفون من حيث الجملة أنهم قصدوا فساد دينكم ودنياكم، وجعلوني إماماً تستراً، لعلمهم بأنّي أواليكم، وأسعى في صلاح دينكم ودنياكم، وسوف ينكشف الأمر إن شاء الله. قلت له، وإلا فأنا على أي شيء أخاف، إن قُتلت كنت من أفضل الشهداء، وكان على الرحمة والرضوان إلى يوم القيامة⁽¹⁾ وكان على من قتلني اللعنة الدائمة في الدنيا والعذاب في الآخرة! ليعلم كل من يؤمن بالله ورسوله أنّي إن قُتلت فلاجل دين الله، وإن حُبست فالحبس في حقّي من أعظم نعم الله عليّ، والله ما أطيق أن أشكر نعمة الله على في هذا الحبس وليس لي ما أخاف الناس عليه، لا مدرستي، ولا مالي، ولا رياستي وجاهي، وإنما الخوف عليكم إذا ذهب ما أنتم فيه من الرياسة

(1) هذه الفقرة استغلها أحد السفهاء ووظفها ضد الإمام ابن تيمية وقال في فهمه القاصر بأن الإمام يرفع من قدر نفسه متأولاً عليه ما ليس فيه وعند الله تجتمع الخصوم

«والمال» ثم يُتم حديثه عن أولئك الذين ظلموه في مصر فيقول: «وهؤلاء الذين بمصر من الأمراء والقضاة والمشايخ، إخواني وأصحابي، أنا ما أسأت إلى أحد منهم قط، وما زلت محسناً إليهم، فأى شيء بيني وبينهم؟! ولكن لبس عليهم المنافقون أعداء الإسلام، وأنا أقول لكم لكن لم يتفق أنى قلت هذا له، إن في المؤمنين من يسمع كلام المنافقين ويطيعهم، وإن لم يكن منافقاً، كما قال تعالى ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: 47] وقد قال الله لنبيه ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ﴾ [الأحزاب: 48]»⁽¹⁾.

كلمات تعلوها السماحة، خرجت من نفس طيبة وقلب حنون وعقل كبير، فهل يا ترى يتورع الأعداء ويكفون الأذى، إنهم لم يقبضوا يد السوء عن الإسلام ولا عن الإمام، فما لبثوا أن أوغروا صدر السلطان من جديد إثر فتوى من الإمام بأن الحلف بالطلاق لا يجوز ولا يقع الطلاق به، ولكن على الحالف كفارة اليمين، وأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع إلا طلاقة واحدة رجعية⁽²⁾.

ويسعى المرجفون في المدينة للوشاية وينجحون في مسعاهم ذاك، فيصدر مرسوماً في عام 718هـ بمنع الإمام تقي الدين ابن تيمية عن الفتوى، وأن ينادى بهذا القرار في شتى الأمصار.

ولكن الإمام (رحمه الله) لم يعبأ لهذا المنشور، وظل يُفتي الناس إلى أن

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 3، ص 140 وما بعدها.

(2) وهو مذهب الإمام أحمد بالأساس، وواقفه على ذلك كثير من فقهاء الشافعية والمالكية القدامى والمحدثين، ولكن البعض الآخر يرى وقوعه ثلاث لفعل سيدنا عمر بن الخطاب ذلك حين قال «وجدت الناس يستخفون بالطلاق فجعلتها ثلاث»

حُبس بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً، ثم أخرج من السجن بعد ذلك وعاد إلى ما كان عليه من الاشتغال بالعلم والتأليف⁽¹⁾.

ثم كانت خاتمة الجهاد للإمام ابن تيمية بأن ابتعث الأعداء فتوى قديمة له، يُحرم فيها شد الرحال لأضرحة الأولياء، لأن السفر المشروع فقط إلى المسجد النبوي أو المسجد الحرام أو المسجد الأقصى⁽²⁾.

وهل في هذه الفتوى من خطأ؟ أو مغالاة أو تشدد؟ أليس هذا بحديث للنبي الكريم ﷺ.

ولكن القوم يريدون الخلاص منه بأى وسيلة، فأوغروا صدر الجالس على الكرسي بغير حقه فصدر المرسوم عام 726 هـ باعتقال الإمام، فكان اعتقالاً لا ينتهى إلا بالوفاة.

وسُر الشيخ الجليل بهذا المرسوم، ودخل السجن عن رضا كعاداته، بالمثل تماماً كما دخله نبي الله يوسف من قبل عن رضا واختيار.

ولكن مما يؤسف حقاً، شهادته البعض من القدماء والمحدثين على السواء في سجن الرجل على الدوام، فما يخرج منه إلا ليفد إليه من جديد تنفيذاً لحكم صدر منذ فترة ولم يجتزئوا على تنفيذه مباشرة، فأخذوا ينفذونه بالبطء، لذا كان الإمام لا يخرج من السجن إلا فترة وجيزة ثم يزج به في غياهبه مرة أخرى، ولكن بعض المحدثين الذين استمرئوا حالة الكذب

(1) ابن الوردي، ج 2، ص 267.

(2) صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل البخاري، 9 أجزاء في ثلاث مجلدات، دار الجيل، بيروت، د.ت، كتاب الصوم، حديث رقم 67، ومسلم في كتاب الحج باب سفر المرأة مع محرم إلى حج غيره، حديث رقم 827 / 415.

المتعمد والجهل المتعمق عن سجن الإمام يُظهرون الشماتة في رجل تحت الثرى، فيقول أحدهم عن سجنه «إن الذين سجنوا شيخ الإسلام وتسلطوا عليه إنما عاملوه بهذه الأصول التي يؤصلها، ونظروا إليه بالمنظار الذي نظر به هو إلى الآخرين، وهذا أمر مؤسف، أمر مؤسف أن يكون الخطاب الطائفي والمذهبي هو سيد الموقف، أمر مؤسف أن تتسلط كل فرقة على الأخرى حين يكون لها الغلبة، فإذا دارت الأيام تغلبت الفرقة المستضعفة واستُضعفت الفرقة التي كان لها الغلبة وهكذا دواليك، وحين تتعامل كل طائفة مع مخالفيها بهذه الطريقة فستنقطع أواصر الأخوة بين المسلمين وسيقضى على الوحدة الإسلامية التي هي مطلب وهدف»⁽¹⁾.

يا رجل، سيقضى على الوحدة الإسلامية!! إذن فلتقل لنفسك أولاً لأنك تنخر في جسد هذه الأمة أنت وأمثالك من الذين شحذوا سكينهم ضد هذا الدين ممثلاً في أحكامه وعلمائه واجتهاداتهم، ومن دعا إلى الوحدة مثلها دعا إليها الإمام (رحمه الله)، ومن ناضل لأجلها مثلها ناضل؟! ودفع حياته لأجلها مثلها دفع!!

ثم هل قرأت الأسباب التي دخل لأجلها الإمام السجن؟ وهل علمت من هم خصومه القدامى على وجه التحديد؟ جهلك بأبسط هذه الحقائق جعلك تقول مثل هذا الكلام، وتصدر مثل هذه الأحكام.

لر يسجن ابن تيمية ولا مرة إلا وكان هو الأقوى من كل الوجوه، وإلا وكان هو المختار للسجن بإرادته!! والتاريخ لا يكذب، فقط يريد بصائر تقرأ وتعي، وقلوب تشعر بحقائق الأمور.

(1) رائد السمهوري، المرجع السابق، ص 1.

لقد أقبل الإمام الصابر المحتسب على عبادة الله وقراءة كتبه والتأليف في المسائل الفقهية والخلافية إلى أن صدر المرسوم الملكي بمنعه من الكتابة وحرمانه من الكتب، ويحكى ابن كثير تلك الواقعة بقوله: «وفي يوم الإثنين تاسع جمادى الآخرة أُخرج ما كان عند الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الكتب والأوراق والدواة والقلم، ومُنِع من الكتب والمطالعة، وحُمِلت كتبه في مستهل رجب إلى خزانة الكتب بالعادية الكبيرة»⁽¹⁾.

ويذكر صاحب «وفيات الأعيان»: أن الإمام كتب عقب ذلك يقول أن إخراج الكتب من عنده من أعظم النقم التي أصابته.⁽²⁾

ولكن تلك كانت خاتمة المحن، فقد نجح القوم في تنفيذ الإعدام في غير ضجر أو استجلاب سُخط فما راع الناس إلا نعيه (رحمه الله) في فجر يوم الإثنين، العشرين من ذى القعدة سنة 728هـ، فأصابهم الخبر بالوجوم، وخيم عليهم الحزن، وسارت السيرة بالإمام وجهاده وسجنه وظلمه الذى عاناه طيلة حياته، تُلَف السيرة أرجاء البلاد، وتُعَم بين جميع العباد .. وأخذ أصحابه يدخلون عليه فرادى وجماعات، يقول ابن كثير وهو شاهد عيان ما نصه: «فاجتمع عند الشيخ في قاعته خلق من أخصاء أصحابه من الدولة، وغيرهم من أهل البلد والصالحين، فجلسوا عنده يبايعون ويثنون، وكنت فيمن حضر هناك مع شيخنا المحافظ أبى الحجاج المزى رحمه الله وكشفت عن وجه الشيخ، ونظرت إليه وقبلته، وعلى رأسه عمامة مغروزة، وقد علاه الشيب أكثر مما فارقناه، وأخبر الحاضرين أخوه زين الدين عبد الرحمن أنه

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص127.

(2) نقلاً عن د. محمد يوسف موسى، ابن تيمية، ص111.

قرأ هو والشيخ منذ دخلا القلعة ثمانين ختمة وشرعا في الحادية والثمانين، فانتھيا فيها إلى آخر اقتربت الساعة ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾ (١).

الله الله على نهاية الصالحين!! آخر ما يقرأ من القرآن ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾... يا لها من نهاية تُسطر الفخر أبد الدهر، تسطر المجد والعز والفخار لأصحابها، عز لا يحويه دنس، ومجد لا يقوى على إبادته أهل الخلاف والإرجاف، لأنها نهايات يختارها الله سبحانه، ويصنعها على عينيه، لتكون تكريماً منه سبحانه لخاصته وأوليائه، تكريم على رؤوس الأشهاد، تكريم لا يُشترى بمال، ولا يُدفع عن صاحبه بمال، لأنه من محض عمل الإله سبحانه وهو أعلم بقلوب العالمين.

وسارت الركبان من الحضر والبادية ليشهدوا جنازة الإمام تقي الدين بن تيمية، فيذكر الوردى وابن رجب وابن كثير أنها كانت جنازة قريبة من جنازة الإمام أحمد بن حنبل (٢) (رحمهما الله) فقد اجتمع الناس لجنازة الإمام ابن تيمية إجتماعاً لو جمعهم سلطان قاهر، وديوان حاصر، لما بلغوا معشار هذا الجمع الذي اجتمع لشهود تلك الجنازة (٣) مما جعل أحد الناس يصرخ بقوله: «هكذا تكون جنائز أئمة السنة» فتباكي الناس وضجوا بالبكاء، وجلسوا من كثرتهم وشدة زحامهم على غير صفوف، بل رُصوا رصاً،

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٣١.

(٢) الإمام العالم العامل الذي لم ينحس إلا الله، ولد رحمه الله عام ٧٨٠م بالعراق وتوفي عام ٨٥٥م وهو رابع الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة وله التصانيف العديدة. انظر سير أعلام النبلاء، ج ١، ص ١١٤.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٣٢.

فلا يتمكن أحد من السجود إلا بكلفة جو الجامع، وبرى الأذقة والأسواق، ونوى خلق كثير الصيام لأنهم لا يتفرغون في هذا اليوم لأكل أو شرب⁽¹⁾.

وأسدل الستار بالأمر الإلهي المباشر على حياة رجل عاش لله، ومات لله، وجاهد لله، واختار الآخرة على الدنيا، وقدم لدين الله حياته راضية بها نفسه، طيباً بها فؤاده، فلم يتألم رغم كثرة ما تعرض له من ألم، ولم يضجر رغم كثرة مسببات الضجر، بل كان راضياً مستسلماً لأمر الله وقضائه

ونام الرجل نومته الأخيرة، ولكنها ليست أبداً المعركة الأخيرة التي يخوضها، فقط خاض (رحمه الله) من المعارك وهو ميت ما لم يخضه وهو حي، فقد نام جسده فقط، لكن ظل فكره وظلت روحه يشبعان الوجود علماً وحياة، يقول الشرقاوى: « وهكذا صمت الرجل الذي ملأ الحياة من حوله ضجيجاً وزحاماً، واضطراباً بآرائه واقتحاماته الفكرية .. وما زال فكره يملأ الحياة من بعده ضجيجاً واضطراباً .. وما زال حتى اليوم يحتفظ بضراوة الخصوم وحماسة الأنصار »⁽²⁾.

وتنافس القوم في رثائه، وما أعظم تنافس الشعراء في تجسيد أيام الله، وفي الفخر بهذه الأمة، فكان الشيخ زين الدين عمر بن الوردي ممن رثاه بقصيدة عصباء جاء فيها:

عشا في عرضه قومه سلاط لهم من نثر جواهره التقاط
تقى الدين أحمد خير حبر خروق المعضلات به تخاط

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 14، ص 132.

(2) عبد الرحمن الشرقاوى، المرجع السابق، ص 275.

توفى وهو محبوس فريد
ولو حضروا حيث قضى لألفوا
فتى فى عمله أضحى فريداً
فيا لله ما قد ضم لحيد
هم حسدوه لما لم ينالوا
وكانوا على طرائقه كسالى
وحبس الدر فى الأصواف فخر
بآل الهاشمى له اقتداء
ألم يك فيكمو رجل رشيد
إمام لا ولاية كان يرجو
ولا جارا كمو فى كسب مال
فها هو قد مات واسترحتم
وحلوا واعقدوا من غير رد
وليس له إلى الدنيا انبساط
ملائكة النعيم به أحاطوا
وحل المشكلات به يُنَاط
ويا لله ما غطى البساط
مناقبه فقد مكروا وشاطوا
ولكن فى أذاه لهم نشاط
وعند الشيخ بالسجن اغتباط
فقد ذاقوا المنون ولم يواطوا
يرى سجن الإمام فيستشاط
ولا وقف عليه ولا رباط
ولم يُعهد له بكم اختلاط
فعاطوا ما أردتم أن تعاطوا
عليكم، وانطوى ذاك البساط⁽¹⁾

يرحم الله الإمام رحمة واسعة، ويجزيه كأفضل ما يجزى عالماً مخلصاً
القلب والفؤاد.

(1) نقلاً عن د. محمد يوسف موسى، المرجع السابق / ص 115 - 116.

الخاتمة

انتهت المحاكمة واقعياً بإعدام الرجل منذ سبعة قرون
 وازدادوا عقوداً، لكن بقي رماد المعركة كما هو، بقيت
 آثارها حتى اليوم، يتصاعد دخانها، ويتطاير شررها،
 ومن حين لآخر تُضرم نارها، فالبعض يرى أن ابن تيمية
 هو المشكلة ذاتها، وأن تراثه كله لا قيمة له، فقال أحد هؤلاء «واحسرتاه
 على قناطر الكتب المقنطرة التي صارت هباءً منثوراً»⁽¹⁾ ومنهم من طالب
 بإصدار حكم آخر على الرجل بالإعدام بعد وفاته بقرون، ومنهم من طالب
 بحرق تراث الرجل ليقضى تماماً على العنف والتشدد، ومنهم - وهم الأقل
 عدداً - من يدعون بعقلانية إلى النظر إلى التراث كله بموضوعية فما وجدناه
 صالحاً أخذناه وشكرناه، وما وجدناه بخلاف ذلك تركناه وعذرناه فيه ولم
 نخرجه عن طور زمانه ومحيط مكانه وظروف عصره.

كل هذه وجهات نظر حول الرجل وتراثه، وكل هذه الحروب الكلامية
 واقعية على الأرض لا نسردها من خيالنا، مع أن الذين ينقدون الرجل اليوم
 لم يأتوا بجديد فقد نقده معاصروه من قضاة المالكية والشافعية بقصد الدنيا
 لا الدين، بقصد السلطان والدنيا لا الآخرة.

ولكن يبقى السؤال للجميع، قدماء ومحدثين، لم يكن ابن تيمية مقلداً

(1) ابن تيمية في الميزان، ص 148.

ولكن كان مجتهداً ومجدداً، فلماذا نقف عند حدود تراثه ما بين مادحين وقادحين؟ وأين إنتاجنا نحن؟ أين علمنا وتجديدنا؟!

هذه هي وجهة النظر الضيقة التي ينظر بها القوم إلى القضية، فلم تتعد في فكرهم حدود رجل اجتهد فأخطأ، أو حدود رجل يعتبرونه متشدداً، أو حدود رجل يعادى التصوف!!

هذا كله غير صحيح بالمرة، وهذا الفهم يؤخر ولا يقدم، بل ينتكس بالأمة انتكاساً وينزلق بها نحو الهاوية.

الموضوع أعمق من تلك السطحية الكاذبة، وأكبر مما لا تدركه العقول الواهية، الموضوع يا سادة يتلخص في مستقبل أمة تضيع، تُقتطع أرضها، ويعرى ويجوع شعبها، وينهار بنيانها، بنياناً بعد بنيان، وقرية بعد قرية، وبلد بعد بلد، ودولة بعد دولة، كل هذا يحدث ونحن بكذب أو بجهل أو ببيع للضمير والقلب معاً نغض الطرف عن كل هذه المصائب ونعلق كل شيء على شماعة الأموات، فإذا ما ظهرت داعش لا مانع أبداً من أن نعلقها على شماعة ابن تيمية، ونتهم الرجل بالتشدد زوراً وبهتاناً حتى نبرر وجود داعش، وحتى لا نفتح النار على أنفسنا بقول الحق، لنصدع بالحق، لنقول أن داعش صنعة عدة عوامل، صنعة استبداد سياسى، وانهيار فى نظم التعليم فى وطننا العربى والإسلامى، وانهيار المؤسسات الدينية التى لا تقوم بدورها كما ينبغى، ثم فى الأخير انهيار فى المستوى السياسى، فنكون كالأسود بعضنا على بعض، وكالقطط على أعدائنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تلك هى الحقيقة يا سادة، دعونا نكن منصفين ولو لمرة واحدة فى حياتنا، فالكل سيفنى، والكل سيُعرض على الله فى يوم كان مقداره خمسون ألف سنة

أو يزيدون، لن تغني نفس عن نفس شيئاً، والأمر كله يومئذ لله، لا كلام، ولا همس ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: 108] ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: 38].

أفيقوا يا سادة، ليست القضية أبداً في تراث ابن تيمية، وإلا فلتحذفوا من تراث الرجل ما ترون فيه تشدد وما ترونه لا يتماشى مع واقعنا ولنستفيد من بقية التراث وتنتهي القضية، بدلاً من التراشق البنداقى بين أبناء الأمة الواحدة، وبدلاً من تخوين بعضنا البعض، وبدلاً من تشتتنا وتشرذمنا وتمزقنا وتفتت أوصالنا وانهيار وحدتنا.

لكن يأبى أعداؤكم ذلك.

هم يعلمون أن ابن تيمية يدعو إلى وحدة الأمة، وهم يحاربون تلك الوحدة!! يعلمون أن ابن تيمية اجتهد في الدين والعلم والعقيدة وكان حجراً صلباً أمام تزييف العقيدة، ولكنهم يريدونها مزيفة بغير مضمون، وبغير لون أو طعم أو رائحة!!

لذا دفعوا للذين يمكن استئجارهم، وقالوا لهم عليكم وابن تيمية، عليكم وابن حنبل وعليكم بكل مجدد في الإسلام، بل وعليكم بالتراث الإسلامى كله، انشروا الشك بين أبناء الأمة المسلمة، فإذا تشككوا في دينهم سهّل إقناعهم بكل ما نريد، وسهّل اغتصاب أرضهم وعرضهم وجعلهم خدم عندنا!!

تلك هى الحكاية ببساطة يا سادة.

هكذا يفكر لنا الأعداء، وهكذا يدبرون لاغتيالنا معنوياً ونفسياً ودينياً

أولاً، ثم اغتيالنا جسدياً ثانياً، وما أسهل هذا وذاك، وما أكثر المستعدون لبيع أنفسهم ودينهم ووطنهم بدرهم معدودة لتحقيق هذه الأغراض الدنيئة!!

واقترب تحقيق الأمنيات الصهيونية والصليبية على أرضنا العربية والإسلامية، ولعل اليمن وليبيا وسوريا دلائل حية وقوية على نجاح تلك المخططات الغربية التي استُعملت فيها أيدي عربية وإسلامية، وتسببت في تشريد ملايين البشر، وقتل مئات الألوف بل ملايين أيضاً، وهتكت أعراض مئات الألوف من النساء، وزرعت في شبابنا اللامبالاة واليأس والإحباط والإتكالية، وأصبحنا أمة لا تملك مصيرها، رغم كثرتها، إلا أنها بحق أصبحت كغناء السيل.

وماذا بعد يا سادة؟! وماذا بعد هذا الإنهيار وهذا التشتت والتفرق والتشردم حتى أصبحنا أذل أمة بين الأمم!!

وهل من ذل أكثر مما ذقناه في سوريا؟! أين علماء الإسلام أبناء العروبة؟! ابن تيمية الذي تنتقدونه يا سفهاء القوم كان عالماً يخشاه الأمراء والسلطين والملوك، لأنه كان عالماً بحق، لا يخشى في الحق إلا الله، لا يهاب سلطان، ولا يقيم وزناً لأمر، ولا يعبأ بملك، لم يكن يرى في أقواله وأفعاله إلا الله، فكم مرة ذهب إلى السلطين والأمراء مدافعاً عن حقوق البسطاء والضعفاء، وكم مرة ذهب إليهم أمراً لهم بالجهاد وحاثاً لهم عليه، وكم مرة أمسك بسيفه ووقف وسط الجنود يقاتل التتار، كم مرة جاهد أهل البدع والأهواء في حين كان السلطان يمدهم عونهم ويضفي عليهم من ملكه وماله ورعايته، وكم من مرات دخل السجن لأجل الحق، لأجل العقيدة، لأجل الدين؟!

بالله عليكم، هل من حاكم عربي استشار مرة أحد العلماء في الدفاع عن

القدس، أو في الدفاع عن المستضعفين في بلاد الإسلام، أو في إقامة العدل بين الناس؟!

لم يحدث، لأنه لا يوجد عالم له شأن يهابه الملوك والحكام كما كانوا في القديم يهابون العز بن عبد السلام وابن تيمية؟!

وفي عمق الأحداث، وفي عز القتل والسلب والنهب في بلداننا الإسلامية، هل من عالم ذهب إلى بشار الأسد ليأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر؟ هل من عالم ذهب إلى أى حاكم عربي وقال له: اتق الله!!

أيضاً هذا لم يحدث، لماذا؟ لأنه لا يوجد عالم حقيقى لا يخشى إلا الله، ولا يوجد عالم حقيقى يهابه الحكام والملوك والأمراء، ولا يوجد عالم حقيقى له وزن حقيقى في الشارع الإسلامى أو في قلوب المسلمين..

لكن ابن تيمية (رحمه الله) كان ذاك العالم الذى لا يخشى إلا الله، كان ذاك العالم الذى يستطيع أن يذهب إلى السلطان ليأمره وينهاه!! كان ذاك العالم الذى يمكنه الذهاب إلى أى أمير ليأخذ منه الحقوق للضعفاء!!

أرايتم الفرق يا أدياء العلم في أمة محمد!!

ذاك الرجل الذى أنزل الله عليه القرآن يقر مبدءاً إلى يوم القيامة ﴿الَّذِينَ يُلَاقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39].

أرايتم الفرق والفارق بين ابن تيمية وبين علماء الإسلام اليوم؟! أعلمتم جوهر القضية الحقيقية يا سادة!!

إنها لا تقف أبداً عند حدود تراث ابن تيمية ما بين مدح وذم، ولكنها

رواية كبرى ذات عدة فصول، لم يكتمل فصلها الأخير بعد!!

إذن، فليقل لنا العامة والمثقفون، أين علماؤنا اليوم مما يعانيه وطننا العربي والإسلامي؟!

أين هم وقد رأوا مشهد الطفلة آيات عبد الله، تلکم الطفلة السورية التي أکبت على قدم بابا الفاتيكان تقبلهما مستصرخة به ومستغيثة « أرجوك ارحمنا أنا وأخوتي وصحباتي... »

کلمات برئية، تقتل القلب مائة ألف مرة، وتبکی لها العيون إلى الأبد!!

أين هم وقد رأوا جثة الطفل على عبد زيد، الذي لفظه البحر للیم شهيداً وشاهداً على هوان أمة أحمد؟!

أين هم من شهداء حلب في منتصف شهر الله الحرام رجب من العام 1437 هـ الموافق الثامن والعشرين من ابريل لعام 2016م، أين هم من كافة هذه الأحداث؟؟؟

أطفال في عمر الزهور يقتلون، يرفعون الأيدي إلى السماء، سنخبر الله بكل شيء، سنقص عليه المأساة بأكملها، منذ البداية، وحتى صعود الأرواح إليه..

شيوخ يجلسون على أنقاض البيوت يبكون بكاءً ليس كالبكاء، ويثنون أنيناً ليس كالأنين، ويصرخون صراخاً ليس كالصراخ، بل بالأحرى يعيشون حياة ليست كالحياة.. ونساء يبكون دماً وليس دمعاً، يكون أزواجهن ساعة، ثم يكون أطفالهن ساعة أخرى، ثم يكون بيوتهن ساعة ثالثة، وهكذا يستمر البكاء إلى منتهى الحياة...

أين العلماء في أمة أحمد ليعثوا وحدة إسلامية وشراسة إسلامية ونهضة

إسلامية من جديد!! أين هم ليوحدوا الصفوف، ولا مانع أبداً أن يقفوا مجاهدين بأنفسهم في مرحلة البناء كما وقف العز بن عبد السلام وابن تيمية وغيرهم من العلماء الأفذاذ الذين سطرهم التاريخ بأحرف من نور في سجلات الأمة المكلومة، ولا مانع أبداً من أن يموتوا شهداء، إن لم يكونوا شهداء بالسيف، فليكونوا شهداء بالرأى، كما حدث لابن تيمية ولابن حنبل ولكل مخلص وحر من أصحاب الرأى في أمتنا الإسلامية!!

المشكلة أكبر مما يحيط بها عقل، يحاول الأعداء اختصارها في قضايا فرعية، أو في أسماء محدودة كاسم ابن تيمية مثلاً، ولكنها مشكلة أمة بأسرها، مأساة أمة تحتضر، تموت، ليس بفناء العمر وانتهاء الأجل، ولكن بفناء العزيمة وانتهاء الرجولة والضمير، تلك هي الحقيقة يا سادة، سمع من سمع، وأعرض من أعرض، اللهم بلغت، اللهم فاشهد.

ملحق الكتاب

رسالة في التصوف بعنوان «الصوفية والفقراء»

للإمام

أحمد بن تيمية

(رحمه الله)



□ مسألة عن الصوفية، وأنهم أقسام، والفقراء أقسام، فما صفة كل قسم، وما يجب عليه ويستحب له أن يسلكه؟

الجواب

الحمد لله، أما لفظ الصوفية فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك. وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ، كالإمام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الداراني وغيرهما.

وقد روى عن سفيان الثوري: أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري.

الأصل الإشتقاقى لكلمة صوفى

وتنازعوا في المعنى الذى أضيف إليه الصوفى، فإنه من أسماء النسب، كالقرشى، والمدنى، وأمثال ذلك.

ف قيل: إنه نسبة إلى أهل الصفة، وهو غلط، لأنه لو كان كذلك ل قيل صُفَى.

وقيل: نسبة إلى الصف المقدم بين يدى الله، وهو أيضاً غلط، فإنه لو كان كذلك ل قيل: صفى.

وقيل: نسبة إلى الصفوة من خلق الله وهو غلط، لأنه لو كان كذلك لقال: صفوى.

وقيل: نسبة إلى صوفة بن بشر بن أد بن طانجة، قبيلة من العرب، كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم، ينسب إليهم النساك.

وهذا إن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ فإنه ضعيف أيضاً، لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك، ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء، لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى، ولأن غالب من تكلم باسم الصوفي لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافاً إلى قبيلة في الجاهلية، ولا وجود لها في الإسلام.

المنشأ الأول للصوفية

وقيل: وهو المعروف أنه نسبة إلى لبس الصوف، فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد من أصحاب الحسن.

وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك، ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، ولهذا كان يقال: فقه كوفي، وعبادة بصرية.

تفضيل الصوف

وقد روى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد بن سيرين: أنه بلغه أن قوماً يفضلون لباس الصوف، فقال إن قوماً يتخيرون الصوف، يقولون إنهم

متشبهون بالمسيح ابن مريم، وهدى نبينا أحب إلينا، وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره أو كلاهما نحواً من هذا.

ما يحكى عن عبادة أهل البصرة

ولهذا غالب ما يحكى عن المبالغة في هذا الباب، إنما هو عن عبادة أهل البصرة. مثل حكاية من مات أو غشى عليه في سماع القرآن ونحوه، كقصة زرارة بن إدد قاضى البصرة، فإنه قرأ في صلاة الفجر: «فإذا نقر في الناقور» فخر ميتاً.

وكقصة أبي جبير الأعمى الذى قرأ عليه صالح المرى فمات، وكذلك غيره ممن روى أنهم ماتوا باستماع قراءته، وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن ولر يكن في الصحابة من هذا حاله.

المنكرون على المبالغة في العبادة:

فلما ظهر ذلك أنكر طائفة من الصحابة والتابعين كأسماء بنت أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن سيرين ونحوهم.

والمنكرون لهم مأخذان: منهم من ظن ذلك تكلفاً وتصنعاً: يذكر عن محمد بن سيرين أنه قال: ما بيننا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن، إلا أن يقرأ على أحدهم وهو على حائط، فإن خر فهو صادق.

ومنهم: من أنكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفاً لما عرف من هدى الصحابة، كما نقل عن أسماء وابنها عبد الله.

والذى عليه جمهور العلماء: أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوباً عليه

لم ينكر عليه، وإن كان حال الثابت أكمل منه، ولهذا لما سئل الإمام أحمد عن هذا، فقال: قرئ القرآن على يحيى بن سعيد القطان، فغشى عليه، ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد فما رأيت أعقل منه. ونحو هذا.

وقد نقل عن الشافعي أنه أصابه ذلك، وعلى بن الفضيل بن عياض قصته مشهورة، وبالجملية فهذا كثير ممن لا يستراب في صدقه.

أحوال الصحابة عند سماع القرآن

لكن الأحوال التي كانت في الصحابة هي المذكورة في القرآن، وهي وجل القلوب ودموع العين، واقتشعار الجلود، كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: 2].

وقال الله تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: 23].

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة: 83].

وقال تعالى ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: 109]. وقد يذم حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب والرين عليها، والجفاء عن الدين ما هو مفهوم وقد فعلوا.

ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

أحوال الناس عند سماع القرآن

بل المراتب ثلاث:

إحداها: حال الظالم لنفسه الذي هو قاسى القلب لا يلين للسمع والذكر، وهؤلاء فيهم شبه من اليهود، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 74].

وقال تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: 16].

والثانية: حال المؤمن التقى الذى فيه ضعف عن حمل ما يرد على قلبه، فهذا الذى يصعق صعق موت أو صعق غشى، فإن ذلك إنما يكون لقوة الوارد وضعف القلب عن حمله.

وقد يوجد مثل هذا فيمن يفرح أو يخاف أو يحزن أو يحب أموراً دنيوية يقتله ذلك أو يمرضه أو يذهب بعقله.

ومن عبّاد الصور من أمرضه العشق أو قتله أو جنّنه، وكذلك فى غيره ولا يكون هذا إلا لمن ورد عليه أمر ضعفت نفسه عن دفعه بمنزلة ما يرد على

البدن من الأسباب التي تمرضه أو تقتله أو كان أحدهم مغلوباً على ذلك، فإذا كان لم يصدر منه تفريط ولا عدوان لم يكن فيه ذنب فيما أصابه فلا وجه للريبة كما لو سمع القرآن السماع الشرعي ولم يفرط بترك ما يوجب له ذلك.

مقام الفناء

وكذلك ما يرد على القلوب مما يسمونه السكر والفناء ونحو ذلك، من الأمور التي تغيب العقل بغير اختيار صاحبها، فإنه إذا لم يكن السبب محظوراً لم يكن السكران مذموماً بل معذوراً، فإن السكران بلا تمييز.

وكذلك قد يحصل ذلك بتناول السكر من الخمر والحشيشة، فإنه يحرم بلا نزاع بين المسلمين، ومن استحل السكر من هذه الأمور فهو كافر.

وقد يحصل بسبب محبة الصور وعشقها كما قيل:

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران

وهذا مذموم لأن سببه محظور.

السماع

وقد يحصل بسبب سماع الأصوات المطربة التي تورث مثل هذا السكر، وهذا أيضاً مذموم، فإنه ليس للرجل أن يسمع من الأصوات التي لم يؤمر بسماعها ما يزيل عقله، إذ إزالة العقل محرم.

ومتى أفضى إليه سبب غير شرعي كان محرماً، وما يحصل في ضمن ذلك

من لذة قلبية أو روحية، ولو بأمور فيها نوع من الإيمان، فهي مغمورة بما يحصل معها من زوال العقل، ولم يأذن لنا الله أن نمنع قلوبنا ولا أرواحنا من لذات الإيمان ولا غيرها، مما يوجب زوال عقولنا⁽¹⁾ بخلاف من زال عقله بسبب مشروع أو بأمر صادفه، لا حيلة له في دفعه⁽²⁾.

وقد يحصل السكر بسبب لا فعل للعبد فيه، كسماع لم يقصده يُهيج قاطنه، ويحرك ساكنه، ونحو ذلك، وهذا لا ملام عليه فيه، وما صدر عنه في حال زوال عقله فهو فيه معذور، لأن القلم مرفوع عن كل من زال عقله، بسبب غير محرم كالغمى عليه والمجنون ونحوهما.

هل السكران مكاف؟

ومن زال عقله بالخمَر فهل هو مكلف حال زوال عقله؟ فيه قولان مشهوران:

وفي طلاق من هذه حاله نزاع مشهور، ومن زال عقله بالبنج يلحق به كما يقوله من يقوله من أصحاب الشافعي وأحمد.

وقيل: يفرق بينه وبين الخمر، لأن هذا يشتهي، وهذا لا يشتهي. ولهذا أوجب الحد في هذا دون هذا وهذا هو المنصوص عن أحمد ومذهب أبي حنيفة.

(1) أي زوالها العارض بطرء هذه اللذة، إذ يعود بانتضاء مدتها، ولكننا إذ علمنا أن شيئاً من ذلك يزول به العقل دائماً، فيكون صاحبه مجنوناً حرم علينا.

(2) قوله بخلاف من زال عقله بسبب مشروع إلخ هو مقابل قوله: ومتى أفضى إليه سبب غير شرعي. إلخ

عقلاء المجانين

ومن هؤلاء من يقوى عليه الوارد حتى يصير مجنوناً، إما بسبب خلط يغلب عليه، وإما بغير ذلك.

ومن هؤلاء عقلاء المجانين الذين يعدون في النساك، وقد يسمون الموهلين. قال فيهم بعض العلماء، هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولاً وأحوالاً، فسلب عقولهم وأسقط أحوالهم، وأبقى ما فرض لما سلب.

فهذه الأحوال التي يقترن بها الغشى أو الموت أو الجنون أو السكر أو الفناء، حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك. إن كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقاً عاجزاً عن دفعها كان محموداً على ما فعله من الخير، وما ناله من الإيمان معذوراً فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره، وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانهم، ونحو ذلك من الأسباب التي تتضمن ترك ما يحبه الله أو فعل ما يكرهه الله.

□ ولكن من لم يزل عقله أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم، أو مثله أو أكمل منه، فهو أفضل منهم.

وهذه حال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهو حال نبينا ﷺ، فإنه أسرى به إلى السماء وأراه الله ما أراه، وأصبح كبئت لم يتغير عليه حاله، فحاله أفضل من حال موسى (عليه السلام) الذي خرَّ صعقاً لما تجلى ربه للجبل وحال موسى حالة جليلة عليّة فاضلة، لكن حال محمد ﷺ أكمل وأعلى وأفضل.

□ والمقصود أن هذه الأمور التي فيها زيادة في العبادة والأحوال، خرجت من البصرة وذلك لشدة الخوف.

فإن الذي يذكرونه من خوف عتبة الغلام وعطاء السلمى وأمثالهما أمر عظيم ولا ريب أن حالهم أكمل وأفضل ممن لم يكن عنده من خشية الله ما قابلهم أو تفضل عليهم.

الاقتصاد فى الخوف

ومن خاف الله خوفاً مقتصدًا، يدعوه إلى فعل ما يحبه الله وترك ما يكره الله، من غير هذه الزيادة فحاله أكمل، وأفضل من حال هؤلاء وهو حال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقد روى أن عطاء السلمى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَأَى بعد موته، ف قيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: قال لى يا عطاء أما استحييت منى أن تخافنى كل هذا؟ أما بلغك أنى غفور رحيم؟

البصرة والكوفة

وكذلك ما يذكر عن أمثال هؤلاء من الأحوال من الزهد والورع والعبادة، وأمثال ذلك قد ينقل فيها من الزيادة على حال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وعلى ما سنه الرسول أموراً توجب أن يصير الناس طرفين. قوم يذمون هؤلاء وينتقصونهم وربما أسرفوا فى ذلك، وقوم يغلون فيهم ويجعلون هذا الطريق من أكمل الطرق وأعلاها.

والتحقيق: أنهم فى هذه العبادات والأحوال مجتهدون، كما كان جيرانهم من أهل الكوفة مجتهدين فى مسائل القضاء والإمارة ونحو ذلك، وخرج فيهم الرأى الذى فيه من مخالفة السنة ما أنكره جمهور الناس.

وخيار الناس من أهل الفقه والرأى في أولئك الكوفيين على طرفين قوم يذمونهم ويسرفون في ذمهم، وقوم يغلون في تعظيمهم ويجعلونهم أعلم بالفقه من غيرهم، وربما فضلوه على الصحابة، كما أن الغلاة في أولئك العباد قد يفضلونهم على الصحابة، وهذا باب يفترق فيه الناس.

أفضل الطرق

والصواب: للمسلم أن يعلم أن خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وخير القرون القرن الذى بُعث فيهم، وأن أفضل الطرق والسبل إلى الله ما كان عليه هو وأصحابه، ويعلم من ذلك أن على المؤمنين أن يتقوا الله بحسب اجتهادهم ووسعهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16].

وقال ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم» وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286].

وإن كثيراً من المؤمنين المتقين أولياء الله قد لا يحصل لهم من كمال العلم والإيمان ما حصل للصحابة فيتنقى الله ما استطاع ويطيعه بحسب اجتهاده، فلا بد أن يصدر منه خطأ إما في علومه وأقواله، وإما في أعماله وأحواله، ويثابون على طاعتهم ويغفر لهم خطاياهم، فإن الله تعالى قال ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 285 - 286]، قال الله تعالى: قد فعلت.

فمن جعل طريق أحد من العلماء والفقهاء، أو طريق أحد من العباد والنسك أفضل من طريق الصحابة فهو مخطئ ضال مبتدع، ومن جعل كل مجتهد في طاعة أخطأ في بعض الأمور مذموماً معيباً ممقوتاً، فهو مخطئ ضال مبتدع.

ثم الناس في الحب والبغض والموالة والمعاداة هم أيضاً مجتهدون، يصيرون تارة ويخطئون تارة، وكثير من الناس إذا علم من الرجل ما يحبه أحب الرجل مطلقاً، وأعرض عن سيئاته، وإذا علم منه ما يبغضه، أبغضه مطلقاً وأعرض عن حسناته.

وهذا من أقوال أهل البدع والخوارج المعتزلة والمرجئة.

وأهل السنة والجماعة يقولون: ما دلّ عليه الكتاب والسنة والإجماع، وهو أن المؤمن يستحق بوعده الله وفضله الثواب على حسناته، ويستحق العقاب على سيئاته، وإن الشخص الواحد يجمع فيه ما يثاب عليه وما يعاقب عليه، وما يحمد عليه وما يذم عليه، وما يحب منه وما يبغض منه، فهذا هذا.

الصديقون

وإذا عُرف أن منشأ التصوف كان من البصرة، وأنه كان فيها من يسلك من طريق العبادة والزهد ما له فيه اجتهاد، كما كان في الكوفة، من يسلك من طريق الفقه والعلم ماله فيه اجتهاد، وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة وهى لباس الصوف، فقليل في أحدهم / صوفي، وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف، ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال.

ثم التصوف عندهم له حقائق وأحواله معروفة، قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه.

كقول بعضهم: الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر.

التصوف: كتمان المعاني، وترك الدعاوى، وأشبه ذلك .

وهم يسرون بالصوفي إلى معنى الصديق.

وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون كما قال الله تعالى ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: 69].

ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفي، لكن هو في الحقيقة نوع من الصديقين فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه، فكان الصديق من أهل هذه الطريق، كما يقال صديقو العلماء، وصديقو الأمراء، فهو أخص من الصديق المطلق، ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين: إنهم صديقون، فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة: إنهم صديقون أيضاً، كل بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده، وقد يكونون من أجل الصديقين بحسب زمانهم، فهم من أكمل صديقي زمانهم، وإن الصديق في العصر الأول أكمل منهم.

الصديقون درجات؛

والصديقون درجات وأنواع، ولهذا يوجد لكل منهم صنف من الأحوال والعبادات حقه وأحكامه وغلب عليه، وإن كان غيره في غير ذلك الصنف أكمل منه، وأفضل منه.

ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه، تنازع الناس في طريقهم فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة.

ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام.

وطائفة غلت فيهم، وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

والصواب: أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه.

زنادقة التصوف

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم، كالحلاج مثلاً، فإن أكثر مشايخ الطريق

أنكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد محمد سيد الطائفة وغيره، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية، وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد.

أصناف الصوفية

فهذا أصل التصوف ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف:

صوفية الحقائق، وصوفية الأرزاق، وصوفية الرسم.

فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم .

وأما صوفية الأرزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالحوانك، فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فإن هذا عزيز، وأكبر أهل الحقائق لا يتصدون بلوازم الحوانك، ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط:

أحدها: العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويحتنبون المحارم.

والثاني: التأدب بآداب أهل الطريق، وهى الآداب الشرعية فى غالب الأوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت إليها.

والثالث: أن لا يكون أحدهم متمسكاً بفضول الدنيا، فأما من كان جماعاً للمال، أو كان غير متخلق بالأخلاق المحموده، ولا يتأدب بالآداب الشرعية، أو كان فاسقاً فإنه لا يستحق ذلك.

وأما صوفية الرسم: فهم المقتصرون على النسبة فهمهم فى اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك، فهؤلاء فى الصوفية بمنزلة الذى يقتصر على زى أهل

العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم، وأعمالهم، بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره، أنه منهم وليس منهم.

إطلاق الفقير في الكتاب والسنة

وأما اسم الفقير فإنه موجود في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، لكن المراد به من الكتاب والسنة الفقير المعادل للغني.

والفقراء والفقير أنواع، فمنه المسوخ لأخذ الزكاة. وضده الغني المانع المحرم لأخذ الزكاة، كما قال النبي ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لقوى مكتسب».

والغني الموجب للزكاة غير هذا عند جمهور العلماء، كمالك والشافعي وأحمد، وهو ملك النصاب، وعندهم قد يجب على الرجل الزكاة، ويباح له أخذ الزكاة خلافاً لأبي حنيفة.

والله سبحانه قد ذكر الفقراء في مواضع لكن ذكر الله الفقراء المستحقين للزكاة في آية والفقراء المستحقين للفق في آية فقال في الأولى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِّنْ سَعِيَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٧١﴾ [البقرة: 271-273].

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نَقْصُكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٢٧٢﴾ [البقرة: 272].

لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا ۝٢٧٣﴾ [البقرة: 273].

وقال في الثانية:

﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِالرَّسُولِ فَخْذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿الحشر: 7 - 8﴾.

الفقير الصابر والغنى الشاكر

وهؤلاء الفقراء قد يكون فيهم من هو أفضل من كثير من الأغنياء، وقد يكون من الأغنياء من هو أفضل من كثير منهم، وقد تنازع الناس أيهما أفضل؟ الفقير الصابر أو الغنى الشاكر؟

والصحيح: أن أفضلهما أبقاهما، فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة، كما قد بيناه في غير هذا الموضع، فإن الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة لا حساب عليهم، ثم الأغنياء يحاسبون، فمن كانت حسناته أرجح من حسنات فقير كانت درجته في الجنة أعلى، وإن تأخر عنه في الدخول، ومن كانت حسناته دون حسناته، كانت درجته دونه.

الزهد والفقر

لكن لما كان جنس الزهد في الفقر أغلب، صار الفقر في اصطلاح كثير من الناس عبارة عن طريق الزهد وهو من جنس التصوف.

فإذا قيل: هذا فيه فقر، أو ما فيه فقر، لم يرد به عدم المال، ولكن يراد

به ما يراد باسم الصوفي من المعارف والأحوال والأخلاق والآداب، ونحو ذلك.

الفقير والصوفي

□ وعلى هذا الاصطلاح قد تنازعوا: أيهما أفضل الفقير أو الصوفي؟

فذهبت طائفة إلى ترجيح الصوفي، كأبي حفص السهروردي ونحوه، وذهب طائفة إلى ترجيح الفقير كطوائف كثيرين، وربما يختص هؤلاء بالزوايا وهؤلاء بالخوانك، ونحو ذلك وأكثر الناس قد رجحوا الفقر.

الأولياء

والتحقيق: أن أفضلهما أتقاهما، فإن كان الصوفي أتقى لله كان أفضل منه، وهو أن يكون أعمل بما يحبه الله وأترك لما لا يحبه كان أفضل منه.

فإن استويا في فعل المحبوب وترك غير المحبوب استويا في الدرجة.

وأولياء الله هم المؤمنون المتقون، سواء سمي أحدهم فقيراً أو صوفياً أو فقيهاً أو عالماً أو تاجراً أو جندياً أو صانعاً أو أميراً أو حاكماً أو غير ذلك.

قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 62 - 63].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت

سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى (1) ولئن سألتنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيزنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله كترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه».

وهذا الحديث قد بين فيه أولياء الله المقتصدين أصحاب اليمين، والمقربين والسابقين، فالصنف الأول الذين تقربوا إلى الله بالفرائض، والصنف الثانى الذين تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، وهم الذين لم يزالوا يتقربون إليه بالنوافل حتى أحبهم.

كما قال تعالى: وهذان الصنفان قد ذكرهم الله فى غير موضع من كتابه كما قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: 32].

وكما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢٢) عَلَى الْأَرْكَانِ يُنْظَرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَمُهُ مِسْكَ وَفِي ذَلِكَ

(1) معنى هذا أنه يصل إلى درجة الإحسان التى هى كمال الإسلام والإيمان التى فسرهما النبى ﷺ فى حديث أسئلة جبريل من صحيح مسلم بقوله «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

والمراد أن هذه المراقبة والحضور القلبى فى الصلاة وغيرها من ذكر الله تغلب على القلب حتى يشعر صاحبهما بأن الله الناظر إليه هو المصرف له فى جميع حركاته الظاهرة والباطنة.

وأظهر من هذا أن يقال: إن هذا من قبيل، والله غالب على أمره، وهو أن يصرف عنه السوء والفحشاء، ويوقفه لما يرضيه من الأقوال والأعمال، فبهذا التوفيق والتسخير يسمع ويبصر ويبطش ويسعى ويفكر لا يهوى النفس وشهواتها.

فَلْيَتَنَافِسِ الْمُنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾
[المطففين: 22 - 28].

قال ابن عباس: يشرب بها المقربون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً. وقال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ [الإنسان: 17 - 18]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّيِّفُونَ السَّيِّفُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: 8 - 11].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: 88 - 91].

وهذا الجواب فيه جمل تحتاج إلى تفصيل طويل لم يتسع له هذا الموضع والله أعلم.

تمت الرسالة

المصادر والمراجع والمعاجم والفهارس

- أولاً: مؤلفات ابن تيمية.
- ثانياً: مصادر العلوم الدينية.
- ثالثاً: مصادر علم الكلام.
- رابعاً: المراجع الحديث.
- خامساً: كتب الطبقات والسير والترجمات.
- سادساً: القواميس والمعاجم والفهارس.

المصادر والمراجع والمعاجم والفهارس

أولاً: مؤلفات ابن تيمية

- 1- ابن تيمية، الاستقامة، تحقيق د. محمد رشاد سالم، دار الفضيلة، الرياض، السعودية، ط 1، 2005م.
- 2- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق د. ناصر بن عبد الكريم، مكتبة الرشد، ط 5، 1996م.
- 3- بغية المرناد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلل والاتحاد، تحقيق ودراسة د. موسى سليمان الدويش، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط 3، 2001م.
- 4- بيان تلبس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية تحقيق د. يحيى بن محمد الهندي وزملائه، مجمع الملك فهد لطبعة المصحف الشريف 1426هـ.
- 5- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط 1، 1986م.
- 6- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن محمد العاصمي النجدي وابنه محمد، ط 1، دار الرحمة للنشر والتوزيع، دمشق 1318هـ ولها طبعة أخرى مصرية تحقيق

- خيرى سعيد، وتقديم د. حسين سيد العفانى، المكتبة التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ.
- 7-..... الرد على المنطقيين، ط 3، باكستان 1976م.
- 8-..... النبوات، دار الكتب العلمية، بيروت 1982م.
- 9-..... الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، دمشق، د. ت - درء تعارض العقل والنقل، تحقيق د. محمد رشاد سالر، ط 1، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية 1979م.
- 10-..... مختصر الفتاوى المصرية، بدر الدين محمد البعلى، ط 1، دار نشر الكتب الإسلامية، باكستان 1977م.
- 11-..... الصارم المسلول على شاتم الرسول، تحقيق محمد الحلوانى ومحمد شودرى، ط 1، دار ابن حزم، بيروت 1997م.
- 12-..... فقه الكتاب والسنة ورفع الحرج عن الأمة، تحقيق فريد الهنداوى، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت 1986م.
- 13-..... نقض المنطق، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة. د. ت.
- 14-..... القواعد النورانية الفقهية، تحقيق محمد حامد الفقى، ط 1، إدارة ترجمان السنة باكستان 1982م.
- 15-..... منهاج السنة النبوية، تحقيق د. محمد رشاد سالر، ط 1، مؤسسة قرطبة، القاهرة، 1986م.
- 16-..... الحسبة فى الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان د. ت.

- 17- الألفة بين المسلمين، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، لبنان، ط 1، سنة 1996م.
- 18- الإيمان، المكتب الإسلامي، ط 4، القاهرة، سنة 1993م.
- 19- التوكل على الله، اعداد وتعليق أبو المجد حرك، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط 1، سنة 1992م.
- 20- بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول على هامش منهاج السنة، طبعة دار الفكر، بيروت، سنة 1321هـ.
- 21- السياسة الشرعية في إصلاح الراعى والرعية، دار الشعب، القاهرة 1971م.

ثانياً: مصادر العلوم الدينية

- 22- القرآن الكريم كتاب الله المكنون.
- 23- سنن ابن ماجه (جزءان) - دار الكتب العلمية، بيروت، ب ت.
- 24- سنن أبي داود (أربعة أجزاء في مجلدين) دار الفكر، بيروت، د.ت.
- 25- سنن النسائي (بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندی) ثمانية أجزاء في أربعة مجلدات، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- 26- صحيح البخارى (تسعة أجزاء في ثلاثة مجلدات، محمد بن إسماعيل البخارى، دار الجليل، بيروت، د.ت.

- 27- مختصر صحيح البخارى، تحقيق محمود بن الجميل، مكتبة الصفا، القاهرة 2005.
- 28- صحيح الترمذى (بشرح الإمام ابن العربى المالکى) دار الكتاب العربى، بيروت، د.ت.
- 29- صحيح مسلم (6 أجزاء)، مسلم بن الحجاج النيسابورى، الريان للتراث، القاهرة، 1987م، وجمع كله فى مجلد واحد، دار الاعتصام، القاهرة، سنة 2011م.
- 30- مسند الإمام أحمد دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م.
- 31- الرازى، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، 1938م.
- 32- العسقلانى (ابن حجر) فتح البارى بشرح صحيح الإمام أبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى، دار الريان للتراث، القاهرة، ط2، سنة 1988م.
- 33- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق وضبط محمد بن الجميل وآخرين، مكتبة الصفا 2004م.
- 34- السيد سابق: فقه السنة، الفتح للإعلام العربى، ط21، القاهرة، 1999م.
- 35- عبد الرحمن الجزيرى: الفقه على المذاهب الأربعة، دار البيان العربى، القاهرة، 2005م.
- 36- محيى الدين أبى ذكريا يحيى بن شرف النووى، صحيح مسلم بشرح صحيح النووى، دار المنار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003م.

ثالثاً: مصادر علم الكلام

- 37- الطبري، جامع البيان، ثلاثة أجزاء، دار المعرفة، بيروت، ط4، سنة 1980م.
- 38- الماوردي (أبي الحسن علي بن محمد) الأحكام السلطانية، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة 2006م.
- 39- المناوي (الإمام عبد الرؤف) الجواهر المضية في بيان الأداب السلطانية، دراسة وتحقيق د. أحمد محمد سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2008م.
- 40- الكواكبي (عبد الرحمن)، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2011م.
- 41- ابن الأزرق (أبي عبد الله) بدائع السلك في طبائع الملك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2007م.
- 42- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت 1407هـ.
- 43- الأمدى، الإحكام في أصول الأحكام، تعليق عبد الرازق عفيفي، المكتب الإسلامي، دمشق، ط1، سنة 1402هـ.
- 44- الغزالي (أبو حامد)، إحياء علوم الدين، صححه محمد بن مسعود الأحمدي، عالم الكتب للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، سنة 2005م.

- 45- الجوزية (ابن القيم) إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، الرياض، ط 1، سنة 1423هـ.
- 46- الجوزية (ابن القيم) بدائع الفوائد، تحقيق على العمران، دار عالم الفوائد، ط 3، سنة 1433هـ.
- 47- الجوزية (ابن القيم) الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية، تحقيق محمد جميل غازي، مطبعة المدني، القاهرة، 1397هـ.
- 48- الجويني (إمام الحرمين) البرهان في أصول الفقه، تحقيق عبد العظيم الديب، مطابع الروضة الحديثة، قطر، ط 1، سنة 1938م.
- 49- الجويني (إمام الحرمين)، غياث الأمم في التياث الظلم، تحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الدعوة، الإسكندرية، سنة 1423هـ.
- 50- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط 2، سنة 1391هـ.
- 51- النووي، روضة الطالبين وعمدة المفتين، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، سنة 1985م.
- 52- الشاطبي (أبو إسحاق إبراهيم بن موسى) الموافقات، تقديم الشيخ بكر أبو زيد، تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، السعودية، ط 1، سنة 1997م.
- 53- الاعتصام، بيروت، سنة 1989م.

- 54- الإيجي، المواقع، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط1، سنة 1997م.
- 55- ابن رجب (عبد الرحمن ابن أحمد) الذيل على طبقات الحنابلة، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة 1952م.
- 56- الآمدى، غاية المرام في علم الكلام، تحقيق حسن محمود عبد اللطيف، القاهرة، سنة 1971م.
- 57- القرافى (أحمد بن إدريس) الفروق، القاهرة 1927م.
- 58- ابن عبد السلام (الشيخ الغز): قواعد الأحكام في مصالح الأنام، مراجعة وتعليق طه عبد الرؤف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، د.ت.
- 59- الغزالى (أبو حامد محمد) الوجيز، طبعة الآداب، القاهرة 1317هـ.
- 60- المستصفى فى أصول الفقه، المطبعة الأميرية، القاهرة 1322هـ.
- 61-: مقاصد الفلاسفة، سلسلة ذخائر العرب، دار المعارف، مصر، 1945م.
- 62- ابن قدامة (موفق الدين أبو عبد الله محمد) المغنى، تحقيق د. عبد الله عبد المحسن التركى، دار هجر للنشر، القاهرة، 1986م.
- 63- المغنى فى شرح مختصر الخرقي، دار الفكر، بيروت 1984م.
- 64- الأصفهاني (الراغب) المفردات فى غريب القرآن، تحقيق سيد محمد سيد الكيلاني، طبعة الحلبي، القاهرة 1961م.

- 65- الشوكاني (محمد بن علي) نيل الأوطار، مطبعة الحلبي، بيروت سنة 1971م.
- 66- النووي (الإمام يحيى بن شرف أبو زكريا) روضة الطالبين وعمدة المفتين، المكتب الإسلامي، بيروت سنة 1985م.

رابعاً: المراجع الحديثة

- 67- الهلالي: (سليم)، ابن تيمية المفترى عليه، المكتبة الاسلامية، عمان، الأردن، ط 1، 1405هـ.
- 68- الدعجاني (د. عبدالله بن نافع) منهج ابن تيمية المعرفي، تكوين للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 2014م.
- 69- الطريدي (عبد الرحمن)، العقل العربي وإعادة التشكيل، كتاب الأمة، قطر، 1993م.
- 70- أحمد (د. فؤاد عبد المنعم) ابن تيمية والولاية السياسية الكبرى في الإسلام، دار الوطن، الرياض، 1417هـ.
- 71- العوا (د. محمد سليم) في النظام السياسي للدولة الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، ط 2، 206م.
- 72- السهموري (رائد)، نقد الخطاب السلفي، ابن تيمية نموذجاً، طوى للنشر والتوزيع، لندن، ط 1، 2010م.
- 73- أبو زهرة (محمد) أصول الفقه، دار الفكر العربي، بيروت د.ت.

- 74- الصافي (لؤي) إعمال العقل، دار الفكر، دمشق، ط 1، سنة 1998م.
- 75- الجليند (د. محمد السيد) الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل، عكاظ للنشر والتوزيع، السعودية، ط 3، سنة 1983م.
- 76- الجابري (د. محمد عابد) تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 8، سنة 2002م.
- 77- المبارك (محمد) أداء ابن تيمية في الدولة ومدى تدخلها في المجال الاقتصادي، دار الفكر، بيروت، سنة 1971م.
- 78- أبو زهرة (الشيخ محمد)، ابن تيمية حياته وعصره، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
- 79- البيطار (محمد بهجت)، حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 2، سنة 1972م.
- 80- الدريني (د. محمد فتحي) خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، سنة 1982م.
- 81- المنجد (صلاح الدين) شيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكتاب الجديد، بيروت 1976م.
- 82- الشرقاوي (عبد الرحمن) ابن تيمية الفقيه المعذب، دار الموقف العربي، القاهرة سنة 1983م.
- 83- البدوي (د. اسماعيل) معالم الشورى في الإسلام، دار الفكر العربي، ط 1، القاهرة، سنة 1986م.

- 84- البوطى (محمد سعيد رمضان) ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت 1982م.
- 85- الدسوقي: (محمد)، منهج التقارب بين المذاهب الفقهية، دار التقريب، بيروت، ط1، 1994م.
- 86- العقاد: (عباس محمود)، التفكير فريضة إسلامية، دار القلم، ط1، القاهرة.
- 87- المتولي: (صبري)، منهج ابن تيمية في التفسير، عالم الكتب، القاهرة، 1401هـ - 1981م.
- 88- المقرئزي: الخطط المقرئزية، المطبعة الأميرية، بولاق، 1951م.
- 89- الندوي: (أبو الحسن)، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين دار الكتاب العربي، بيروت، ط6، 1385 هـ - 1965م.
- 90-: حياة ابن تيمية، تعريب سعيد الأعظمي، دار القلم، الكويت، ط1، 1395هـ - 1975م.
- 91- الهلالي: (سليم)، ابن تيمية المفترى عليه، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، ط1، 1405هـ.
- 92- الزحيلي (د. وهبه): نظرية الضرورة الشرعية مقارنة مع القانون الوضعي، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت د.ت.
- 93- بن باديس (عبد الحميد بن محمد) آثار بن باديس إعداد وتصنيف د. عماد الطالبي، ط2، دار المغرب الإسلامي، بيروت سنة 1983م.

- 94- بيجوفتش (على عزت) الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، مؤسسة بافاريا للنشر، ط 2، سنة 1997.
- 95- بارتولد (ف): تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف بمصر د. ت.
- 96- خان (د. قمر الدين)، ابن تيمية وفكره السياسي، ترجمة وتعليق أحمد مبارك البغدادى، مكتبة الفلاح، الكويت، سنة 1985م.
- 97- خالد (خالد محمد) الدولة في الإسلام، دار الثابت، القاهرة، سنة 1981م.
- 98- خلاف (عبد الوهاب): - علم أصول الفقه، طبعة القاهرة سنة 1940.
- 99- دراز (د. محمد عبد الله) دستور الأخلاق في القرآن، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن، تعريب وتحقيق د. عبد الصبور شاهين، مراجعة د. السيد محمد بدوى، مؤسسة الرسالة، ط 10، سنة 1998م.
- 100- رضا (محمد رشيد) تفسير المنار، مطبعة المنار، القاهرة، ط 3، سنة 1956م.
- 101- زادة: طاش كبرى، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الكتب الحديثة، بيروت، لبنان، 1968.
- 102- شلبى (د. محمد مصطفى) الاستحسان في الفقه الإسلامى وعلاقته بالاستثناء في التشريع، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، سنة 1971م.

- 103- شلتوت (الشيخ محمود)، الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، القاهرة، سنة 1966م.
- 104- عودة (د. عبد القادر) الإسلام وأوضاعنا السياسية، مؤسسة الرسالة، القاهرة، سنة 1984م.
- 105- عمارة (د. محمد) الإسلام وفلسفة الحكم، دار الشروق، القاهرة، بيروت سنة 1989م.
- 106- عبد الرحمن: (د. طه)، العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 2، 1997.
- 107- عثمان (د. عبد الكريم): معالم الثقافة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت سنة 1982م.
- 108- عبد الرحمن (د. السيد): حقوق الآخر العقائدي في ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية، بحث منشور بمجلة كلية الآداب، جامعة الزقازيق، خريف 2006.
-- مشكلة الدور في منهج المتكلمين، دار شعاع للطباعة والنشر، المنصورة 2010م.
- 109- فؤاد (عبد الفتاح أحمد) ابن تيمية وموقفه من الفكر الفلسفي، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، سن 1983م.
- 110- كوناكاتا (د. حسن) النظرية السياسية عند ابن تيمية، دار الأخلاء، الدمام، 1994م.

- 111- موسى (د. محمد يوسف)، ابن تيمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة 1977م.
- 112-: بين الدين والفلسفة، دار المعارف، مصر، 1968م.
- 113- القرآن والفلسفة، دار المعارف، مصر، ط 1، 1971.
- 114- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد الهيثمي، دار الكتاب، بيروت، ط 2، 1967م.
- 115- منز (آدم): الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ط 2، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1995.
- 116- وات (مونتجومري): فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ط 1، ترجمة حسين أحمد أمين، دار الشروق بيروت - القاهرة، سنة 1983م.

خامساً: كتب الطبقات والسير والترجمات

- 117- البزار (أبو حفص عمر بن علي) الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط 1، سنة 1432هـ.
- 118- الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، جمعه ووضع فهارسه محمد عزيز شمس، وعلي بن محمد العمران، إشراف وتقديم بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط 3، 1472هـ.
- 119- الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد) سير أعلام النبلاء، تحقيق

وضبط شعيب الأرناؤوط وحسين الأسدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، سنة 1981م.

120- الفراء (أبي الحسن) طبقات الحنابلة، تحقيق محمد الفقى، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة سنة 1952م.

121- ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، سنة 2001م.

122- ابن عبد الهادي (محمد بن أحمد) العقود الدرية في ذكر بعض مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط1، سنة 1422هـ.

123- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي إشراف داليا محمد إبراهيم، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط4، سنة 2006م.

124- ابن الأثير (علي بن أبي الكرم محمد) الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، سنة 1966م.

125- ابن كثير (أبو الفداء اسماعيل بن عمر) البداية والنهاية، مكتبة النصر الرياضي، ط2، سنة 1978م.

126- الطبري (ابن جرير) تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، القاهرة، ط4، سنة 1979م.

127- الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان) تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث

العربي، بيروت، سنة 1374هـ.

128- ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - بيروت، د.ت.

129- ابن عبد الهادي (محمد): العقود الدرية في مناقب ابن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقى، القاهرة، سنة 1938م.

130- ابن خلكان (شمس الدين أحمد) وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، سنة 1968م.

131- الحنبلي: (ابن عماد)، شذرات الذهب في معرفة أخبار من ذهب. مكتبة القدس، القاهرة، 1351هـ.

132- السبكي: (تاج الدين)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود طننجي، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، 1383هـ.

133- المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1942م.

سادساً: القواميس والمعاجم

134- القاموس المحيط، الفيروز آبادى، مجد الدين محمد بن يعقوب، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة 1987م.

135- ابن منظور، لسان العرب المحيط، إعداد وتصنيف يوسف الخياط، دار صادر، بيروت 1968م.

- 136- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، إعداد محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- 137- المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، دار الكتاب العالمي، بيروت، لبنان، سنة 1994م.
- 138- المعجم الفلسفي، د. مراد وهبه، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 5، سنة 2007م.
- 139- معجم مقاييس اللغة، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- 140- إبراهيم أنيس وجماعة، المعجم الوسيط، ط 2، القاهرة، د.ت.
- 141- موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، سنة 1984م.
- 142- موسوعة لالاند الفلسفية، أندريه لالاند، تعريب، خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط 2، سنة 2001م.
- 143- الحموي: ياقوت، معجم البلدان، مطبعة السعادة، ط 1، القاهرة.
- 144- الحفني: عبد المنعم، الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار الفكر، القاهرة.

المؤلف فى سطور

محمد ممدوح عبد المجيد

- ❑ مواليد المنصورة 1982م.
- ❑ حصل على ليسانس آداب - قسم الفلسفة 2003 من جامعة المنصورة.
- ❑ حصل على تمهيدى ماجستير - جامعة الزقازيق 2005.
- ❑ حصل على درجة الماجستير فى الفلسفة (الفلسفة اليونانية والسياسية) من جامعة المنصورة 2009....
- ❑ حصل على الدبلومة العامة فى التربية- كلية التربية - جامعة المنصورة 2013.
- ❑ حصل على درجة الدكتوراه فى الآداب - قسم الفلسفة - جامعة القاهرة - تخصص «فلسفة يونانية» وفلسفة قانون 2014م.
- ❑ حصل على درجة الدكتوراه من كلية الآداب- جامعة المنصورة - وهى الدكتوراه الثانية - تخصص الفلسفة الإسلامية والتصوف - موضوع الرسالة «مقاصد الشريعة عند ابن تيميه وآليات تحقيقها»، 2016م.

أبحاث منشورة

- ❑ فلسفة المستقبل عند أفلاطون - مجلة ديوجين ويصدرها قسم الفلسفة - كلية الآداب - جامعة القاهرة 2014.

- المرأة بين الآلية والفطرة (بحث فقهي) منشور بالكتاب التذكاري للدكتور الخشت.
- سر السؤال السقراطي - مجلة مقاربات فلسفية - جامعة مستغانم - الجزائر العدد الثاني 2014.
- أعماق محاکمة سقراط - ضمن مؤسسة مؤمنون بلا حدود، منشور بتاريخ 20 يناير 2015.
- الطغيان وانهيار الإنسان - بحث فلسفي منشور ضمن الكتاب التذكاري للدكتور إمام عبد الفتاح إمام.
- كتب التصدير لكتاب «التعليم في الوطن العربي قضايا وإشكالات» للكاتب الأستاذ محمد السيد صالح....
- الشيوعية الدينية عند اخوان الصفا وأثرها على الفكر السياسي المسيحي، بحث ضمن كتاب عن الفلسفة الإسلامية منشور بكلية الآداب - جامعة بغداد 2014.
- «القانون بين السوفسطائيين وسقراط» ضمن مؤسسة مؤمنون بلا حدود، منشور بتاريخ 28 / 10 / 2015.
- تجديد الخطاب الديني وفقه الأولويات.... مقال منشور بمجلة الثقافة الجديدة، عدد أبريل 2016م.
- العضلات الكبرى في فلسفة الدين.... قراءة في كتاب مدخل إلى فلسفة الدين للدكتور مصطفى النشار، ضمن مؤسسة مؤمنون بلا حدود، مارس 2016م.

- الألوهية فلسفة أم اعتقاد، بحث منشور بمجلة الثقافة الجديدة، عدد أغسطس 2016.
- بين الفلسفة والعلم في واقعنا العربي المعاصر.... ضمن مؤسسة مؤمنون بلا حدود.... يناير 2016م.
- المنهج المعرفي عند ابن تيميه، بحث منشور بمجلة كلية الآداب، عدد 59، جامعة المنصورة.
- العضلات الكبرى في التصوف، مجلة الثقافة الجديدة، عدد يونيه 2016م.

كتب منشورة

- فلسفة المقاومة في السياسة والقانون عند اليونان والرومان - دار الوراق للطباعة والنشر - الأردن 2014.
- تنمية القدرات وقهر الصعوبات (تنمية بشرية) - دار الوراق للطباعة والنشر - الأردن 2014.
- العدالة من المفهوم إلى الإجراء، دراسة في المنجز الفلسفي من السوفسطائيين حتى شيشرون، دار روافد وابن النديم للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2015 وبتصدير الأستاذ الدكتور علي عبود المحمداوى أستاذ الفلسفة السياسية بجامعة بغداد...
- فلسفة القانون بين أفلاطون وشيشرون، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، 2014.

- ❑ مدخل جديد إلى فلسفة القانون وإشكالياتها، بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور مصطفى حسن النشار، المصرية اللبنانية للنشر، القاهرة، 2016م.
- ❑ سقراط «اغتيال العقل» المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، 2014.
- ❑ ترجم محاورتي «القوانين» و«الجمهورية» لشيخون أثناء بحثه للدكتوراه وهما الآن قيد النشر...
- ❑ من النقد إلى فلسفة النقد «قراءة في فكر مصطفى النشار» إشراف وتقديم الأستاذ الدكتور عصمت نصار وتصدير الأستاذ الدكتور حسن حنفى وإعداد وتحرير دكتور محمد ممدوح عبد المجيد... دار روافد وابن النديم، بيروت، لبنان 2016م.
- ❑ المقاومة من النظرية إلى التطبيق «قراءة في المنجز الفلسفى من السوفسطائيين حتى أرسطو» تصدير الأستاذ الدكتور مصطفى النشار، دار روافد وابن النديم، بيروت، لبنان 2016...
- ❑ النهضة العربية... الحلم العربى واقعياً عند مصطفى النشار، دار روافد وابن النديم، بيروت، لبنان 2016م.
- ❑ المواطنة فى الإسلام، العضلات والإشكالات، تصدير أ.د. مصطفى النشار، تقديم أ.د. محمد سعيد زيدان، نيو بوك للنشر والتوزيع، القاهرة 2016م.
- ❑ ابن تيمية ظلماً أم مظلوماً، تصدير أ.د. السيد عبد الرحمن، نور بوك للنشر والتوزيع، 2017.

كتب تحت الطبع

- التصوف خلاص الإنسانية (تحت الطبع).
- مقاصد الشريعة الإسلامية عند ابن تيميه (تحت الطبع).

الأعمال الصحافية

- كاتب عمود فكرى بالعديد من الجرائد والمجلات مثل جريدة الأهرام المصرية و جريدة مصر اليوم واليوم السابع وجريدة الرؤية الإماراتية والوفد والمصريون ومجلة بلدنا ومجلة منبر الحرية والثقافة الجديدة.....
- كاتب مقال فكرى أسبوعى بجريدة الرؤية الإماراتية صباح كل اثنين.

